المدينة المنورة

معالم وحضارة

١

المعالم

دكتور

محمد السيد الوكيل

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

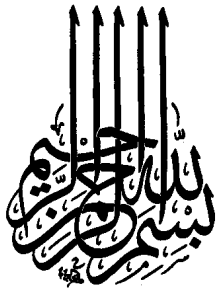
بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة

معالم وحضارة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذا هو الجزء الخامس من موسوعة المدينة المنورة التاريخية، قصدت فيه توضيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في المدينة المنورة بعد انتقال مقر الخلافة إلى الشام في عهد الأمويين، ثم إلى العراق في عهد العباسيين، ولئن كان مقر الخلافة يعطي من غير شك امتيازات كثيرة للمكان، لا يحوزها أي مكان آخر مهما توفرت له أسباب الامتيازات، فإن المدينة المنورة، قد جمعت بين امتيازات مقر الخلافة، وبين كونها مثوى الرسول الأعظم ﷺ، فكانت بذلك مهوى أفئدة المسلمين، ومتطلع أرواحهم، حتى بعد أن فقدت امتيازات مقر الخلافة.

ولا شك أن المدينة المنورة فقدت مكانتها السياسية والاقتصادية بعد أن انتقل عنها مقر الخلافة، فتطلعت أعين الناس إلى المقر الجديد، يطلبون عنده الجاه، ويبتغون منه الرزق، ولكنها مع ذلك، ظلت مشرق النور، ومسكن الأرواح، وقبلة رواد الآخرة، ولئن انصرف الناس عنها يطلبون الدنيا، ويلهثون وراء حطامها، فإنهم في النهاية لا يجدون أرواحهم ولا تستقر قلوبهم، ولا تهدأ نفوسهم إلاّ في المدينة المنورة، فهي مهبط الوحي، ودار الهجرة ومستقر الأنصار الذين آووا ونصروا، وضحوا في سبيل الله بكل غال ونفيس.

ومهما حاول الخلفاء اجتذاب الناس إلى مقرهم الجديد، فشجعوا الشعراء بالجوائز، واستقدموا العلماء وقدموهم، وانتقل ذوو المصالح إلى المقر الجديد رغبة في نوال الخلفاء والتقرب إليهم، فإن جميع هؤلاء كانوا يشعرون بحنين يذيب قلوبهم، وعاطفة تتأجج شوقاً في صدورهم، وكانوا لا يجدون إرواء هذا الحنين، ولا إطفاء هذا الشوق إلاَّ في رحاب الحرم النبوي في المدينة المنورة.

لقد ذبلت كل مطالب الدنيا في المدينة المنورة، وازدهرت كل مطالب الآخرة في رحابها، ولم يصبر كثير من الناس على لأوائها، ومع ذلك كانت خيراً لهم من غيرها.

يقول رسول الله ـ ﷺ ـ: يفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون[1] فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح الشام، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح العراق، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[2].

ذلك لأن المدينة وإن ضاقت فيها أسباب العيش، واشتد البلاء بأهلها، غير أن أسباب الحياة الروحية متوفرة بما لا يوجد في غيرها، قد يجد الناس ما يملؤون به بطونهم، وتظل أرواحهم خاوية، وقد يجد الناس ما يسترون به عوراتهم، ولكن قلوبهم لا تزال عارية، وقد يجدون ما يرفهون به عن أنفسهم، ولكن عقولهم لا تفتأ قاصية، إن الحياة الحقيقية للإنسان ليست في مطعم أو مشرب، ولا تتحقق له إنسانيته من خلال ترف أو ترفيه، ولكن حقيقة حياته تتمثل في روح متصلة بالملأ الأعلى، وقلب عامر بالذكر والتقوى، ونفس مملوءة باليقين والحكمة.

---

(١) يبسُّون: يسيرون سيراً شديداً، والبَسُّ: هو سوق الإبل.

(٢) رواه مسلم، باب الترغيب في المقام بالمدينة عند فتح الأمصار.

إن الناس يتهافتون على أماكن النعيم، ويتزاحمون على مواضع الرخاء، ولكن المؤمنين لا يعنيهم من الدنيا إلاَّ المعابر التي توصلهم إلى الآخرة، وجدوا هناك النعيم أو فقدوه، ولا يهمهم منها إلاَّ ما يربط قلوبهم بالله، حصلوا هناك على الرخاء أو منعوه، وفي هذا يقول ﷺ :

يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه، هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد[1].

لهذا ظلت مكانة المدينة في قلوب المؤمنين هي هي، وإن فقدت مميزاتها كمقر للخلافة، أو ضاقت بالناس سبل العيش فيها، ولم تكن مكانتها تلك في قلوب المؤمنين الذين يجدون فيها ما يعوض ضيق العيش بسعادة الروح، ولا ما يخلف مرارة الحياة بحلاوة الإيمان، ولكن مكانتها هذه كانت عند كل مسلم وعلى كل حال، حتى الذين لا يفضلون نعيم الروح على متعة الجسد لأنهم يشعرون أنها البلد الذي آوى المسلمين وبذل كل ما يحتاجون إليه في وقت شدتهم، ثم هي في النهاية البلد الذي أحبه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى قال لأهلها: المحيا محياكم والممات مماتكم[2].

ويستتبع الكلام على المدينة المنورة، الكلام على ما فيها وما حولها من الآثار الدينية، والأماكن التاريخية، فإن المدينة تضم بين لابتيها من الآثار ما ينبغي على المؤمن معرفته، ويرتبط تاريخها الإسلامي بمعالم لا يجوز لمؤمن أن يجهلها.

ذلك لأن هذا التاريخ هو الجد الذي ينتسب إليه المؤمن، فيستفيد بما فيه من العبر، ويقتفي أثر رواده في المسيرة إلى المجد والعز اللذين كتبهما

---

(١) رواه مسلم باب المدينة تنفي خبثها.

(٢) وفاء الوفا (١/ ٢٣٣).

الله للمؤمنين، وإن أمة انقطع نسبها عن تاريخها لهي أمة ضائعة، وإن قوماً انْبَتَّتْ صلتهم بماضيهم لهم قوم ضالون.

لهذا كان الصحابة يأخذون أولادهم إلى أماكن تاريخهم، ويروونهم تاريخهم وأمجادهم، يقول أحدهم: إن كنا لنروِّي أبناءنا الغزوة من الغزوات كما نحفظهم الآية من القرآن.

فلا بد إذاً من دراسة الأماكن الأثرية والتاريخية المرتبطة بالمدينة المنورة، لأننا بذلك نستكمل دراستنا التاريخية للمدينة، فحول المدينة كانت وقائع وغزوات، وحول المدينة بنيت مساجد، وأقيمت صلوات، وبالقرب من المدينة كانت سقيفة بني ساعدة أول مقر لمجلس الشورى بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى مشارف المدينة حفر الخندق، وكانت الغزوة التي تحول بعدها قتال المسلمين من الدفاع إلى الهجوم، وقال فيها رسول الله ـ ﷺ ـ: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم[1].

وعلى بُعد ثلاثة كيلومترات من المدينة أو تزيد قليلاً تقع واحة قباء أول مكان أقام فيه الرسول ـ ﷺ ـ بعد الهجرة، وفيها دار كلثوم بن الهدم البيت الذي أقام فيه الرسول أربعة أيام قبل تحوله إلى المدينة المنورة، وفي وادي رانوناء، أقام رسول الله ـ صلاة الجمعة ـ بأصحابه في مكان يعرف بالغبيب، فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ بأصحابه، وكانت خطبتها أول خطبة خطبها.

وهناك حول المدينة الكثير من الآثار الدينية والتاريخية غير ما ذكرت، كلها تستحق الدراسة والنظر، حتى يكون المسلم على معرفة تامة بعاصمة الإسلام الأولى، تاريخياً وحضارياً، فلا يفوته عنها شيء.

وكانت الحركة العلمية في المدينة مستمرة لم تنقطع برغم تحول العاصمة عنها، وبرغم ما كان من أمرها من ضعف الأوضاع الاقتصادية، وكان

---

(١) رواه البخاري في غزوة الخندق.

المسجد النبوي مصدر الإلهام، ومبعث الإشراق ومركز الرحا، يفد إليه العلماء من أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة من الشام ومن العراق ومن مصر، ومن المغرب العربي، وحتى من الأندلس، ينهلون من بحور العلم التي كانت تتدفق من خلال حلقات الدروس التي كانت تعقد فيه.

وكان على رأس العلماء فيه الفقهاء السبعة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم: سعيد بن المسيَّب، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وهؤلاء السبعة هم الأئمة الذين يرجع إليهم في الفتوى، وقد أوجدوا في المدينة حركة علمية واسعة، ونشاطاً عقلياً لا نظير له، حيث كانوا يستنبطون الأحكام، ويفتون في المعضلات، ويحلون بفهمهم وعقلهم أعوص المشكلات.

فكان لا بد من معرفة هذه الحركة، والوقوف على ما أحدثته من تطوير في الأوضاع المختلفة، ومدى تأثيرها على عقول المسلمين، واستفادتهم منها.

على أننا يجب ألا ننسى أن الحركة العلمية في عهد الرسول ـ ﷺ ـ وفي عهد الخلفاء الراشدين ـ رضوان الله عليهم ـ والتي تناولتها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة، كانت هي البذرة الصالحة التي نبتت عنها هذه الحركة العلمية، والتي امتدت منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، بل ستمتد ـ إن شاء الله ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فهي إذاً حركة علمية ذات جذور ثابتة، لم يطرأ عليها التحريف، ولم يدخلها الزيغ، مؤسسة على مبادىء وأصول مستمدة من كتاب الله ـ عز وجل ـ ومستندة إلى سنة النبي ـ ﷺ ـ يشد أزرها ما تستنبطه عقول هؤلاء الصالحين من سلف الأمة، وكبار الأئمة، لهذا فإن هذه الحركة أثْرَت الفقه الإسلامي، بما أحدثته فيه من الأقضية، وما جددته فيه من الأحكام.

لابد من متابعة هذه الحركة العلمية في كل مراحلها، سواء مراحل النمو

والازدهار، أم مراحل الجمود والتقوقع، حتى نعلم مدى التطور الذي أحدثته هذه الحركة في الفقه الإسلامي.

على أننا ينبغي أن نعلم أن الحركة العلمية استمرت متطورة، يحمل لواءها علماء فضلاء، كالإمام مالك ـ رحمه الله ـ وتلامذته الذين جابوا البلاد، وطَوَّفوا الآفاق، وازدهرت على أيديهم الحركة العلمية في المدينة المنورة، واستمرت من بعدهم تطوي الزمن، وتسير في كل مكان حاملة لواء العلم والمعرفة، لم يوقفها شيء، ولم تتوقف هي عند أي شيء.

وظلت كذلك حتى لحقتها عوامل التطور الحديث في العهد العثماني، ثم كانت في العهد السعودي؛ حيث فتحت المدارس، واتسعت ثم اتسعت لعشرات الآلاف من التلاميذ، ثم فتحت الجامعات في المدينة: الجامعة الإسلامية، ثم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم جامعة الملك عبد العزيز، وفتحت هذه الجامعات أبوابها تستقبل الطلاب، وتغذيهم بالعلم، وتنير عقولهم بالثقافة التي كانوا يفتقدونها.

وهكذا كانت المدينة المنورة مركز إشعاع، تضيء للذين يقصدونها طريقهم، وتدلهم على الخير الذي كانوا ينشدون، فيواصلون المسيرة، ويصلون إلى بر الأمان.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

دكتور

محمد السيد الوكيل

أسباب
نقل مقر الخلافة من المدينة المنورة

ظلت المدينة المنورة منذ هاجر إليها رسول الله ـ ﷺ ـ عاصمة الدولة الإسلامية بلا منازع، فقد كانت هي الدولة، وهي العاصمة، حيث لم يكن في الجزيرة العربية قرية تدين بالإسلام غيرها، ومنذ اللحظة الأولى لدخول النبي ـ ﷺ ـ إليها، وإعلانه قيام دولة الإسلام، وهي في تحد سافر مع مكة وأهلها الذين كانوا يتزعمون حركة التمرد ضد الإسلام ودولة الإسلام.

وبعد هزيمة أهل مكة في معركة بدر الشهيرة، اتجهت الأنظار إلى المدينة المنورة، فقد رأى سكان الجزيرة انتصار أهل المدينة هذا الانتصار المذهل على زعماء مكة وجيشها، وسمعوا بالقوة الناشئة تتصدى للقوة التي كانت ترهب العرب، وتفرض نفسها على القبائل، سواء بقوتها، أم بمكانتها، ولفت أنظارهم أن أهل المدينة لم تكن لهم جولات عسكرية خارج بلادهم، بل كانت كل معاركهم قائمة فيما بينهم، مما دعاهم إلى التفكير في هذا التحول الذي طرأ على المدينة.

وبالطبع لم تكن هناك أسباب ظاهرة يمكن تفسير هذا التحول بها سوى دخول الإسلام إليها، مما أرغم الناس على التفكير في أمر هذا الدين الجديد، برغم ما كان يقوم في وجهه من الصعوبات فهو دين جديد لم يْلَفْوا عليه آباءهم، وهو يهدد آلهتهم التي ورثوها عن أجدادهم، وفوق ذلك تلك الدعاية المحمومة التي كان يطلقها أهل مكة لصد الناس عنه.

ثم فتح المسلمون مكة، وأذعن أهلها للإسلام، ودخلوا في دين الله طائعين أو مكرهين، وبالتالي دخلت الجزيرة كلها في الإسلام، وتوحدت دينياً وسياسياً، وأصبحت المدينة عاصمة لها دون منازع، وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ ارتدت الأطراف، وتمرد العرب، ولم يبق على الإسلام إلاَّ المدينة ومكة والطائف، وجاهد الخليفة الأول ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ حتى أعاد الجزيرة إلى حظيرة الإسلام، وأعاد للمدينة المنورة مكانتها ومنزلتها في النفوس.

ثم كانت خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ وفيها امتد سلطان المدينة المنورة إلى خارج الجزيرة، فلم تكن المدينة عاصمة للجزيرة فقط، ولكنها كانت كذلك عاصمة لأكبر وأوسع دولة عرفها التاريخ حين ضمت دولة الإسلام بلاد الفرس وبلاد الروم تحت سلطة خليفة المسلمين.

وكانت حدود الدولة الإسلامية حينئذ على النحو الآتي:

من الشمال بحر قزوين وآذربيجان، ومن الجنوب المحيط الهندي وبحر العرب.

ومن الشرق بحر عمان ومكران وسجستان، ومن الغرب البحر المتوسط ومصر وبلاد النوبة[1].

وفي عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ اتسعت رقعة الدولة، وانضمت بلاد شمال أفريقيا حتى تونس إلى الدولة الإسلامية، ووصلت جيوش المسلمين في الشمال الشرقي إلى طبرستان، كما دانت بلاد ما وراء النهر لسلطة المدينة المنورة.

ومن هذا العرض السريع نرى مدى ما وصلت إليه سلطة الخليفة في المدينة المنورة، ونقف على مدى ما كانت تتمتع به من السلطة السياسية على هذه الرقعة الفسيحة التي لم يسبق لدولة من الدول، ولا لأمة من الأمم أن حكمت مثلها.

وآلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكان ذلك بعد

---

(١) موسوعة المدينة المنورة التاريخية (٣/ ١٥٧).

الفتنة، وفي أعقاب مقتل الخليفة ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وكانت الأمور قد تشعبت على المسلمين، ودوت أصداء الفتنة في أنحاء الدولة، فكان في البصرة تجمع للمطالبة بدم عثمان، كذلك كان في الشام إلحاح للمطالبة بالقصاص من قتلته، ووجد الخليفة نفسه وهو في المدينة بعيداً عن مواقع الأحداث فقرر نقل مقر الخلافة إلى العراق، وإلى الكوفة بالذات.

والذي يظهر من استقراء الأحداث أن الخليفة ـ رضي الله عنه ـ اتخذ هذا القرار تحت ضغط ظروف سياسية خارجة عن إرادته نلخصها فيما يأتي:

١ ـ إن علياً كان يرى أنصاره وأعوانه بالعراق، ويرى أنهم هم الذين سيقفون وراءه، وبخاصة بعد أن قعد عن الخروج معه كبار الصحابة المقيمون بالمدينة.

٢ ـ كان علي يرى أن أهل الشام سيثبون على العراق، وأنه لا بد أن يكون قريباً منهم حتى يردهم إذا وثبوا.

٣ ـ إن علياً كان يرى أن من حقه إخضاع الخارجين عليه، بالإقناع أو بالحرب، وقد خرج عليه طلحة والزبير، وتحصنا بالبصرة، فرأى أن يتخذ الكوفة مقراً له، وبخاصة وأن فيها المال والرجال الذين سيكونون معه على أعدائه.

تلك هي الأسباب التي دعت علياً ـ رضي الله عنه ـ إلى ترك المدينة، واتخاذ الكوفة عاصمة له. وإنني أعتقد أن علياً لم يكن ليترك المدينة، ويتخذ الكوفة عوضاً عنها لمجرد الأسباب المذكورة فقد كان يستطيع أن يجرد الجيوش من أهل العراق، ويولي عليهم الأمراء والقواد وهو مقيم بالمدينة، وقد كان الخلفاء من قبله يفعلون ذلك.

ولهذا فإنني واثق أن وراء خروج الخليفة من المدينة، واتخاذ الكوفة مقراً للخلافة، ضغوطاً قوية، لم يقو الخليفة على مقاومتها، واتخاذ موقف حاسم بالنسبة إليها، وكان على رأس هذه الضغوط الضغط المباشر الذي قام به قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ حيث لم يكن من مصلحة أحلاس الفتنة بقاء الخليفة في المدينة، لأن المسلمين كانوا قد عرفوا قتلة عثمان، وكانوا ينظرون إليهم على أنهم متمردون قَتَلَة، لا يستحقون من المسلمين إلاّ الهوان

والاحتقار، وقد شعر هؤلاء بأن المسلمين يتحينون الفرص للانتقام منهم، والأخذ بثأر عثمان من رقابهم.

فكان عليهم إذاً أن يخرجوا الخليفة من مقره المألوف، ليبتعدوا عن أعين المسلمين أولاً، وليدفعوا الخليفة إلى حيث لا يمكنه القصاص منهم إذا طالبه المسلمون بذلك ثانياً، ويؤيد ذلك ما يأتي:

١ ـ من المعلوم أن الفتنة التي أودت بحياة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كان يتزعمها عبد الله بن سبأ، وكان هذا يدير كل العمليات المنحرفة عن طريق أعوانه، ولم يكن أحد في المدينة من أعوانه، فكان لا بد أن يعمل جاهداً على نقل الخلافة إلى مكان له فيه أعوان يساعدونه على تنفيذ مخططاته الإجرامية.

٢ ـ إن مالك بن الحارث (الأشتر النخعي) من أكبر أعوان ابن سبأ، وهو من الكوفة، بل هو قائد حملة الكوفة التي اشتركت في قتل الخليفة، لهذا أقنع أمير المؤمنين ـ علياً ـ رضي الله عنه ـ بأن ينقل مقر الخلافة إلى الكوفة، وأفهمه بأن فيها المال والرجال.

٣ ـ وقد ثبت أن مالك بن الحارث هذا كان يحرض علياً على إجبار الصحابة على السير معه إلى العراق، فإنه لما اعتذر سعد بن أبي وقاص، وعبد الله ابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، لما اعتذروا عن الخروج مع علي إلى العراق، دخل عليه مالك فقال:

يا أمير المؤمنين، إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار، فإنا من التابعين لهم بإحسان، وإن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه، فليسوا بأولى مما شاركناهم فيه، وهذه بيعة عامة، الخارج عنها طاعن مستعتب، فحُضَّ هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان، فإن أبوا فأدبهم بالحبس[1].

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٤٣.

ويبدو أن الثوار قد استطاعوا إقناع الخليفة بخطتهم، ليحيطوا به من كل جانب، ولا يدعون فرصة للمخلصين ليقدموا مشورتهم ورأيهم له، ولهذا لما اجتمع كبار الصحابة من الأنصار، ودخلوا على أمير المؤمنين، وتكلم عقبة بن عامر البدري فقال:

يا أمير المؤمنين، إن الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ والسعي بين قبره ومنبره، أعظم مما نرجو من العراق، فإن كنت إنما تسير لحرب الشام، فقد أقام عمر فينا، وكفاه سعد زحف القادسية، وأبو موسىٰ زحف الأهواز، وليس من هؤلاء رجل إلاّ ومثله معك، والرجال والأيام دول.

كان من المنتظر أن تؤثر هذه الكلمة الطيبة، التي تهز الوجدان، وتحرك العاطفة، وتجعل القلب يحن حنيناً إلى البقاء في المدينة، كان من المنتظر أن تعيد إلى الخليفة فكرة البقاء في المدينة، والتشبث بمقر الخلافة، ولكن المتمردين كانوا قد سبقوا إلى قلب الخليفة وحركوه لينطلق نحو العراق، ولهذا كان رد عليٍّ على هذه الكلمة الرقيقة أن قال:

إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها[1].

ومن هذا نستطيع أن نقول إن الخليفة قد قرر قراراً لا رجعة فيه بنقل مقر الخلافة من المدينة إلى العراق، وإلى الكوفة بالذات.

وبهذا التحول من المدينة إلى الكوفة، فقدت المدينة مركزها السياسي والاقتصادي.

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٤٣.

أثر تحول مقر الخلافة إلى الكوفة

كانت المدينة قبل هذا التحول قبلة أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فكانت الأوامر تصدر منها إلى الجهات المختلفة، وكان الأمراء والولاة يفدون إليها، كما كان القواد يتلقون منها أوامر الخليفة فيما يخص الحرب والسلم، وكانت القيادة العليا للجيش، تنظم الجيوش وتعد السرايا، وتبعث بها شرقاً وغرباً، تفتح الأرض، وتنشر السلام، وتتصدى للطغاة، وتذل المتجبرين.

وكان الأكاسرة والقياصرة يرسلون رسلهم إلى المدينة، يخطبون ود الخليفة، وينتظرون رد رسائلهم، وظلت المدينة تتمتع بهذا النفوذ السياسي خمسة وثلاثين عاماً، حتى كانت الفتنة، وتحول الخليفة طوعاً أو كرهاً إلى الكوفة، وهنا بدأت المدينة تفقد مكانتها السياسية.

وتوجهت الأنظار التي كانت تتلفت إلى المدينة نحو الكوفة، حتى أصبحت مقصد الناس تهوي إليها قلوبهم، وترقبها بشغف أفئدتهم، وكيف لا وهي مقر الخلافة، وأضحت مصدر أوامره ونواهيه، وفيها تنظم الجيوش، وتنطلق منها غازية، وإليها ترفع أحوال الرعية، وتقصدها الوفود من أنحاء الدولة، وهكذا احتلت الكوفة مكانة المدينة السياسية.

لقد كان نقل العاصمة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة خطأً سياسياً، وقع في ظروف غير طبيعية، ولو كانت الظروف التي تولى فيها الخليفة الرابع

أمر المسلمين ظروفاً عادية، لما عدل عنها ولاتخذها مقراً له كما فعل أسلافه ـ رضوان الله عليهم ـ.

إن العلاقة بين المسلمين عامة وبين مقر خليفتهم علاقة روحية، ولم يكن الارتباط بين المسلمين وبين المدينة إلاَّ على هذا النحو، لأن الرسول ـ ﷺ ـ قد أضفى عليها قدسية لم تتوفر لغيرها، فالصلاة في مسجدها تعدل ألف صلاة، والصبر على لأوائها جزاؤه شفاعة رسول الله، والبركة في صاعها ومدها حاصلة بدعاء رسول الله، وهي كلها حرم آمن، لا يقطع شجره ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه[1].

ونحن نلاحظ أن الرسول ـ ﷺ ـ لما فتح مكة، وهي القرية التي ولد فيها، وتربى على أرضها وابتدأ نزول الوحي في جنباتها، وهي التي قال فيها كلمته المأثورة: يا مكة، الله يعلم إنك لأحب البلاد إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت، وكان ـ ﷺ ـ يحبها حباً شديداً، حتى ظن الأنصار أنه إذا فتح مكة سيتحول إليها ويتخذها عاصمة له، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يفعل، وبقيت المدينة عاصمة للدولة الإسلامية.

وكثيراً ما تضطر بعض الدول لتغيير عواصمها، ويكون الداعي إلى ذلك وضعها الجغرافي، كأن تكون على شاطىء بحر أو محيط، كما كانت كراتشي عاصمة باكستان الأولى، أو تكون على حافة صحراء ويخشى غزوها من العدو، ولكن المدينة لم تكن كذلك.

إن تحول الخلافة عن المدينة أحدث في نفوس المسلمين ثغرة لا يسدها شيء، ومهما كان مركز العاصمة الجديدة، ومهما يكن من ثرائها وقوتها، فإن ذلك لن يعوض المسلمين عما فقدوه من المكانة الروحية، حيث ارتبطت قلوبهم بها.

ولعل الخليفة أراد التحول عن العاصمة موقتاً، حتى تخمد الفتنة،

---

(١) نقلاً عن الجزء الثالث من الموسوعة، ص١٦٣.

وتنتهي المحنة، ثم يعود إلى المدينة، ولكن المنية لم تمهله، فمات بطعنة من أيد آثمة، تولى تنفيذها عبد الرحمن بن ملجم الخارجي في اليوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة أربعين من الهجرة.

وانتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وبالتالي انتقل مقرها من العراق إلى الشام، أو من الكوفة إلى دمشق، وهكذا ظلت المدينة مسلوبة السلطة، بعيدة عن مسرح السياسة.

١ ـ الأثر الاقتصادي:

لا شك أن العواصم تكون أكثر من غيرها نشاطا، لما يتوفر لها من أسباب الانتعاش، فالناس يقصدونها لقضاء مصالحهم، وهناك يبيعون ويشترون، ويسوقون إليها التجارة طمعاً لما فيها من حركة تجارية تفوق غيرها، ويكثر هناك الأخذ والعطاء ويزيد التبادل التجاري، وتعم الخيرات، ونتيجة لذلك يزدهر الوضع الاقتصادي للسكان، وينعم الناس بالرخاء.

وهكذا كانت المدينة حين كانت عاصمة للدولة الإسلامية، فقد كانت الأموال تجبى إليها من أنحاء الدولة، فالزكاة التي هي أحد أركان الإسلام، يدفعها المسلمون رغبة فيما عند الله من المثوبة والأجر، ثم تأتي الغنائم والجزية، والخراج والعشور، والضرائب التجارية التي كانت تحصل من التجار غير المسلمين الذين يقصدون بلاد المسلمين لبيع بضائعهم.

كانت هذه الموارد تحصل من مصادرها، وتصب كلها في المدينة العاصمة، لتتحول من هناك إلى مشاريع عامة، أو مخصصات لأفراد الدولة.

وإذا علمنا أن ما جبي من البحرين في عام واحد بلغ مليون درهم، وأن جزية أهل مصر بلغت مائتي ألف جنيه وسبعة ملايين جنيه، وأن جزية أهل العراق بلغت ثمانية وعشرين ألفاً وخمسمائة جنيه، وإذا علمنا أن الخراج المتحصل من مصر والعراق بلغ ٥,٦١٦,٦٦٦ جنيهاً مصرياً، والمتحصل من الشام ٣٠٠,٠٠٠ جنيه مصري؛ عرفنا أن ما تحصله الدولة من الخراج

والجزية من العراق والشام ومصر هو مبلغ (٦٦٦, ٦٤٤, ١٣) ستمائة وستة وستين وستمائة وأربعة وأربعين ألفاً وثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية[١].

ونعلم بالتالي مدى ما كان يعيش فيه المسلمون ناهيك بأهل المدينة العاصمة من الرخاء، ومدى ما كانت تتمتع به المدينة من النمو والازدهار.

فلما تحولت العاصمة من المدينة إلى الكوفة، ثم إلى دمشق، تحول هذا الرخاء كذلك إلى العاصمة الجديدة.

وكما حرمت المدينة من السلطة السياسية، حرمت كذلك من الازدهار الاقتصادي، وأصبحت عالة على دمشق، تنتظر ما يأتيها من فضلات أهل الشام، وما يتبقى عندهم إن كان يبقى عندهم شيء.

وإني أعتقد أن المدينة قد تعرضت لضغوط اقتصادية هائلة من جراء الوضع السياسي المتقلب، فلما استقر الأمر لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ لم ينس أهل المدينة، ولكن الحظوة والنصيب الأوفر كانا لأهل الشام، ولما كانت المدينة من البلاد التي وقفت إلى جوار علي ـ رضي الله عنه ـ تسدده وتؤيده، كان الضغط عليها أشد، فبقدر ما كانت تكنُّ ولاءها لآل البيت ـ عليهم السلام ـ بقدر ما كان تعرضها للفاقة والمسغبة.

وكان الضغط الاقتصادي أهم العوامل التي كانت تلجأ إليها الحكومات المختلفة لإخضاع المخالفين، وقد كان المال وسيلة رهيبة في أيدي الحكام، فهو تارة لإغراء المعارضة، حتى تسير في الركاب، وهو تارة أخرى سيفاً مسلطاً على رقاب المصرين على المعارضة، يخضعهم ببريقه لسلطان الدولة، أو يبقوا في جحيم الجوع والحرمان.

ولقد تعرضت المدينة لهذا الضغط الاقتصادي، بسبب موقفها السياسي، الموالي لأمير المؤمنين ـ علي ـ فلم تكن مثل غيرها من الأنحاء المؤيدة

---

(١) النظام المالي المقارن د/ بدوي عبد اللطيف ٦٥، ٦٦.

للوضع الجديد، والموالين لسلطان الشام، حتى اضطر كثير من سكانها إلى مغادرتها، والذهاب إلى الأماكن التي تغدق عليها الأموال.

وسأضرب هنا مثالين: أحدهما يصور لنا الرخاء الذي كان يعيش فيه أهل المدينة، والثاني لما وصل إليه حالهم من الشدة والحرمان، ونستطيع من خلال النظر في المثالين أن نعرف مدى ما وصل إليه حال سكان المدينة من البلاء.

المثل الأول:

لما أرسل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى زينب بنت جحش أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حصتها من المال، أدهشتها كثرة المال، حتى ظنت أن الخليفة قد أرسل لها المال لتقسمه على المسلمين، ولم يخطر ببالها أن هذا المال حصتها وحدها.

فقالت: رحم الله ابن الخطاب، أما وجد في أمهات المؤمنين من تقوم بقسم هذا غيري، فقالوا لها: هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب، ثم قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً.

ثم قالت لبرزة بنت رافع: أدخلي يديك فاقبضي منه قبضة، واذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من ذوي رحمها، وأيتام لها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب.

فقالت برزة: فقلت: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا المال حق.

قالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهماً، ثم رفعت أم المؤمنين ـ زينب ـ يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، قال فماتت[1].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٤٠.

وقد بلغت كثرة الأموال في المدينة حدا عبر عنه الخليفة ـ عمر ـ بقوله: لقد أتانا مال كثير، فإن شئتم نعده لكم عدا، وإن شئتم نكيله لكم كيلا[1].

المثل الثاني:

روى مسلم في صحيحه عن يحنس مولى الزبير، أنه كان جالساً عند عبد الله بن عمر في الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه فقالت: إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان.

فقال لها عبد الله: اقعدي لكاع، فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يصبر على شدتها ولأوائها أحد إلاّ كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»[2].

لقد بلغت الشدة والبلاء بأهل المدينة حتى فكر الناس في تركها، وطلب الرخاء في غيرها، وهذ يدل على ما كان عليه أهل المدينة سابقاً من الرخاء، حتى إنهم لم يتحملوا شدة البلاء الذي حل بهم، ولا يعاني من شدة البلاء مثل من كان يعيش قبل ذلك في الرخاء.

وإذا بلغ الأمر حداً يضيق به العبيد والإماء، فكيف بالسادة والرؤساء؟ وماذا يكون حالهم من تلك الشدة؟؟

هكذا كان تأثير التحول عن مقر الخلافة إلى بلاد أخرى، وهكذا كان التأثير على المدينة سياسياً واقتصادياً، ومع ذلك بقيت للمدينة في القلوب منزلة لا تعدلها منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة، تهوي إليها أفئدة المسلمين، وتصبر على لأوائها أجسامهم وبطونهم، طمعاً في أن ينالوا شفاعة رسول الله ـ ﷺ ـ ويحظوا بالإقامة إلى جوار قبره، وفي رحاب مسجده ـ ﷺ ـ.

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٤٠.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/ ١٥١، ١٥٢).

٢ ـ الأثر السياسي:

أما الأثر السياسي فلم يكن أقل من سابقه (الأثر الاقتصادي) فقد كانت المدينة المنورة ـ عاصمة الإسلام الأولى ـ تحظى بالكثير من النفوذ الذي حباها الله ـ عزّ وجلّ ـ به، فكانت الأوامر تصدر منها لكل أنحاء العالم، وكانت تستقبل بالاحترام والتقدير، وكان الخليفة وهو جالس في المدينة يُسَيِّر حركة الجيوش الغازية، ويسيطر على مقدرات الدولة، فلا يفلت شيء منها إلاّ بإذنه.

فلما انتقلت العاصمة سواء إلى الكوفة أو إلى دمشق، انتقل النفوذ السياسي معها وحرمت المدينة مما كانت تتمتع به من السلطة السياسية، وأصبحت الكوفة أولاً مصدر السلطات منها تخرج الجيوش للغزو، وترفع إليها أحوال الناس والرعية حيث يحكم فيها الخليفة بما يراه مناسباً، وإليه تقصد الوفود من أنحاء الدولة المختلفة، واحتلت الكوفة مكان الصدارة السياسية.

ثم انتقلت العاصمة إلى الشام مقر الخليفة، وانتقلت معها سلطاتها السياسية، وكان الخليفة جواداً كريماً لا يضن بمال، ولا يبخل على المسلمين بنوال، واتسع خلق الخليفة للناس كل الناس، وعم بنواله كل رعيته، فتعلقت به القلوب، وقصده القريب والبعيد، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يُغيِّر وضع المدينة المنورة في نفوس الناس، لأن الناس قد ارتبطوا بالمدينة روحياً قبل أن يرتبطوا بها سياسياً، ولأن الرسول ـ ﷺ ـ قد أضفى عليها رباطاً مقدساً منذ أن ارتبط بها.

فالصلاة في مسجدها بألف صلاة، والصبر على لأوائها ليس له جزاء إلاّ شفاعة الرسول ـ ﷺ ـ والبركة التي أودعها الله ـ عزّ وجلّ ـ في صاعها ومدها حاصلة لها بدعاء رسول الله لها.

ولكن غياب الخليفة عنها سلبها حقوقاً كثيرة، فإن الناس كانوا يقصدونها لقضاء مصالحهم، وتدبير أمورهم، فلما فقدت المدينة سلطانها السياسي على الناس، وخلت من الخليفة، فلم يعد أحد يقصدها لقضاء مصلحة، أو طلب عون، أو تدبير أمر.

واتجه الأمراء برسائلهم إلى العاصمة الجديدة، وتلقوا منها الأوامر والنواهي، وأصبحوا يدينون للخليفة بالولاء، لم يَعُدْ لهم من مصالح دنياهم في المدينة شيء يلهثون وراءه، أو يلحون في طلبه، فانصرفت قلوب أهل الدنيا عنها، وغاب عنها طابعها السياسي.

وعلى أية حال فإن نقل العاصمة الإسلامية إلى الكوفة أو إلى دمشق كان خطأ سياسياً ارتكب في غفلة من التاريخ، وفي ظروف غير طبيعية، ولو أن الخليفة الذي سبق إلى هذه الخطوة كان في ظروف غير طبيعية، لما ترك المدينة وتحول إلى غيرها، ولكن عوامل الثورة التي أدت إلى قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ تدخلت عن طريق غير مباشر لإقناع الخليفة أن الكوفة أنسب مكان يقيم فيه، حيث الرجال والأموال، وأقنعوا الخليفة بذلك ليخلو لهم الجو حتى يتمموا الغرض الذي قاموا من أجله، ونجحت طريقتهم، وأصابوا الإسلام في مقتل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المساجد

مسجد قباء ـ مسجد الجمعة ـ مسجد الفضيخ ـ مسجد الإجابة
مسجد المصلى ـ مسجد السجدة ـ مسجد ذباب ـ مسجد السقيا
مسجد الفتح ـ مسجد القبلتين

المساجد

المساجد في المدينة المنورة كثيرة، منها ما له نسب ينتمي إليه، ومنها ما هو دعي زور على التاريخ، كذلك منها ما صلّى فيه رسول الله ـ ﷺ ـ ومنها ما لم يره، والكلام عليها يطول حبله، وتتشعب جوانبه، وقد رأيت وأنا أكتب عن مسجد المدينة المنورة أن أحافظ على وقت القارىء الكريم، وأن أقدم له ما يمكنه الاستفادة منه والوقوف عليه عملياً إن أحب ذلك.

لهذا رأيت ألا أكتب إلاّ عن المساجد القائمة، التي يمكن رؤيتها والوقوف على عينها، أما تلك التي عفّى عليها الزمن، وأسدل عليها التاريخ أستاره، فلا يعرف مكانها، وليس في ذكرها والكلام عنها فائدة ترجى، فقد سكت عنها، لا إهمالاً لها ولا تهويناً من قيمتها، ولكن للأسباب التي سبق ذكرها، وأول ما يجب الكلام عنه هو:

١ ـ مسجد قباء:

قباء ضاحية من ضواحي المدينة المنورة، وتقع في الجنوب منها، وتبعد عن المدينة ثلاثة كيلومترات تقريباً، وكانت فيما مضى ـ أي عند هجرة الرسول ـ ﷺ ـ وقبلها منقطعة عن المدينة ـ أي لا يتصل بنيانها ببنيانها ـ والطريق الذي كان يربطها بالمدينة واد يعرف بوادي رانوناء، أما الآن فقد

اتصل العمران، والتصقت الأبنية، وأصبحت قباء حياً من أحياء المدينة، وسميت قباء باسم بئر فيها اسمه قباء.

ولما جاء الرسول ـ ﷺ ـ مهاجراً، تلقاه المسلمون بظهر الحرة، عند وادي العقيق، فاتجه بهم ـ ﷺ ـ إلى الجنوب، حتى نزل بقباء على بني عمرو ابن عوف، ونزل في دار كلثوم بن الهدم[1].

وأقام فيهم أربعة أيام، أسس خلالها مسجد قباء، وهو أول مسجد بناه رسول الله ـ ﷺ ـ وصلَّى بأصحابه فيه جماعة جهاراً، والظاهر أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يتم بناءه، وإنما وضع أساسه، لأن ثلاثة الأيام التي مكثها في قباء لا تكفي لبناء المسجد، والذي أتم بناءه فيما بعد بنو عمرو بن عوف.

وخط رسول الله ـ ﷺ ـ قبلته بعنزة له، وكان جبريل يريه القبلة، حتى يبني في جهتها، وطلب الرسول من أهل قباء أن يحضروا له حجارة من الحرة، فجمعوا له أحجاراً كثيرة، فأخذ حجراً منها فوضعه، ثم قال: يا أبا بكر، خذ حجراً فضعه إلى حجري، ثم قال: يا عمر، خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال: يا عثمان، خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر، ثم التفت إلى الناس فقال: ليضع كل رجل حجره حيث أحب على هذا الخط.

المسجد الذي أسس على التقوى:

كثير من المفسرين وأهل العلم، وعلى رأسهم الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ يرون أن الآية الكريمة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[2] نزلت في مسجد قباء، وهو رأي الجمهور.

وجاء في صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ أن أبا سعيد سأل النبي ـ ﷺ ـ عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: «هو مسجدكم هذا».

---

(١) وفاء الوفا (١/ ٢٤٤).

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

وعند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ والترمذي ـ رحمه الله ـ اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد المدينة، فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا، وفي ذلك (يعني مسجد قباء) خير كثير.

وليس هناك تعارض بين القولين، لأن كل مسجد منهما أسس على التقوى من أول يوم، يقول الحافظ ابن حجر: والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى، وقوله ـ تعالىٰ ـ في بقية الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء[1].

روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ في أهل قباء، قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية.

وذكر أبو محمد المرجاني الجمع بأن كلا من المسجدين أسس على التقوى، ثم قال: فقد روي عن عبد الله بن بريدة في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال: إنما هي أربعة مساجد، لم يبنهن إلاَّ نبي، الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وبيت أريحاء بيت المقدس، بناه داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذين أسسا على التقوى، بناهما رسول الله ـ ﷺ ـ.

وقد صح أنه ـ ﷺ ـ كان يزور مسجد قباء كل يوم سبت، وكان يذهب إليه راكباً وماشياً، وفي رواية: فيصلي فيه ركعتين[2].

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يأتي قباء يوم الإثنين ويوم الخميس، فجاء يوماً من تلك الأيام فلم يجد فيه أحداً من أهله، فقال: والذي نفسي بيده، لقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ وأبا بكر في أصحابه ننقل حجارته على بطوننا، يؤسسه رسول الله ـ ﷺ ـ بيده وجبريل يؤم به البيت.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٧٩٧) تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٢) متفق عليه.

ومحلوف عمر بالله، لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل، ثم قال: اكسروا لي سعَفَه واجتنبوا العواهن ـ أي ما يلي القلب من السعف ـ فقطعوا السعفة فأتى بها، فأخذ رزمة فربطها فمسحه.

قالوا: نحن نكفيك يا أمير المؤمنين.

قال: لا تكفونيه، وفي رواية: أنا أريد أن أكفيكم أنتم مثل هذا، وإن شئتم اعملوا مثل ما أعمل[1].

وعن زيد بن أسلم قال: الحمد لله الذي قرب منا مسجد قباء، ولو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل[2].

وصف المسجد قبل التوسعة السعودية:

المسجد مربع الشكل، طول ضلعه أربعون متراً، وله محراب وفيه منبر مصنوع من الرخام، أهداه السلطان قايتباي إلى المسجد النبوي بدلاً من المنبر الذي احترق، في حريق المسجد النبوي سنة ٨٨٨ هـ الموافق ١٤٨٣ م، ولما أرسل السلطان مراد العثماني المنبر الحالي، الموجود بالمسجد النبوي، نقل منبر قايتباي إلى مسجد قباء.

وعدد أعمدة المسجد تسعة وعشرون عاموداً، وللمسجد مئذنة، وبه رحبة مفروشة بالحصباء، وفي هذه الرحبة قبة يزعمون أنها مكان مبرك ناقة النبي ـ ﷺ ـ وفيها بئر، وبجداره القبلي محراب من جهة الشرق، يسمى (طاقة الكشف).

وسقف المسجد مكون من قباب على الطراز العثماني، وعدد أروقة المسجد ستة، وفي آخره غرفة كمستودع، توضع فيها فرش المسجد ولوازمه، ولجدرانه من الخارج دعائم من الجنوب والشمال والشرق، تحميه من الانهيار.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٠٤).

(٢) المرجع نفسه.

عمارة المسجد منذ نشأته:

من المعلوم أنه أسس في عهد الرسول ـ ﷺ ـ وفي عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أصابه بعض الخراب، فجدده وزاد فيه، ثم جدده عمر ابن عبد العزيز أثناء ولايته المدينة للوليد بن عبد الملك في الفترة ما بين ٨٧ ـ ٩٣ هـ ـ الموافق ٧٠٥ ـ ٧١١ م.

واهتم عمر ـ رضي الله عنه ـ ببناء مسجد قباء، وجعل له مئذنة، وأحدث فيه الرحبة، وقسمه إلى أروقة، وبناه بالحجارة والجص، وأقام فيه الأساطين من الحجارة بينها عواميد الحديد والرصاص، ونقشه بالفسيفساء وسقفه بالساج[1].

وفي عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م عمَّره الشريف أبو يعلى الحسيني، وقد وجد ذلك منقوشاً على حجر بالخط الكوفي؛ ونص النقش ما يأتي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية. أمر بعمارة مسجد قباء الشريف أبو يعلى أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن ـ رضي الله عنه ـ ابتغاء ثواب الله، وجزيل عطائه... على يد الشريف حسن المسلم... ابن عبد الله بن مساك في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

وظل الأمراء يجددون عمارته وترميمه حتى عهد الدولة العثمانية، حيث جددت عمارته عدة مرات آخرها في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥ هـ = ١٨٢٩ م.

وأما في عهد المملكة العربية السعودية، فقد جدد مرتين: مرة في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكان ذلك سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م وكانت مساحة الزيادة فيه أربعة أمتار من الشمال إلى الجنوب بعرض المسجد، وقد روعي في هذه العمارة الدقة والعناية، وخصوصا في عمارة

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٠٩).

الجدران من الخارج، وقامت بأعمال الترميم والتجديد وزارة الحج والأوقاف السعودية، وجعلت للمسجد ثلاثة أبواب: باب في مؤخره من جهة الشمال، وهذا الباب خاص بالنساء، والبابان الآخران من جهة الغرب، وكست جانبي البابين برخام الغرانيت الأسود اللون الجميل المنظر، كذلك بلطت الجزء الذي أمام الباب الكبير للمسجد بالرخام الأبيض، وجعلت له درجاً ليسهل الصعود إلى باب المسجد، حيث يرتفع عن الأرض أكثر من متر.

وفي عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين ـ أمر بشراء الأرض الفضاء التي تقع في شمال المسجد، وإضافتها إليه فتضاعفت مساحة المسجد تقريباً، وهذه الزيادة هي التي سنتكلم عنها بعد إن شاء الله.

وقد تكلفت زيادة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ وترميم المسجد ثمانمائة ألف ريال عربي سعودي[1].

توسعة الملك فهد:

شملت توسعة خادم الحرمين الشريفين ـ وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين ـ ما يأتي:

أ ـ زيادة في مساحة المسجد من الشمال ضاعفت مساحة المسجد الأصلية.

ب ـ منطقة محلات للوضوء تشمل الحمامات (المراحيض) للرجال والنساء، وتقع في الجهة الشرقية للمسجد، وفي مكان منخفض عنه.

جـ ـ منطقة تمديدات الكهرباء.

د ـ منطقة سكنية تحتوي ٦ بيوت سكنية.

هـ ـ منطقة تسويق، وهذه المناطق الثلاث تقع كلها في الجهة الشرقية.

---

(١) آثار المدينة المنورة لعبد القدوس الأنصاري، ص ٨٧.

أما الجهة الغربية للمسجد والتي فيها المدخل الرئيسي له فإنها ساحة واسعة مبلطة بالرخام الغرانيت الداكن المائل إلى الخضرة، مزروع فيها ٢٧ نخلة سوى الأماكن التي لم ينبت بها النخل، وبها درج عريض للصعود إلى الباحة ثم المسجد، حيث يرتفع المسجد عن الأرض بمقدار متر وربع تقريباً.

وأمام البرحة على الشارع الرئيسي الغربي أعد مكان لتجميل المدخل فيه ١٦ نافورة تضخ الماء في منظر رائع وخلاب.

مساحة المسجد:

كانت مساحة المسجد الأصلية قبل التوسعة السعودية تبلغ ٤٠م ×٤٠م = ١٦٠٠م^{٢}، ثم كانت مساحة زيادة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ ١٦٠م^{٢} أي ٤٠م × ٤م وبذلك تكون مساحة المسجد الكلية = ١٧٦٠م^{٢}.

وبتوسعة خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ بلغت مساحة المسجد الكلية، ٥٠٣٥م^{٢} خمسة آلاف وخمسة وثلاثين متراً مربعاً، وهذا يعني أن المساحة التي زادها الملك فهد ـ وفقه الله ـ = ٥٠٣٥م^{٢} - ١٧٦٠م^{٢} = ٣٢٧٥م^{٢} ثلاثة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين متراً مربعاً، أي أن مساحة التوسعة في عهد خادم الحرمين الشريفين تساوي ضعف مساحة المسجد قبل توسعته تقريباً، أو تقل قليلاً.

وإذا أضفنا إلى بناء المصلى الملحقات الأخرى وهي:

أ ـ محلات الوضوء للرجال = ٤٢٠م^{٢} وتتسع لمائة وأربعة وثلاثين رجلاً.

ب ـ محلات الحمامات للرجال = ١٨٢م^{٢} وتتسع لأربعة وستين رجلاً.

جـ ـ محلات الوضوء للنساء = ١٦٤م^{٢} وتتسع لثلاثة وأربعين امرأة.

د ـ محلات الحمامات للنساء = ٩١م^{٢} وتتسع لاثنتين وثلاثين امرأة.

هـ ـ مساحة السرداب

و ـ مساحة ستة بيوت

} = ٩٧٢م^{٢}.

ز - المكتبة والمكاتب = ٣٥١م٢.

جـ- منطقة التسويق (الدكاكين) = ٣٤٠م٢.

ومع ملاحظة أن جميع هذه الملحقات لم تكن موجودة بالمسجد قبل ذلك، فإذا عرفنا أن مساحة هذه الملحقات = ٣٧٦٠م٢ ثلاثة آلاف وسبعمائة وستون متراً مربعاً، تكون مساحة المنطقة المشغولة بالبناء =
٥٠٣٥م٢ مساحة المسجد + ٣٧٦٠م٢ مساحة الملحقات = ٨٧٩٥م٢.

وتكون مساحة الساحة = ٢٨٤٠م٢.

فتكون المساحة الكلية = ١١٦٣٥م٢[١].

وصف عام للمسجد بعد التوسعة:

للمسجد سبعة أبواب من جهة الغرب وهي المدخل الرئيسي للمسجد، ومثلها من جهة الشرق، وللمسجد باب خلفي خاص بالنساء.

ومنبر المسجد من الرخام الأبيض المنقوش، وأما المحراب فمن الرخام المجذع وعلى يمين المتجه إلى المحراب دائرة مكتوب فيها (لا إله إلاّ الله) وعلى يساره دائرة أخرى مكتوب فيها (محمد رسول الله).

وفي الجهة اليمنى كتبت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وفي الجهة اليسرى كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

وفوق المحراب كتب الحديث الشريف: «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان كأجر عمرة»، وفوق الحديث كتبت الآية المباركة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، وفوقها في دائرة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(١) هذه المساحات والأرقام مأخوذة عن نشرة مكتب الإعلام والمتابعة لشركة بن لادن.

وأحيط المحراب بآيات كريمات من القرآن الكريم كالفاتحة وأول سورة البقرة.

وجدران المسجد نصفها الأسفل مغطى بالغرانيت الرصاصي اللون، ونصفها الأعلى مبطن بالجص الأبيض، وسقف المسجد مكون من قباب على الطراز المعماري العثماني، وفي مقدمة المسجد ثلاث قباب، الوسطى منها أكبر الثلاثة، وعلى اليمين أربع قباب صغيرة، ومثلها على اليسار، وتلي القباب الثلاث ثلاث قباب أخرى.

وفي وسط المسجد فناء (صحن) مغطى بسقف متحرك، ومؤخر المسجد ـ وهو التوسعة الجديدة ـ يأخذ شكل الأقبية، وسقفه قباب، وفي المسجد ثلاثون عموداً، كل منها محلى بتاج منقوش بنقوش جميلة من الجص.

وفي مؤخر المسجد مكان خاص بالنساء مكون من طابقين.

وفي المسجد القديم ١٤ ثريا، ثمان منها دور واحد، وخمس دوران، وواحدة وهي الكبرى ثلاثة أدوار، وفي النصف الخلفي اثنتان وخمسون ثريا، كلها دور واحد، وفي وسط كل ثرية مروحة لتحريك الهواء، تستخدم في وقت الحر.

وفي صدر المسجد وعلى جانبيه خزانات ضخمة مصنوعة من خشب الزان، ومزخرفة بزخارف جميلة تحفظ فيها المصاحف، وعلى الأعمدة توزع مصابيح (لمبات) كهربية مطلية بماء الذهب، والمكبرات منتشرة في كل مكان من المسجد.

وأرضية المسجد مبلطة بالرخام الأبيض والرصاصي في أشكال هندسية جميلة، ومفروشة بالسجاد الصوف المقسم في أشكال عربية على قدر كل مصلٍّ، وألوانه: أبيض وبُنِّي وأسود.

ويوجد في المسجد دكة للمؤذنين مصنوعة من الرخام الأبيض المنقوشة بزخارف جميلة، وفي الطابق العلوي للسيدات يوجد ٢٧ ثريا.

وبالجملة فالمسجد مشيد من الخرسانة الصبة والطوب المقوى الصلب، ويوجد على سطح المسجد ٥٦ قبة صغيرة بقطر ٦ أمتار، و٦ قباب كبيرة بقطر ١٢ متراً، و٨ قباب مترابطة مع بعض على مداخل المسجد، وللمسجد سردابان تحت المنارتين من الناحية الشمالية، وللمسجد منارتان أخريان من الناحية الجنوبية[١].

وبذلك يكون عدد منارات (مآذن) المسجد أربعاً، تقع كل واحدة منها على ركن من أركان المسجد، وهي متطابقة مع بعضها، وطول المنارة الواحدة ٤٧ متراً ارتفاعاً عن سطح الأرض، وقد بنيت كلها بالطوب المقوى[٢].

وقد وضعت المنارات على برواز يتناسب مع هيئة ووضع المسجد[٣].

وخصصت للمسجد محطة لتلطيف الهواء، مكونة من دواليب خاصة لتوزيع الكهرباء، وله خزان ماء كبير، وخصص طريق للعجزة يؤدي إلى كل مستويات المسجد[٤].

وتوجد لوازم إنارة (إضاءة كاشفة) للساحة وأسقف المسجد والمنارات والساحات الخارجية.

وكل الأنظمة يتحكم بها جهاز مركزي يعطي إشارة ضوئية تلقائياً (أوتوماتيكياً) ويسيطر سيطرة كاملة من خلال وعبر مفاتيح توقيتية إلكترونية ويمكن التحكم فيها يدوياً، ويوجد نظام للصوت متكامل خاص لاستعمال المسجد، لرفع الأذان، وهناك مكبرات للصوت مركبة أعلى المنارات الأربع، وقد جهزت بجهاز تحكم مركزي[٥].

---

(١) نشرة مجموعة بن لادن السعودية للتعريف بالمسجد، ص ٢.
(٢) نشرة مجموعة بن لادن السعودية للتعريف بالمسجد، ص ٢.
(٣) النشرة السابقة، ص ١.
(٤) النشرة السابقة، ص ١.
(٥) النشرة السابقة، ص ٣.

فضل الصلاة في مسجد قباء:

الصلاة في مسجد قباء لها فضل كبير، وثواب جزيل، وقد رغب فيها رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله وفعله، حيث كان يذهب إليه ماشياً وراكباً ويصلي فيه، يفعل ذلك كل يوم سبت، وأحياناً يوم الإثنين ويوم الخميس.

وقد روى ابن ماجه وعمر بن شبة بسند جيد عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة».

وروى عمر بن شبة عن سعيد بن الرقيش الأسدي قال: جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء، فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري، ثم سلم وجلس، وجلسنا حوله، فقال:

سبحان الله، ما أعظم حق هذا المسجد! لو كان على مسيرة شهر كان أحق أن يؤتى، من خرج من بيته يريده، معتمداً إليه ليصلي فيه أربع ركعات، أقلبه الله بأجر عمرة[1].

وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يفضل الصلاة فيه على الصلاة في بيت المقدس، فقد روى ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول:

لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل[2].

وكان كبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون للمسجد قدره، فكان المهاجرون الأولون يذهبون إليه للصلاة فيه، روى البخاري: كان سالم مولى أبي حذيفة ـ رضي الله تعالىٰ عنهما ـ يؤم المهاجرين الأولين من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ في مسجد قباء، فيهم أبو بكر وعمر.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٠١).

(٢) نفسه (٣/ ٨٠٢).

ومما يدل على مكانة المسجد في نفوس الصحابة ما حدث بين معاذ بن جبل - رضي الله عنه - وتميم بن زيد الأنصاري، فقد أمر رسول الله - ﷺ - معاذ بن جبل أن يصلي بأهل قباء في مسجدهم، وحدث مرة أن تأخر معاذ في صلاة الفجر، وجاء تميم وقد أسفر النهار فقال: ما يمنعكم أن تصلوا؟ ما لكم قد حبستم ملائكة الليل وملائكة النهار؟

قالوا: يمنعنا أننا ننتظر صاحبنا.

قال: فما يمنعكم إذا احتبس أن يصلي أحدكم؟

قالوا: فأنت أحق من يصلي بنا.

قال: أترضون بذا؟ قالوا: نعم، فصلَّى بهم.

فجاء معاذ فقال: ما حملك يا تميم على أن دخلت عليّ في سربال سربلنيه رسول الله - ﷺ -؟ ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى رسول الله - ﷺ -.

فقال: يا رسول الله، إن هذا تميم دخل في سربال سربلتنيه.

فقال النبي - ﷺ -: ما تقول يا تميم؟

فقال مثل الذي قال في المسجد.

فقال النبي - ﷺ -: هكذا فاصنعوا مثل الذي صنع تميم بهم، إذا احتبس الإمام[1].

ونفهم من هذا فقه تميم - رضي الله عنه - لأنه لا يجوز تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها لأن الإمام لم يحضر، بل ينبغي على الناس إذا تأخر إمامهم أن يقدموا واحداً منهم يصلي بهم، ومما يدل على فقه تميم أنه بعد أن طلبوا منه أن يؤمهم، حرص على رضاهم بإمامته حين قال لهم: أترضون بذا، فلما قالوا نعم، صلَّى بهم، وأعظم دليل على فقهه، إقرار الرسول - ﷺ - لما صنع ووضع للناس القاعدة العامة في مثل ذلك فقال: هكذا فاصنعوا مثل الذي صنع تميم بهم، إذا احتبس الإمام.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٠٥).

ونفهم كذلك حرص معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ على أن لا ينافسه أحد في خير حباه رسول الله به، فإنه يعلم أن صلاته بأهل قباء في مسجدهم بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ كرامة أكرمه بها رسول الله، فلا ينبغي أن يأخذها غيره أو ينافسه فيها منافس، وذلك لكرامة المسجد وعظيم منزلته في قلوبهم.

ويعلي من مكانة المسجد في نفوس المسلمين أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ منع مجمع بن حارثة أن يصلي فيه، لأنه صلَّى بالمنافقين في مسجد الضرار وهو غلام صغير.

ذكر السمهودي أن عمر بن الخطاب قال لمجمع بن حارثة لما أراد أن يصلي بالناس في مسجد قباء: كنت إمام مسجد الضرار، فاعتذر مجمع فقال: يا أمير المؤمنين، كنت غلاماً حدثاً، وكنت أرى أن أمرهم على أحسن ذلك، وقدموني لما معي من القرآن.

فقبل عمر عذره، فأمره فصلى بهم[1].

٢ ـ مسجد الجمعة:

أقيم هذا المسجد في المكان الذي صلَّى فيه رسول الله ـ ﷺ ـ أول جمعة بالمسلمين، فبعد أن مكث ـ ﷺ ـ بقباء أربعة أيام على الأرجح، أسس أثناءها مسجد قباء، انصرف إلى المدينة يوم الجمعة، واتخذ وادي صُلب طريقاً له إلى المدينة ـ وهو المعروف بوادي رانوناء ـ وبينما هو في بني سالم ابن عوف، في بطن الوادي، أدركته صلاة الجمعة، فنزل وصلاها بمكان يسمى الغبيب أو القبيب.

واتخذ بنو سالم بن عوف هذا المكان مسجداً لهم، وفي ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة ـ رحمه الله ـ أعاد بناءه ضمن الأماكن التي تأكد لديه

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٠٥).

أن الرسول ـ ﷺ ـ صلَّى فيها، ثم بناه بعد ذلك رجل سماه السمهودي عبد الصمد[1].

وهذه أول جمعة صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ بالمسلمين جهاراً، فإن الجمعة وإن فرضت في مكة، إلاَّ أن المسلمين لم يستطيعوا إقامتها هناك لقوة المشركين، وعدم السلطان الذي يحميهم عند إقامتها.

وسمي المسجد مسجد الجمعة لما سبق من أن الرسول ـ ﷺ ـ صلَّى في مكانه أول جمعة بالمسلمين، ويقال له أيضاً مسجد الوادي، ومسجد عاتكة[2].

مساحة المسجد ووصفه:

بُني المسجد على ما هو عليه الآن بأمر من السلطان بايزيد العثماني، أي ما بين عامي ٨٨٦ هـ ـ ٩١٨ هـ الموافق ١٤٨١ م ـ ١٥١٢ م، وعلى هذا يكون عمر البناء الحالي خمسة قرون تقريباً، والسلطان بايزيد هو الذي جعل سقفه قبة على نمط العمارة العثمانية.

وطول المسجد ثمانية أمتار، وعرضه أربعة أمتار ونصف المتر، وارتفاعه خمسة أمتار ونصف المتر ،وأما بناؤه فبالحجارة، وتعلوه قبة مبنية بالطوب الأحمر، وبها أربع فتحات من أعلاها للتهوية والإنارة، وفي شماله فناء طوله ثمانية أمتار، وعرضه ستة أمتار، وارتفاع سوره متران.

وللمسجد باب واحد عبارة عن عقد مفتوح، وعلى جانب هذا العقد حجران من الرخام الأبيض، مكتوب عليهما اسم السلطان بايزيد، وأنه هو الذي أمر ببناء المسجد، ومعلق عليه لوحة من نشاط وزارة الحج والأوقاف السعودية مكتوب عليها (مسجد الجمعة).

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٢٠).

(٢) آثار المدينة المنورة، ص ٨٩.

ويقع المسجد شمال مسجد قباء، وعلى بُعد خمسمائة متر منه تقريباً، ويراه السالك من قباء إلى المدينة المنورة على يمينه في بطن الوادي، ويظهر فيه بوضوح قبته الجميلة والسلم الموصل إلى سطحه.

٣ ـ مسجد الفضيخ:

الفضيخ في الأصل شراب يتخذ من التمر، كانوا يفضخون البسر، ويلقونه في الماء، ويتركونه حتى يصير خمراً، ثم يشربونه، ويفضخون معناها يكسرون.

وفي مكان هذا المسجد، وقبل أن يبنى مسجداً، صلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو محاصر لبني النضير، حيث كانت خيمته مضروبة هناك، وما رواه ابن شبة ـ رحمه الله ـ من أن النبي ـ ﷺ ـ (صلَّى بمسجد الفضيخ) فالمقصود موضع المسجد، لأن المسجد لم يبن إلاَّ بعد ذلك.

وظل رسول الله يصلي في هذا المكان ست ليال، وهي مدة حصار النبي لبني النضير، وسمي المسجد بهذا الاسم، لأن الخمر لما حرمت التحريم النهائي بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] كان أبو أيوب الأنصاري ومعه بعض الصحابة يشربون الفضيخ في موضع المسجد، فلما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما كان معهم من الخمر في المكان، فسمي المسجد مسجد الفضيخ لذلك.

ويطلق على المسجد اسم آخر، وهو مسجد الشمس، ويعلل المؤرخون هذا بأن المسجد يقع شرقي مسجد قباء، والشمس تطلع عليه قبل ما تشرق على مسجد قباء.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

عمارة المسجد ووصفه:

أول من بنى مسجد الفضيخ عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ تخليداً للمكان الذي صلّى فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وكان بناؤه مع عمارة مسجد قباء، وأما بناؤه الحالي فيبدو أنه بناء عثماني، حيث تزين سقفه القباب التي هي من مميزات العمارة في العصر العثماني.

وقد وصف المسجد صاحب آثار المدينة المنورة فقال: بناؤه متين مرتفع، وطول المسقف منه تسعة عشر متراً في عرض أربعة أمتار، وله خمس قباب، ومحراب لا بأس به، وبجانبه منبر ذو درجتين، مكون من حجارة وطين حلو، وللمسجد شرفات، وبناؤه بالحجارة المطابقة وبالجص، وشكل هذه البناية ينطق بأنها من آثار دولة بني عثمان، ولارتفاع موقع المسجد، وطلوع الشمس عليه أول شروقها سمي بمسجد الشمس[1].

ولا يزال المسجد يعرف بمسجد الفضيخ بين سكان الحي الذي يقع فيه، وهو يقع بين أموال بني النضير التي أفاءها الله على رسوله بغير حرب ولا قتال، بالقرب من الحرة الشرقية.

وقد اهتمت وزارة الحج والأوقاف السعودية بالمسجد فرممته واعتنت بنظافته وفرشه ومرافقه، وتحيط به الآن الأحياء الحديثة والبنايات الجميلة، والبساتين النضرة، وأغلب سكان هذه الأحياء الحديثة ليسوا من أهل المدينة، بل هم نازحون إليها من جهات المملكة المختلفة.

٤ ـ مسجد الإجابة:

هو مسجد بني معاوية الأوسيين، ويقع شمالي شرق البقيع، على الشارع الجديد المعروف بشارع الستين، بعد تقاطع شارعي أبي ذر الغفاري، وشارع الستين، وهو على شمال المتجه إلى البقيع والحرم.

---

(١) آثار المدينة المنورة، ص ١٤١.

وأول من بناه بنو معاوية، ومرَّ به رسول الله ـ ﷺ ـ فصلَّى فيه ركعتين، وصلَّى معه من كان حاضراً من أصحابه، ثم دعا الله طويلاً، ثم انصرف فقال: سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته ألا يهلك أمتي بالسَّنَة ـ أي بالقحط ـ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[1].

ولهذا عرف المسجد بمسجد الإجابة، حيث استجاب الله ـ عزّ وجلّ ـ لنبيه.

وكانت صلاة النبي ـ ﷺ ـ فيه عن يمين المحراب قدر ذراعين، يقول السمهودي: فينبغي أن يتحرى بالصلاة ذلك المحل، وأن يكون الدعاء فيه قائماً بعد الصلاة[2].

عمارته:

وجدد بناءه عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ في عهد الوليد بن عبد الملك، ثم جُدد مرة أخرى في عهد العثمانيين، وكان بناؤه العثماني مكوناً من قسمين: القسم الأمامي وفيه المحراب، والقسم الخلفي، وكانت عليه قبة.

وتهدم المسجد بعد ذلك، وكاد يزول أثره، حتى عمرته وزارة الأوقاف السعودية، فدمجت القسمين في بناء واحد، واعتنت الوزارة بتشييده وفرشه وصيانة مرافقه ونظافته، وتكييفه، وأنارته إنارة حديثة، جعلته بهجة للناظرين، وراحة قلبية للمصلين.

٥ ـ مسجد المصلى:

وهو المعروف اليوم بمسجد الغمامة، وهو المكان الذي كان يصلي فيه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٨٢٩).

النبي ـ ﷺ ـ صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج إلى المصلى يستسقي، فبدأ بالخطبة ثم صلَّى وقال: «هذا مجمعنا ومستمطرنا ومدعانا لعيدنا، لفطرنا وأضحانا، فلا يبنى فيه لبنة على لبنة ولا خيمة»[1].

وقد ثبت أن الرسول ـ ﷺ ـ صلَّى العيد في أماكن عدة، كلها تدور حول هذا المكان، ثم كانت صلاته بعد ذلك في هذا المكان، وظل يصلي فيه العيدين، ويستسقي فيه للمسلمين، حتى انتقل إلى جوار ربه الكريم.

ويوجد في شمالي مسجد المصلى مسجدان، يعرف أحدهما بمسجد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهو مبني في أحد الأماكن التي صلَّى فيها النبي ـ ﷺ ـ صلاة العيد، وسمي باسم الصديق لأنه ـ رضي الله عنه ـ صلَّى في مكانه صلاة العيد في خلافته.

وإلى الشمال من هذا المسجد، وعلى بعد مائة متر تقريباً، يوجد المسجد الثاني، ويعرف باسم مسجد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو أوسع من مسجد الصديق، وهو كذلك مبني في أحد الأماكن التي صلَّى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة العيد.

واستشكل على بعض الباحثين تسمية المسجد بهذا الاسم، وقالوا إن علياً ـ رضي الله عنه ـ لم يصل العيد في خلافته في المدينة.

ويوضح السمهودي ـ رحمه الله ـ أن نسبة المسجد إلى علي ـ رضي الله عنه ـ صحيحة، حيث يروى عن ابن شبَّة عن سعد بن عبيد مولى ابن أزهر قال: صليت العيد مع علي ـ رضي الله عنه ـ وعثمان ـ رضي الله عنه ـ محصور، فصلى، ثم خطب بعد الصلاة[2].

قال: وروي أيضاً عن الزهري قال: صلَّى سهل بن حُنَيف وعثمان محصور الجمعة، وصلَّى يوم العيد علي بن أبي طالب.

---

(١) عمدة الأخبار للعباسي، ص١٨٣.

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٧٨٤).

ويعلق السمهودي على ذلك فيقول: فالظاهر أنه صلَّى حينئذ بهذا المكان، لكونه أحد المصليات التي صلَّى فيها النبي ـ ﷺ ـ لا أنه ابتكر الصلاة فيه[1].

وأما المطري فيقول: فتكون هذه المساجد الموجودة اليوم من الأماكن التي صلَّى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة العيد سنة بعد سنة، وعيداً بعد عيد، إذ لا يختص أبو بكر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ بمسجدين لأنفسهما، ويتركان المسجد الذي صلَّى فيه النبي ـ ﷺ ـ[2].

من هذا نعلم أن المساجد الثلاثة بنيت في الأماكن التي صلَّى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة العيد وصلاة الاستسقاء.

ومن المعلوم أن الرسول ـ ﷺ ـ صلَّى في هذه الأماكن، حين كانت صحراء خالية من البناء، وكان ينتقل من مكان إلى مكان، كلما زحف البناء على المكان الذي كان يصلي فيه، ولعل هذا هو الذي دعا رسول الله أن يحذر وينهى عن البناء في المكان الذي استقر فيه للصلاة كما سبق.

عمارة المسجد:

نلاحظ أن المساجد الثلاثة مبنية بطريقة واحدة، وهذا البناء الذي عليه المساجد الثلاثة من عمارة الدولة العثمانية، ولكن الظاهر أنه بني أولاً في عهد عمر بن عبد العزيز[3] في خلافة الوليد، حين بنى المساجد الأثرية بالمدينة المنورة وما جاورها.

ويظهر أن بناء عمر هذا ظل قائماً حتى القرن الثاني الهجري، فقد روى السمهودي عن ابن شبّة عن غسان الكناني أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، أن المصلى كان مبنياً مسجداً في القرن الثاني الهجري.

وفي القرن الثامن الهجري عمره السلطان حسن بن السلطان محمد بن

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٧٨٤).

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٧٨٤).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٧٨٥).

قلاوون، وكان ذلك ما بين عامي ثمان وأربعين وسبعمائة، واثنين وستين وسبعمائة الموافق ١٣٤٧ م ـ ١٣٦٠ م.

وفي القرن التاسع سنة ٨٦١ هـ = ١٤٥٦م جدّد عمارته الأمير برديك المعمار، في دولة الأشرف إينال، وأحدث الأمير برديك خارج المسجد مكاناً مسقفاً يجلس عليه المبلغون أمام الخطيب.

وفي القرن الثالث عشر الهجري جدده السلطان عبد المجيد العثماني، وفي القرن الرابع عشر الهجري عمره السلطان عبد الحميد الثاني، ولا تزال عمارة السلطان عبد الحميد قائمة إلى يومنا هذا، غير أن الحكومة السعودية قد قامت بتجديد المسجد مع بقاء العمارة العثمانية وكان ذلك في أواخر سنة ١٤٠٠ هـ = ١٩٧٩ م وقد أدخل السلطان عبد الحميد المسقف الذي يجلس عليه المبلغون داخل المسجد.

وصف المسجد وموقعه:

يقع المسجد عند تفرع النفق الذاهب إلى باب العنبرية، في شمال شرق مصلحة البرق والبريد والهاتف، وعلى بُعد ألف ذراع (٥٠٠ متر) تقريباً من باب السلام بالمسجد النبوي الشريف، يقول السمهودي ـ رحمه الله ـ: وقد اختبرته فكان كذلك[١].

والمسجد مبني بالحجارة المطابقة، وله ست قباب على الطراز العثماني، والقباب الست قائمة على أعمدة ضخمة، وبالمسجد رواقان له، وله مئذنة ضخمة وقصيرة تقع في الشمال الغربي من المسجد، وله محراب بجواره المنبر، وفي مؤخر المسجد مقصورة يصلي بها المؤذنون مصنوعة من الخشب ومرتفعة عن أرض المسجد، يصعد إليها بدرج، وأبواب المسجد في شماله، ويصعد إليها بدرج لأن المسجد مرتفع عن الأرض، ويحيط به حديقة ذات منظر جميل.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٧٨١).

وطول المسجد ستة وعشرون متراً، وعرضه ثلاثة عشر متراً، وارتفاعه اثنا عشر متراً، وأما جدرانه المبنية من الحجارة فهي ضخمة، وسمك الجدار متر ونصف المتر تقريباً.

وهناك مسجد يقع في جنوب مسجد المصلى، يقال له مسجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهذه النسبة غير صحيحة، حيث لم يذكر أحد من مؤرخي المدينة مسجدا لعمر بن الخطاب في هذا المكان، ولم يرد أنه من الأماكن التي صلَّى فيها الرسول ـ ﷺ ـ.

فضل المصلى:

للمكان الذي اتخذه الرسول ـ ﷺ ـ مصلًّى، يصلي فيه العديدين ويستسقي فيه للمسلمين، فضل عظيم، فقد أخبر ـ ﷺ ـ أن ما بين مسجده ومصلاه روضة من رياض الجنة، يقول السمهودي: وإذا كان ما بين المسجدين المذكورين روضة، فهما ـ أي المسجدين ـ روضة من باب أولى، لأن ذلك الفضل إنما حصل لما بينهما بحصوله ـ ﷺ ـ فيما بينهما، فكيف بمحل سجوده وموقفه الشريف؟[1]

وقد دلّ على فضل المصلى ما روي عن أبي هريرة قال: كان النبي ـ ﷺ ـ إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة ووقف يدعو[2].

وعن أبي عطاء عن أبيه قال: قال لي سعيد بن المسيّب: يا أبا محمد، أتعرف دار كثير بن الصلت؟.

قلت: نعم.

قال: فإن النبي ـ ﷺ ـ خرج حتى انتهى إلى ذلك الموضع فقام وصفّ أصحابه خلفه، فصلى على النجاشي حين مات في أرض الحبشة[3].

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٧٩١).

(٢) عمدة الأخبار، ص ١٨٣.

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٧٩١).

وعن جناح النجار قال: خرجت مع عائشة بنت سعد بن أبي وقاص إلى مكة، فقالت لي: أين منزلك؟

فقلت لها: بالبلاط (البلاط مكان مبلط عند باب السلام).

فقالت لي: تمسك به، فإني سمعت أبي يقول: سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما بين مسجدي هذا المسجد المصلى، ومسجدي روضة من رياض الجنة»[1].

ففضل هذا المسجد عظيم، وثواب الصلاة فيه جليل، وظلت صلاة العيد تقام في هذا المسجد حتى القرن التاسع، ثم انتقلت منه، وهي الآن تصلي في الحرم النبوي الشريف.

ملاحظة:

تسمية مسجد المصلى بمسجد الغمامة تسمية لا أصل لها، ولعل الناس خلطوا بين تظليل الغمامة للرسول إذا سار في الخلاء، وبين صلاته في مكان غير مسقوف، فظنوا أن الغمامة ظللته، فسموه مسجد الغمامة.

٦ ـ مسجد السجدة:

وهو المشهور الآن بمسجد أبي ذر الغفاري، ونسبته إلى أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ نسبة غير صحيحة، ولم يذكر أحد من المؤرخين سبباً لهذه التسمية.

وأما تسميته بمسجد السجدة فلما روى البزار من أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ رأى رسول الله ـ ﷺ ـ دخل حائطاً ـ أي بستاناً ـ من حيطان الأسواق، فصلى فأطال السجود، قال: فقلت: قبض الله روح رسوله ـ ﷺ ـ لا أراه أبداً، فحزنت وبكيت، فرفع رأسه، فدعاني فقال: ما الذي بك؟ أو ما الذي وراءك؟

---

(١) عمدة الأخبار ص ١٨٣.

فقلت: يا رسول الله أطلت السجود، فقلت قبض الله رسوله، لا أراه أبداً، فحزنت وبكيت.

قال: سجدت هذه السجدة شكراً لربي فيما أبلاني في أمتي أنه قال: من صلَّى عليك منهم صلاة كتبت له عشر حسنات[1].

فهذا المسجد أقيم في محل هذه السجدة المذكورة، وموضعه الآن نهاية شارع أبي ذر عندما يلتقي بشارع المطار، وهو معروف هناك، وفي هذا المكان كانت بساتين صدقة رسول الله.

وقد ذكر الشيخ عبد القدوس الأنصاري في كتابه آثار المدينة المنورة قال: سمى بعض الناس هذا المسجد في العقد الثامن من هذا القرن الرابع عشر الهجري بمسجد أبي ذر، والمؤرخون والتاريخ لا يقران هذه التسمية، فهي تسمية غير صحيحة[2].

وهذا كلام صحيح، غير أني ألاحظ أنه يقول: إن هذه التسمية كانت في العقد الثامن من القرن الرابع عشر، وهذا ليس صحيحاً، لأن السمهودي، وهو أحد مؤرخي المدينة المشهورين والمتوفى في أول القرن العاشر، حيث كانت وفاته في سنة ٩١١ هـ = سنة ١٥٠٥ م ذكر المسجد بهذا الاسم حيث يقول: ويقال: إنه مسجد أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ ولم يرد فيهما نقل يعتمد عليه[3].

وكلام السمهودي ـ رحمه الله ـ يدل على أن تسمية المسجد بمسجد أبي ذر الغفاري، تسمية قديمة، وهو معروف بها قبل القرن العاشر الهجري.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٥٢) وروى هذا الحديث ابن أبي الدنيا وكذلك أبو يعلى، ورواه الإمام أحمد بلفظ آخر.

(٢) المدينة المنورة، للشيخ عبد القدوس الأنصاري، صفحة (١٣٩) الحاشية رقم (١).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٨٥١).

٧ ـ مسجد ذباب:

وهو المعروف أيضاً بمسجد الراية، وذباب اسم الجبل الذي أقيم عليه المسجد وهو يقع شمال ثنية الوداع الشمالية، وشمال معهد المعلمات الآن وشرقي محطة بنزين، تعرف بمحطة بنزين الزغيبي.

وقد اتخذ المسجد على هذا الجبل لما روى ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن الأعرج أن النبي ـ ﷺ ـ صلَّى على ذباب، وكانت صلاته على هذا الجبل حين ضرب قبته عليه، وهم يحفرون الخندق.

وقد روى الحارث بن عبد الرحمن قال: بعثت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ إلى مروان بن الحكم حين قتل ذباباً وصلبه على ذباب تقول: موقفٌ صلَّى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ واتخذته مَصْلبا[1].

وكان الأمراء والسلاطين يصلبون على جبل ذباب، وظلوا كذلك حتى قال هشام بن عروة لزياد بن عبيد الله الحارثي: يا عجباً! يصلبون على مضرب قبة رسول الله ـ ﷺ ـ فكف عن ذلك زياد، وكف الولاة بعده عنه[2].

ونفهم من هذا أن الجبل اسمه ذباب، قبل أن يصلب عليه مروان بن الحكم الرجل اليماني الذي قتله، وكان اسمه ذباباً، فقول القائلين أن الجبل سمي ذباباً باسم الرجل الذي قتل وصلب عليه قول غير صحيح.

وأما تسمية المسجد باسم مسجد الراية، فإن صح أن الرسول ـ ﷺ ـ نصب عليه رايته وهو خارج لغزوتي خيبر وتبوك، فإن التسمية تنسب إلى ذلك، وإن لم يصح ذلك فيكون سبب التسمية ما ذكره السمهودي من أن هل المدينة اصطفوا لقتال جيش الحرة على الخندق وكان يزيد بن هرمز في موضع ذباب إلى مربد النعم معه الدهم من الموالى، وهو يحمل رايتهم.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٤٦).

(٢) نفسه (٣/ ٨٤٦).

ثم قال: ولعل السبب في اشتهار مسجده بمسجد الراية، ما ذكره الواقدي من أن يزيد بن هرمز كان في موضعه، ومعه راية الموالي[1].

وهذا الجبل هو الذي كانت بالقرب منه من جهة الشمال الصخرة التي أعجزت المسلمين وهم يحفرون الخندق، فشكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فنزل من فوق الجبل، وأخذ المعول، وضرب الصخرة ثلاث ضربات، ففتتها[2].

عمارته:

أول من بناه عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ يقول السمهودي ـ رحمه الله ـ: وهو مبني بالحجارة المطابقة على صفة المساجد العمرية[3].

وظل المسجد على عمارة عمر بن عبد العزيز حتى تهدم، فجدد بناءه الأمير جانبك النيروزي ـ رحمه الله ـ سنة ٨٤٥، ٨٤٦ هـ الموافق سنة ١٤٤١، ١٤٤٢ م.

والمسجد الآن محاط بكثير من المباني التي تكاد تخفيه عن الأعين، فلا يكاد المار يبصره إلاَّ إذا تحرى رؤيته، وذلك لصغر المسجد، فهو لا يزيد عن أربعة أمتار في مثلها، أي أنه مربع الشكل، وارتفاعه حوالى خمسة أمتار أو تزيد قليلاً.

وللمسجد محراب متداع، وله فناء عليه باب، يصل إليه من يريد دخوله بعد أن يصعد درجات مؤدية إليه.

٨ ـ مسجد السقيا:

السقيا أرض تقع في الحرة الغربية للمدينة، وهي المعروفة بحرة الوبرة

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٤٧).
(٢) نفسه (٤/ ١٢٠٧).
(٣) نفسه (٣/ ٨٤٥).

وهذه المنطقة مشهورة بصفاء جوها، وعذوبة آبارها، ويقع فيها بئر السقيا التي كان يستعذب منها لرسول الله ـ ﷺ ـ أي كانوا يحملون من مائها ليشرب منه الرسول ـ ﷺ ـ لعذوبته.

وتقع أرض سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ في هذا المكان، ويضم معظمها الآن سور محطة السكة الحديد، وفي هذه الأرض، استعرض رسول الله ـ ﷺ ـ جيشه وهو ذاهب إلى بدر، وهناك وعده الله إحدى الطائفتين: العير أو النفير.

روى الترمذي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كنا بحرة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ إيتوني بوضوء، فتوضأ، ثم قام فاستقبل القبلة فقال: اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ودعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك، أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين.

وروى الواقدي عن سعد بن أبي وقاص قال: خرجنا إلى بدر مع رسول الله ـ ﷺ ـ ومعنا سبعون بعيراً، وكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير، وكنت أنا من أعظم أصحاب النبي ـ ﷺ ـ غتى، وأرجلهم رُجْلة (أي أشدهم قوة) وأرماهم بسهم، لم أركب خطوة ذهاباً ولا راجعاً.

وقال ـ ﷺ ـ حين فصل من يثرب إلى السقيا: اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم من فضلك.

قال: فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلاَّ وجد ظهراً، للرجل البعير والبعيران، واكتسى من كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسرى، فأغنى به كل عائل[1].

وبالسقيا استسقى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بالعباس بن

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٤٤).

عبد المطلب، عم رسول الله ـ ﷺ ـ حين احتبس المطر وقحط الناس، روى البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن عمر بن الخطاب كان إذا أقحطوا استسقى بالعباس، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك ـ ﷺ ـ فاسقنا؛ فيسقون.

ويروي العباسي أن العباس ـ رضي الله عنه ـ قال حين استسقى به عمر: اللهم إنه لا ينزل إلاَّ بذنب ولم يكشف إلاَّ بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لقرابتي من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.

فأرخت السماء مثل الجبال حتى خصبت وعاش الناس، فهناك سمي العباس ـ رضي الله عنه ـ ساقي الحرمين[1].

وقد سُمِّي العباس ـ رضي الله عنه ـ ساقي الحرمين، لأنه كان في مكة يتولى سقاية الحجيج وفي المدينة استسقى به أهلها فسُقوا.

وقد عرفت المنطقة باسم بئر فيها يسمى السقيا، وذلك لشهرته لعذوبة مائه، وأما الأرض التي يقع فيها البئر فتعرف باسم الفلجان[2] والبئر ليست موجودة الآن، وفوقها شارع تسير فيه السيارات.

موقع المسجد وعمارته:

يقع مسجد السقيا غربي المسجد النبوي، في وسط الحرة الغربية (الوبرة) بداخل سور محطة السكة الحديد، عند باب العنبرية طريق جدة ومكة القديم، وأول من عمره عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ وبناه في المكان الذي صلَّى فيه رسول الله، واستعرض جيشه وهو ذاهب لغزوة بدر كما قدمنا.

ولكن المسجد تهدم، وظل مكانه مجهولاً حتى اكتشفه السيد السمهودي ـ رحمه الله ـ وفي هذا يقول: ولم يكن هذا المسجد معروفاً، ولم

---

(١) عمدة الأخبار للعباسي ص ١٨٩.

(٢) عمدة الأخبار للعباسي ص ١٨٩.

يذكره المطري. . .، فاتفق أني جئت إلى ذلك المحل، وتطلَّبت المسجد، فرأيت محله رضماً، فأرسلت إليه بعض المعلمين، وأمرته أن يتتبع الأساس بالحفر من داخله، فظهر محراب المسجد وتربيعه، وبناؤه بالحجارة المطابقة بالجص، وقد بقي منه في الأرض أَزْيَد من نصف ذراع، فيه بياض المسجد بالقَصَّة، بحيث يعلم الناظر أنه من البناء العمري[1].

ويخبر السمهودي أن المسجد بني في عهده على أساسه الأول، وأنه كان مربعاً، ومساحته سبعة أذرع في مثلها[2]. ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يخبرنا باسم بانيه، ولا من قام على نفقته.

ولكن يبدو أن المسجد تهدم مرة أخرى، وأقيم في مكانه قبة عرفت بقبة الرُّوس، ويوضح الشيخ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ سبب هذه التسمية فيقول: دفن بها بعض قتلى الأعراب في عهد حكومة الأتراك، . . . قال: وصيغة الروس، بمعنى الرؤوس، أي القبة التي دفن فيها رؤوس قتلى الأعراب في إحدى الفتن الأهلية بين الحضر والبدو في المدينة في أواخر العهد العثماني[3].

والزائر لهذه المنطقة الآن يرى أن المسجد قائم في نهاية سور السكة الحديدية من جهة الجنوب وله قباب ثلاث، أكبرها قبته الوسطى، وهذه القباب تدل على أنه من العمارة العثمانية.

وقد اعتنت وزارة الأوقاف السعودية بالمسجد فرممته ونظفته، وعينت له إماماً يقيم فيه الشعائر، ويصلي بالناس، والمسجد في موقع مهم، حيث هناك في محطة السكة الحديدية فرقة للإطفاء، وهذا المكان موقف لسيارات نقل الحجاج في موسم الحج، وحول المكان أمكنة آهلة بالسكان مما يجعل الحاجة إليه ماسة.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٤٥).

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) آثار المدينة المنورة (ص ١٣٦) حاشية رقم (١).

وشرقي المسجد وخارج سور المحطة كانت بئر السقيا التي طمرت، ومرَّ فوقها شارع مرصوف هو طريق جدة ـ مكة القديم، قبل استعمال طريق الهجرة النبوية الذي تقطعه السيارات ذهاباً وإياباً إلى مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ.

٩ ـ مسجد الفتح:

هو المسجد الذي يقع غربي جبل سَلْع، وهو مبني على قطعة من الجبل نفسه، ويسميه بعض المؤرخين مسجد الأحزاب أو المسجد الأعلى، وحول هذا المسجد، وفي قبلته بالتحديد، يوجد خمسة مساجد، يطلق عليها كلها مساجد الفتح.

وقد تحول الرسول ـ ﷺ ـ إلى هذا المكان بعد أن أتم المسلمون حفر الخندق، فمن المعلوم أنه ـ ﷺ ـ في وقت حفر الخندق ضرب قبته على جبل ذباب السابق الذكر، وظل هناك حتى تمّ الحفر، ثم تحول هو والمسلمون إلى غربي جبل سَلْع، وجعل ظهر الجيش إلى الجبل، والخندق بينه وبين كفار قريش، لأنهم كانوا معسكرين عند بئر عثمان ـ رضي الله عنه ـ فكانت وجوههم نحو جبل سلع ـ أي في مواجهة المسلمين ـ.

وفي هذا المكان استعرض رسول الله ـ ﷺ ـ جيشه قبل أن يواجه المشركين، روى ابن شبة عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ «قعد على موضع مسجد الفتح، وحمِد الله، ودعا عليهم، وعرض أصحابه وهو عليه»[1].

ومن هذا نعلم أن دعاء الرسول وصلاته في هذا المكان، كان قبل بناء المسجد، لأن هذه المساجد إنما بنيت بعد أن صلَّى الرسول ـ ﷺ ـ في أماكنها، وإنما بناها عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ ليحافظ بذلك على

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٠).

أثر من آثار رسول الله التي ينبغي أن تخلد ليعرف المسلمون تاريخهم، ويحافظوا على تراثهم، وأما ما يفعله الناس الآن من التبرك بها، والتمسح ببنيانها وترابها، فذلك كله من البدع التي يجب محاربتها، وتوعية المسلمين لتركها.

وفي مكان هذا المسجد دعا رسول الله ـ ﷺ ـ على الأحزاب، وألحَّ على الله ـ عزّ وجلّ ـ في الدعاء، حتى استجيب له بعد ثلاثة أيام. روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسنده عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ «دعا في مسجد الفتح ثلاثاً، يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرف البِشْر من وجهه».

قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلاَّ توخيت تلك الساعة، فأدعو فيها فأعرف الإجابة[1].

وكان دعاء رسول الله ـ ﷺ ـ وسط المسجد تقريباً، فقد ذكر العباسي عن جعفر بن محمد عن أبيه «أن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل مسجد الفتح فخطا خطوة، ثم الخطوة الثانية، ثم قام ورفع يديه إلى الله ـ تعالىٰ ـ حتى رؤي بياض إبطيه ـ وكان أعفر الإبطين ـ فدعا حتى سقط رداؤه عن ظهره، فلم يرفعه، حتى دعا ودعا كثيراً، ثم انصرف»[2].

وكان من دعائه ـ ﷺ ـ على الأحزاب قوله: «اللهم مُنْزِل الكتاب، ومُنشِىء السحاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[3].

وروى ابن زبالة من طريق عمر بن الحكم بن ثوبان قال: أخبرني من صلَّى وراء النبي ـ ﷺ ـ في مسجد الفتح، ثم دعا فقال: «اللهم لك الحمد، هديتني من الضلالة، فلا مكرم لمن أهنت، ولا مهين لمن أكرمت، ولا معز لمن أذللت، ولا مذل لمن أعززت، ولا ناصر لمن خذلت، ولا خاذل لمن

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٠).

(٢) عمدة الأخبار (ص ١٧٩).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٢).

نصرت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا رازق لمن حرمت، ولا حارم لمن رزقت، ولا رافع لمن خفضت، ولا خافض لمن رفعت، ولا خارق لمن سترت، ولا ساتر لمن خرقت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت»[1].

ويذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ دعاء آخر فيقول: ولما اشتد الأمر على المسلمين، وطال المقام في الخندق، قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال: «من يذهب ليأتنا بخبرهم وله الجنة» فلم يُجِبْهُ أحد، وقال ثانياً وثالثاً فلم يُجِبْهُ أحد، فنظر إلى جانبه وقال: «من هذا»؟

فقال: حذيفة، فقال: «ألم تسمع كلامي منذ الليلة»؟

قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله، منعني أن أجيبك الضرُّ والقُر.

قال: «انطلق حتى تدخل في القوم، فتسمع كلامهم، وتأتيني بخبرهم، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إليَّ، انطلق ولا تُحْدِث شيئاً حتى تأتيني».

فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ـ ﷺ ـ يده يقول: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي».

وأخبره جبريل بأن الله تعالىٰ ـ مرسل عليهم ريحاً، فبشر أصحابه بذلك[2].

ويذكر السمهودي هذه الرواية ثم يقول: فنزل جبريل فقال: إن الله سمع دعوتك وكفاك هول عدوك، فخر رسول الله ـ ﷺ ـ على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٠٣).

وأخبره جبريل بأن الله مرسل عليهم ريحاً، فبشر أصحابه بذلك[1].

وإذا أطلقت كلمة مسجد الفتح فالمراد حينئذ المسجد الأعلى المبني على قطعة من جبل سلع، وسمي المسجد مسجد الفتح، لأن الرسول ـ ﷺ ـ دعا وهو في مكانه حتى استجاب الله له، وبشره جبريل بالنصر، فكان ذلك فتحاً مبيناً.

وأما قول القائلين بأنه سمي مسجد الفتح لأن سورة الفتح نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ هناك، فهو قول مجانب للصواب، لأن جمهور المفسرين والمحدثين، وأهل السيرة والتاريخ يقولون: إن سورة الفتح نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو راجع من الحديبية.

عمارته ووصفه:

عمارته الأولى كانت في عهد الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة المنورة، وأقام سقفه على ثلاث أسطوانات، تتجه من الشرق إلى الغرب، والمسقوف منه رواق واحد، وله رحبة عليها سور قصير.

وتهدم المسجد بمرور الزمن، فجدد بناءه سيف الدين الحسين بن أبي الهيجاء وزير الدولة العبيدية (الفاطمية) سنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م[2].

وفي حركة تخليد الآثار الإسلامية التي قامت بها الدولة العثمانية، جددت الدولة العثمانية المسجد، ولكن يبدو أنها جددته حسب ما كان عليه، ويدل على تجديد الدولة العثمانية له: أن الحجر الذي كان عليه ذكر تجديد ابن أبي الهيجاء له غير موجود الآن، كما يدل على تجديد الدولة العثمانية للمسجد ما يعلو سقفه من القباب التي تميز العمارة العثمانية.

وبناء المسجد الحالي بالحجارة والجير، ويسنده من الجنوب دعامة

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٣).

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٧).

لتقوية جداره حتى لا ينهار، وطول المسجد ثمانية أمتار أو تزيد قليلاً، وأما عرضه فثلاثة أمتار تقريباً، وارتفاعه قريب من ذلك، ويمكن الوصول إلى المسجد بارتقاء درج من الحجارة.

المساجد التي حول مسجد الفتح:

ذكر ابن النجار أنها ثلاثة، وقال: إن أحدها تهدم وأخذت حجارته، والآخران مُعمران بالحجارة والجص.

ويقول المطري: إن المسجد الأول الذي يلي مسجد الفتح يعرف بمسجد سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ والثاني الذي يلي مسجد سلمان، يعرف بمسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والمسجد الثالث لم يبق له أثر في عهد المطري.

ولم يقف عدد المساجد التي حول مسجد الفتح عند ثلاثة، ولكنه تجاوز ذلك الآن حتى بلغ عددها خمسة، والناس يطلقون عليها الآن المساجد السبعة، وحتى أطلق على المنطقة (المساجد السبعة) وكتب ذلك على لوحات رسمية.

ولعل الناس يضيفون إلى المساجد الخمسة مسجد الفتح ومسجد الراية المتقدم فيصير بذلك عددها سبعة، لأنهم يعتقدون أن هذه المساجد كلها كانت في أيام حفر الخندق.

والناس يسمون هذه المساجد بما يأتي: مسجد أبي بكر، مسجد سلمان، مسجد علي، مسجد بلال، مسجد فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ.

وهذه المساجد الخمسة ليس لها نسب تاريخي ترجع إليه، ولم يذكر أحد من المؤرخين من بنى هذه المساجد؟ ولا متى بنيت؟ ولا سبب بنائها.

وحتى منذ كانت ثلاثة فقط لم يشر أحد إلى شيء من ذلك، ويقف السمهودي ـ رحمه الله ـ منها هذا الموقف، فيقول: وما ذكره المطري من نسبة المسجدين المذكورين لسلمان وعلي ـ رضي الله عنهما ـ شائع على ألسنة

الناس، ويزعمون أن الثالث الذي ذكر المطري أنه لم يبق له أثر: مسجد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم يقول: وبعض العامة يسمي مسجد سلمان بمسجد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولم أقف في ذلك كله على أصل[1].

وهذا يدل على أن هذه المساجد مستحدثة، وليس لها عمق تاريخي، فقد كانت إلى بداية القرن العاشر الهجري ثلاثة فقط، ثم زادت حتى بلغت خمسة.

وأما عمارتها فيبدو أنها استحدثت في العصر المملوكي، والمساجد الثلاثة السابقة الذكر كانت موجودة ومعروفة في العهد الفاطمي، حيث جدد بناء المسجدين (مسجد سلمان ومسجد علي) الوزير الفاطمي الحسين بن أبي الهيجاء سنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م أي بعد تجديد مسجد الفتح بسنتين.

كما جدد الأمير زين الدين ضغيم بن حشرم المنصوري أمير المدينة المنورة في عهد الملك الأشرف قايتباي سلطان مصر من المماليك الشراكسة سنة ٨٧٦ هـ = ١٤٧١ م المسجد المعروف بمسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

ويبدو أن المسجدين الآخرين (مسجد بلال ومسجد فاطمة) استحدثا في العهد العثماني، حيث لم يكونا معروفين، ولا ذِكْر لهما إلى القرن العاشر الهجري.

١٠ ـ مسجد القبلتين:

لما هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة المنورة، أمره الله أن يتوجه في صلاته نحو بيت المقدس إلى الشمال، وظل ـ ﷺ ـ يصلي إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً[2].

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٣٦).

(٢) البخاري، كتاب الصلاة باب التوجه، نحو القبلة.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقلب وجهه في السماء متمنياً أن يوجهه الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى الكعبة الشريفة، فنزل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾[1]. عندئذ توجه ـ ﷺ ـ نحو الكعبة، إلى جهة الميزاب.

أين كان رسول الله ـ ﷺ ـ حين نزلت عليه الآية الكريمة؟

روى البخاري عن البراء بن عازب الأنصاري أن أول صلاة صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ بعد تحول القبلة، صلاة العصر.

وروى ابن سعد أن رسول الله ـ ﷺ ـ زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سَلِمَة فصنعت له طعاماً، وحانت الظهر، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ بأصحابه ركعتين.

ثم أمر أن يوجه إلى الكعبة، فاستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فسمى المسجد مسجد القبلتين[2].

وفي رواية للبخاري عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة[3].

وبهذا يجتمع لدينا روايات ثلاث: واحدة تقول إنَّه صلَّى الظهر في مسجد بني سلمة وتحولت القبلة أثناء الصلاة، فاستدار ـ ﷺ ـ إلى الكعبة وأتم صلاته.

والثانية تقول إن أول صلاة صلاها ـ يعني بعد تحول القبلة ـ صلاة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) الطبقات (١/ ٢٤٢).

(٣) البخاري باب ما جاء في القبلة.

العصر، والثالثة تذكر أن أهل قباء كانوا يصلون الصبح إلى بيت المقدس، فمر بهم من أخبرهم بتحول القبلة إلى الكعبة فاستداروا إلى الكعبة.

والأحاديث الصحيحة التي رويت في هذا الموضوع تدل على أن الرسول ـ ﷺ ـ صلَّى نحو الكعبة بعد نزول الآية الكريمة، وأنه صلَّى معه رجال، ومرَّ أحدهم على جماعة من المسلمين يصلون نحو بيت المقدس، فأخبرهم بأنه صلَّى مع رسول الله إلى الكعبة فاستداروا وهم في الصلاة، وأتموا صلاتهم جهة الكعبة.

وقد حدث ذلك في مسجدين: مسجد بني سَلِمة، وكان ذلك التحول أثناء صلاة العصر، ومسجد قباء، وكان في صلاة الصبح.

وعلى هذا يصح أن نطلق على كل مسجد من المسجدين: مسجد بني سلمة، ومسجد قباء: أنه مسجد القبلتين، ولكن يبدو أن مسجد قباء قد استغنى بما له من فضل السبق، وبما له من منزلة ومكانة في نفوس المسلمين عن أن يطلق عليه مسجد القبلتين، كما أن مسجد بني سلمة قد سبق مسجد قباء في التحول أثناء الصلاة إلى الكعبة، حيث كان التحول في مسجد بني سلمة في صلاة عصر اليوم الذي تحولت فيه القبلة، وأما في مسجد قباء فكان في صلاة صبح اليوم التالي ولهذا سبق مسجد بني سلمة بلقب مسجد القبلتين، فكان أولى به، وغلبت عليه التسمية وعرف باسم مسجد القبلتين.

موقع المسجد وعمارته:

يقع مسجد القبلتين غربي مسجد الفتح، وبعيداً عنه، وهو على هضبة مرتفعة عن الأرض، في الجهة الشمالية الغربية للمدينة المنورة، ويبعد عنها حوالي أربعة كيلومترات.

والمسجد بني في عهد الرسول ـ ﷺ ـ بناه بنو سلمة بعد أن صلَّى فيه الرسول وهو في زيارته لأم بشر ـ رضي الله عنه ـ فحينئذ طلب بنو سلمة من

أم بشر أن تبيع لهم المكان الذي صلَّى فيه الرسول ـ ﷺ ـ ليتخذوه مسجداً، فوهبت لهم دارها، وهي التي صلَّى فيها النبي ـ ﷺ ـ فبنوها مسجداً، وهو المعروف إلى اليوم بمسجد القبلتين[1].

وفي سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٧ م جدد بناءه وأصلح سقفه الشجاعي شاهين الجمالي شيخ الخدامين[2].

وفي العصر العثماني جدد بناءه السلطان سليمان سنة ٩٥٠ هـ ـ ١٥٤٣ م، وبقي المسجد على تجديد السلطان سليمان، حتى أمر المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ بتجديده وتوسعته.

فزاد فيه رحبة، وجعل له مئذنة، ودرجاً من الإسمنت للصعود إليه، وتولت وزارة الأوقاف السعودية عمارة المسجد، وبنته على الطراز الحديث، وسقفت الرحبة التي أمامه وهي التي أضافها الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكذلك بلطت المدخل المؤدي إلى باب المسجد الرئيسي.

عمارة الملك فهد للمسجد:

وقد اهتم خادم الحرمين الشريفين ـ وفقه الله ـ بمسجد القبلتين كما اهتم بغيره من الآثار الإسلامية، وأولاه عناية فائقة، فأمر ببنائه وتشييده حتى يتناسب مع مكانته التاريخية، ومنزلته الكبيرة في نفوس المسلمين.

مساحة المسجد:

كانت مساحة مسجد القبلتين قبل توسعة خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ تبلغ (٤٢٥)م^2 فكان المسجد بهذه المساحة يضيق بقاصديه، وكان الناس يدخلون إليه أفواجاً، يخرج فوج، ليدخل فوج آخر، وكان زوار المسجد

---

(١) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين لمحمد غالي الشنقيطي (ص ٢٣٥).
(٢) وفاء الوفا (٣/ ٨٤٢).

يقضون وقتاً طويلاً حتى يستطيعوا الدخول، ومشاهدة المكان الذي صلَّى فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وتحولت فيه القبلة، فصلَّى المسلمون ركعتين إلى الشام، وركعتين إلى البيت الحرام.

لهذا عمد خادم الحرمين الشريفين إلى توسعة المسجد بقدر المستطاع، فأمر ـ وفقه الله ـ بهدم المسجد القديم، وإضافة مساحات شاسعة من الأرض إلى مساحته القديمة حتى بلغت مساحة المسجد (٣٩٢٠) ثلاثة آلاف وتسعمائة وعشرين متراً مربعاً.

وبذلك تكون مساحة المسجد قد تضاعفت تسع مرات وتزيد قليلاً، وأصبحت أطوال أضلاعه على النحو التالي:

الضلع الجنوبي، وهو الذي به القبلة (٩٥) متراً.
الضلع الشمالي، وهو الذي يطل على الشارع العام (٨٣) متراً.
الضلع الغربي وطوله (٨٢) متراً، ومثله الضلع الشرقي تقريباً.
وقاعة الصلاة بالمسجد تتسع لألفي مصلٍ، ومساحتها (١١٩٠) م^{٢}.

وتشتمل قاعة الصلاة على شرفة مساحتها (٤٠٠) م^{٢} خصصت لصلاة النساء، وتقع خلف قاعة الصلاة للرجال، وهي مقامة على أعمدة ترفعها عن قاعة الرجال وقد خصصت ثلاثة صفوف تطل على قاعة الصلاة للرجال من أعلى لتحفيظ القرآن الكريم[١].

وصف عام للمسجد:

اعتمد في بناء المسجد على الطوب الأحمر الفخاري العازل للحرارة والصوت والرطوبة.

وقد كسيت القناطر التي تربط بين الدعائم بالنقوش والزخارف

---

(١) نشرة مجموعة بن لادن السعودية عن مسجد القبلتين (ص ١، ٢) مع دراسة ميدانية للمسجد.

الإسلامية، وقد تمّ نقشها يدوياً، ونفذ هذه النقوش والزخارف فريق من أمهر فناني الزخرفة الإسلامية استقدموا خصيصاً من المغرب العربي.

وارتفعت قاعة الصلاة في المسجد عن مستوى الأرض بقدر طابق واحد، وذلك لأن مقدمة المسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، تقع على هضبة طبيعية مرتفعة عن الأرض بهذا القدر.

وقد أتاح هذا الارتفاع فرصة استغلاله لبناء طابق سفلي، يشتمل على دورات المياه التي تتسع لثمانين شخصاً، خمسين منها للرجال، وثلاثين للنساء، كذلك يشتمل على فناء مزروع بالنخيل، ويشمل الطابق السفلي الخدمات الأساسية والمستودعات.

ويمكن الوصول إلى قاعة الصلاة عن طريق صالة الوضوء، أو عن طريق دَرَجٍ ومنحدرات من جميع جهات المسجد.

وللمسجد محراب ضخم أحيط بالنقوش والزخارف الإسلامية، في إطار من الآيات القرآنية الكريمة التي كتبت بالخط الكوفي الإسلامي، كتبها كبار الخطاطين الإسلاميين.

وفتحت في جدران المسجد من جهة القبلة والجدارين الغربي والشرقي فتحات منقوشة بالنقوش الجميلة، صنعت خصيصاً لوضع المصاحف.

وأما نجارة المسجد من الأبواب والنوافذ، فقد صنعت في مؤسسة محمد بن لادن بجدة حسب الطراز الإسلامي القديم، والمستعمل في نجارة المساجد منذ العهود الأولى.

وكذلك أعمال الرخام والبلاط المستعمل في تجهيز المسجد، قد صنعت من أحجار الغرانيت واستعمل ذلك في أرض المسجد والساحات المحيطة به والدرج الموصل إليه، وكسوة بعض الجدران في مداخل المسجد.

وقد فرشت قاعة الصلاة بأفخم أنواع السجاد الوطني، الذي يحمل في رسومه القديمة وشكله الأثري مميزات مسجد القبلتين عن غيره من المساجد.

وطليت جدران المسجد باللون الأبيض الناصع، وأما سقفه فقد طلي باللون الذي يتناسب مع طلاء الجدران وهو اللون البنّي الفاتح ليعطي شكلاً طبيعياً خاصاً.

وقد تمّ طلاء قرابة سبعة وعشرين ألف متر مربع[1].

الإضاءة والتكييف:

تمت إضاءة المسجد سواء من الداخل أم الخارج حسب تخطيط هندسي شامل، فقد وزعت الكشافات بأشكال متوازية، حتى يتم توزيع الضوء والإنارة بطريقة واضحة ومتوازنة، لا يظهر فيها جانباً على حساب جانب آخر، ولا يختفي جانب من الجوانب التي ينبغي أن تظهر.

وبذلك خرج المسجد في صورة رائعة، تلفت الأنظار، وتبهر الأبصار، وقد صممت نوافذ المسجد وأبوابه بطريقة تمنح المسجد الإضاءة الطبيعية التي لا يستغني عنها بناء، والتي تمنح البناء الجو الصحي المناسب الذي يجب أن يتوفر في المساجد وغيرها من العمارات.

واختير للمسجد نوع من الثريات ذات الطابع الأثري الإسلامي، فهي مصنوعة من النحاس المزخرف بالزخارف الإسلامية القديمة، فأضفت على المسجد طابعاً خاصاً، بحيث يشعر المصلي فيه، أو الزائر له، بأنه أمام تحفة إسلامية رائعة، تعود به إلى سالف الحضارة الإسلامية الزاهرة، وتذكره بأمجاد أسلافه الذين شيدوا حضارة الأندلس، وبنوا القصور الفخمة والمساجد الرائعة في طليطلة وغرناطة.

وتمّ تكييف المسجد والمرافق المجاورة له، بأحدث ماكينات وآلات

---

(١) دراسة ميدانية والأرقام والمعلومات الخاصة من نشرة مجموعة بن لادن السعودية الخاصة بالمسجد.

التكييف المركزي، وانتشرت فتحات التكييف، ووزعت بشكل يعم كل أنحاء المسجد والمرافق.

وألحق بالمسجد مساكن للإمام والمؤذن والحارس، تقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد، وقد تمّ تكييف هذه المرافق تكييفاً مركزياً، يضمن الراحة والهدوء للمستفيدين منها[1].

(١) دراسة ميدانية مع الاستفادة من نشرة مجموعة بن لادن السعودية الخاصة بالمسجد.

المشاهد التاريخية

أولاً ـ المشاهد الاجتماعية:

١ ـ البقيع ـ ٢ ـ الآبار.

ثانياً ـ المشاهد الكونية:

١ ـ جبل أحد ـ ٢ ـ جبل سلع ـ ٣ ـ جبلا عَيْر وثور
٤ ـ الحرتان الشرقية والغربية ـ ٥ ـ ثنية الوداع.

ثالثاً ـ المشاهد الأثرية:

١ ـ حصن كعب بن الأشرف ـ ٢ ـ سقيفة بني ساعدة
٣ ـ دار أبي أيوب الأنصاري.

المشاهد التاريخية

المشاهد التاريخية الإسلامية كثيرة ومتنوعة، منها ما هو عسكري حربي كمواقع الغزوات والمعارك التي دارت بين المسلمين وأعداء الإسلام، ومنها ما هو مالي اقتصادي كالأسواق التجارية، والأماكن الصناعية، ومنها ما هو إنساني اجتماعي كالعقارات الموقوفة على الفقراء والمحتاجين، والأراضي الزراعية والآبار المحبوسة على المسلمين.

وكل هذه جديرة بالاهتمام والدراسة، والتقصي والمعرفة، فالمشاهد التاريخية ليست شيئاً كمالياً في حياة المسلمين، ولا هي وقوف على الأطلال كما كان يقف الشعراء ولا مجرد تعرف على الآثار كما يفعل هواة المقابر من الشرقيين والغربيين على حد سواء.

ولكنها تصف عمقاً تاريخياً ترتبط به حياة المسلم، لا يستطيع الانفكاك عنه مهما انسلخ أو حاول الانسلاخ عن ماضٍ يعتبره تراثاً رثًّا لا يستحق الاهتمام، وليس جديراً بالتقدير، ذلك لأن التاريخ الإسلامي ليس تاريخ أمة انقرضت وانقضت أيامها، ولا هو تاريخ مادي قوامه الحجارة والتماثيل، وقواعده الرسوم والتصاوير، ولكنه تاريخ أمة لها أبعادها في حياة البشرية، أمة لم تنته مهمتها بعد في تطوير الحضارة الإنسانية، أمة ماضية على الدرب تحمل مشعل الهداية مهما صادفها من العقبات وتضيء الطريق للحيارى، برغم

كثرة المتكالبين على انتزاع الشعلة من يدها، تحقيقاً لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

ولست أماري في انحراف الأمة الإسلامية عن جادتها، ولا أجادل عن فئات استمرؤوا هذا الانحراف، وتمادوا فيه، لأن الإسلام باق بجدته كما أنزله الله على نبينا محمد ـ ﷺ ـ ولأن الله ـ عزّ وجلّ ـ يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها، ويبصرها بحقيقة أمرها، ومن هنا كانت الصحوة الإسلامية متفاعلة دائما مع الأحداث، ولهذا كان خوف الأعداء مستمراً من يقظة العملاق، فهم في شغل شاغل من كل حركة تقوم على أساس الإسلام، وتقنن نظرياتها ومخططاتها على مبادىء الإسلام.

ومع كل ما يسدد للإسلام من سهام قاتلة، ومع كل ما ينزل بالمسلمين من أحداث مدمرة مع كل هذا، فإننا نرى الإسلام دائماً في حيويته وفعاليته، يمس قلب الإنسان فيزكي فيه حب العمل، ويحيي فيه آمال النصر والتغلب على العقبات، ويعيد إليه شبابه الديني، وحماسه الروحي، كذلك نرى المسلمين، وقد اجتاحتهم النكبات، ونزلت بهم النوازل، وصرفتهم الفتن عن سبيلهم، لا يكاد يقف بينهم من يذكرهم بعظمة الإسلام، ويحرك مشاعرهم بآيات القرآن، ويلمس أرواحهم بعاطفته الحانية، ويوقظ فيهم مجد آبائهم وأسلافهم، حتى يهبوا من رقدتهم، وتشتعل حماساً خواطرهم، ويضحون بكل غال ونفيس من أجل عقيدتهم.

إنها الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وإنها حيوية الإسلام وفعاليته، وإن تاريخنا ليرتبط بهذه الحيوية ارتباطاً وثيقاً، لأنه تاريخ حضارة روحية لا تفتر، وإنه باختصار تاريخ الأرض حين ترتبط بالسماء.

وفي المدينة المنورة، مهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ مشاهد تاريخية عديدة،

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

ينبغي لمن يريد التعرف على المدينة من قرب أو من بعد أن يتحراها، وأن يقف عليها، حتى يلم بجوانب التاريخ المتناثرة من نواحيها المختلفة.

وسأتناول هذه المشاهد أحياناً باختصار غير مخل، وأحياناً بإسهاب غير ممل، وذلك حسبما يقتضيه المشهد التاريخي، وما تمس إليه الحال من التعريف به، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً ـ المشاهد الاجتماعية:

١ ـ بقيع الغرقد:

البقيع المكان الذي به أصول شجر من أنواع مختلفة، وكان في المدينة المنورة أكثر من مكان يطلق عليه اسم البقيع غير أنها كانت تتميز بالاسم المضاف إلى الكلمة، فبقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة، والغرقد نوع من الشجر ضخم، وهو شجر العوسج، وبقيع الخيل الذي كان سوقاً تباع فيه الخيل، وكذلك بقيع الزبير.

وأول من دفن بالبقيع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة من الأنصار، وأول من دفن به من المهاجرين عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ دفنه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: أجعلك إمام المتقين.

فلما توفي إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: يا رسول الله، أين نحفر له؟ قال: عند فرطنا عثمان بن مظعون[1].

عند ذلك رغب الناس في أن يدفنوا موتاهم بالبقيع، فقطعوا الشجر الذي فيه، واتخذت كل قبيلة لنفسها ناحية منه، لتعرف مقابرها[2].

---

(١) عمدة الأخبار (ص ١٥٠) والفرط من يتقدم الجماعة ليهيىء لهم منزلهم وما يحتاجون إليه.

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٨٩٢).

وقد سمى رسول الله ـ ﷺ ـ المكان الذي دفن فيه عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ الروحاء[1] وبلغت جملة من دفن من الصحابة بالبقيع نحواً من عشرة آلاف صحابي[2].

فضل البقيع:

للبقيع مكانة مميزة في نفس الرسول ـ ﷺ ـ فقد كان يحرص أن يزوره كثيراً، ويدعو لأهله بالمغفرة والرحمة، ويسلم عليهم.

روى البيهقي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ فوضع ثوبيه، ثم لم يستتم أن قام فلبسهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي.

فخرجت أتبعه، فأدركته بالبقيع بقيع الغرقد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء.

وعن أم قيس بنت محصن قالت: لو رأيتني ورسول الله ـ ﷺ ـ آخذ بيدي في سكة المدينة حتى انتهى إلى البقيع ـ بقيع الغرقد ـ فقال: يا أم قيس، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك.

قال: ترين هذه المقبرة؟

قلت: نعم.

قال: يبعث الله يوم القيامة منها سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب، البقيع يضيء لأهل السماء كما تضيء الشمس لأهل الدنيا[3].

وقد ورد أن البقيع ذكر في التوراة بصفته، واسمه فيها (كَفْتَه) روى

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٩٢).

(٢) عمدة الأخبار (ص ١٥١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير.

السمهودي أن مصعب بن الزبير دخل المدينة من طريق البقيع، ومعه ابن رأس الجالوت، فسمعه مصعب يقول: هي هي، فدعاه مصعب فقال: ماذا تقول؟

فقال: نجد هذه المقبرة في التوراة بين حرّتين محفوفة بالنخل، اسمها كفته، يبعث الله منها سبعين ألفاً على صورة القمر[1].

موقع البقيع ووصفه:

يقع البقيع شرقي المسجد النبوي الشريف، وهو مقسم ثلاثة أقسام، يدفن في كل قسم مدة سنة، ثم يدفن في القسم الذي يليه، وبين هذه الأقسام طرقات يسير فيها الناس حتى لا يطئوا القبور، ويحد كل طريق بسورين قصيرين، ورصفت هذه الطرق بالإسمنت.

وقد اعتنت الحكومة السعودية بالبقيع عناية تليق به، فأنشأت حوله سوراً ضخماً مرتفعاً، وجعلت في هذا السور شبابيك واسعة، يرى الإنسان من خلالها المقبرة كلها وهو خارجها، وحصنت هذه الشبابيك بشبك من الحديد حتى لا تتسرب منه الحيوانات إلى داخل المقبرة، وكذلك جعلت في السور أبواباً من جهاته المختلفة لتسهيل الدخول والخروج، وجعلت على أبوابه مظلات يقف تحتها الناس للعزاء.

وإلى جوار البقيع أقامت الحكومة السعودية بناء خاصاً لتجهيز الموتى، فهناك يغسلون ويكفنون، ومن هناك يذهب بهم إلى الحرم فيصلى عليهم، ثم يدفنون.

وهذا كله على نفقة الحكومة، وليس هذا خاصاً بالسعوديين، ولكنه عام لكل من يموت في المدينة المنورة، وبخاصة الغرباء القادمين للحج والعمرة الذين يوافيهم الأجل المحتوم في مدينة رسول الله ـ ﷺ ـ.

وفي داخل البقيع، وعند الباب الرئيسي له توجد أماكن أعدتها الحكومة

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٨٧).

يستريح فيها الناس والضعفاء الذين لا يستطيعون مواصلة السير والوقوف حتى يتم الدفن.

وليس في البقيع قبور معلمة، ولهذا لا يستطيع أي زائر أن يميز بين القبور، ولعل الله أراد ذلك للمسلمين حتى يدعو الزائر لجميع أهل المقبرة بغير تخصيص.

والدعاء الوارد عن رسول الله ـ ﷺ ـ لأهل القبور هو: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»[1].

ومما يجب ملاحظته أن زيارة القبور مشروعة للرجال، أما النساء فيكره لهن ذلك ولكن إذا مررن بالقبور فعليهن الدعاء لهم بالرحمة، فقد ورد في حديث طويل عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن جبريل ـ عليه السلام ـ أتاني فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

قالت: قلتُ: فكيف أقول يا رسول الله؟

قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون[2].

من دفن بالبقيع من الصحابة:

عرفنا أن عدد الذين دفنوا في البقيع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حوالى عشرة آلاف، ولكن الذين عرفت قبورهم منهم، وذكرهم المؤرخون بأعيانهم قليلون، وسنذكر هنا أشهرهم كما ذكرهم المحققون:

١ ـ **أبو أمامة أسعد بن زرارة:** هو أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد

---

(١) رواه مسلم في الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور.

(٢) رواه مسلم والنسائي.

الأنصاري الخزرجي البخاري، وهو من السابقين، شهد بيعتي العقبة، وكان نقيباً على قبيلته، وهو أصغر النقباء سناً، وهو ـ رضي الله عنه ـ أول من صلَّى بالمسلمين الجمعة في المدينة.

ومات ـ رضي الله عنه ـ بعد تسعة أشهر من الهجرة، وهو أول من مات من الصحابة بعد الهجرة، وأول ميت صلَّى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وأول من دفن بالبقيع من الأنصار[1].

٢ ـ **عثمان** بن **مظعون**: ابن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي، من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى هو وابنه السائب، فلما بلغته إشاعة إسلام قريش رجع إلى مكة، ودخل في جوار الوليد بن المغيرة، ولما علم بما يلاقيه إخوانه المسلمون من الاضطهاد على يد قريش، لم تقبل نفسه أن يعيش آمناً في جوار الوليد، وإخوانه يُعَذَّبون.

فحينئذ رد على الوليد جواره، ورضي أن يعيش كما يعيش الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمون. سمع لبيد بن ربيعة الشاعر يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت.

قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقام سفيه من الجالسين فلطمه على عينه فاخضرت ـ أي مرضت ـ وعثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ هو الذي قال للنبي ـ ﷺ ـ: إني رجل تشق عليّ العزبة في المغازي، فتأذن لي في الخصي فأختصي؟

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصوم.

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ بعدما شهد غزوة بدر مع رسول الله ـ ﷺ ـ في

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣٤).

السنة الثانية من الهجرة، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع من المهاجرين[1].

روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قبَّل النبي ـ ﷺ ـ عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي، وعيناه تذرفان، ولما دفن وضع عند رأسه حجراً.

٣ ـ إبراهيم ابن النبي ـ ﷺ ـ: ولدته سُرِّيته مارية القبطية المصرية سنة ثمان من الهجرة في شهر ذي الحجة، وولد في العالية في مكان يعرف الآن بمشربة أم إبراهيم، والقابلة التي ولد على يديها هي سلمى مولاة لرسول الله ـ ﷺ ـ.

ولما وُلد بشر الرسول ـ ﷺ ـ بميلاده، وقال: ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم[2].

وكان ـ عليه السلام ـ أشبه الناس برسول الله ـ ﷺ ـ فقد سئل ابن أبي أوفى، هل رأيت إبراهيم ابن النبي ـ ﷺ ـ؟ قال: نعم، كان أشبه الناس به، مات وهو صغير.

وقد توفي وهو ابن ثمانية عشر شهراً على الأرجح، ودخل عليه النبي ـ ﷺ ـ وهو يجود بنفسه فجعلت عيناه تذرفان، وقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون[3].

وغسله الفضل بن عباس، ونزل في قبره مع أسامة بن زيد، ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس على شفير القبر[4] وصلَّى عليه النبي ـ ﷺ ـ وكبر أربع تكبيرات[5].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٤٦٤).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب حاشية الإصابة (١/ ٤٤).
(٥) الإصابة (١/ ٩٤).

ولما أرادوا دفنه قالوا: يا رسول الله، أين نحفر له؟ قال: عند فرطنا عثمان بن مظعون[1].

ووافق موته أن انكسفت الشمس، فقال قوم: إن الشمس انكسفت لموته، فخطبهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة[2].

وفي البخاري فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي[3].

ولما تمّ دفنه، ووضع في اللحد، ورصف عليه اللبن، بصر رسول الله ـ ﷺ ـ بفرجة من اللبن، فأخذ بيده مدرة وناولها رجلاً فقال: ضعها في تلك الفرجة.

ثم قال: أما إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر بعين الحي.

ورش النبي ـ ﷺ ـ على قبره، وحثا عليه بيده من التراب، وقال حين فرغ من دفنه عند رأسه: السلام عليكم[4].

وكانت وفاته ـ عليه السلام ـ في شهر ربيع الأول أو في رمضان من السنة العاشرة من الهجرة[5].

٤ ـ **الحسن بن علي**: بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، سبط رسول الله ـ ﷺ ـ وريحانته، أمير المؤمنين أبو محمد، ولد في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وهو الأثبت.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يشبه جده رسول الله ـ ﷺ ـ وقال فيه هو وأخوه

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٩٢).
(٢) رواه البخاري باب الدعاء في الخسوف.
(٣) رواه البخاري باب الدعاء في الخسوف.
(٤) وفاء الوفا (٣/ ٨٩١).
(٥) الإصابة (١/ ٩٥).

الحسين: هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما[1].

ويوم سابعة عق عنه رسول الله ـ ﷺ ـ بكبش، وحلق رأسه، وأمر أن يتصرف بزنته فضة[2].

وقال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ: إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان ما توقعه ـ ﷺ ـ وجرى الصلح على يديه ـ رضي الله عنه ـ مع معاوية، وتنازل له عن الخلافة، ليحقن دماء المسلمين.

وجلس جماعة من الصحابة يذكرون أشبه الناس برسول الله ـ ﷺ ـ فدخل عليهم عبد الله بن الزبير فقال: أنا أحدثكم بأشبه أهله به، وأحبهم إليه، الحسن بن علي، رأيته يجيء وهو ساجد فيركب رقبته أو قال: ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته يجيء وهو راكع، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[3].

ولما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية: قم فاخطب الناس، واذكر ما كنت فيه، فقام الحسن فخطب فقال: الحمد لله الذي هدى بنا أولكم، وحقن بنا دماء آخركم، ألاَ إنَّ أكيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية، إما أن يكون كان أحق به مني، وإما أن يكون حقي فتركناه لله ولصلاح أمة محمد ـ ﷺ ـ وحقن دمائهم، قال: ثم التفت إلى معاوية فقال: وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين[4].

وعاش ـ رضي الله عنه ـ بعد تنازله لمعاوية عشر سنين، ومات سنة تسع

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) الاستيعاب حاشية الإصابة (١/ ٣٦٩).
(٣) رواه أحمد في المسند.
(٤) الاستيعاب حاشية الإصابة (١/ ٣٧٤).

وأربعين، وقيل سنة خمسين، ويشاع أنه ـ عليه السلام ـ مات مسموماً، وسأله أخوه الحسين ـ عليه السلام ـ عمن سقاه السم فأبى أن يخبره.

وكانت وفاته بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع. روى الواقدي عن ثعلبة بن أبي مالك قال: شهدت الحسن يوم مات ودفن بالبقيع، فرأيت البقيع ولو طرحت فيه إبرة ما وقعت إلاَّ على رأس إنسان[1].

٥ ـ **خُنيس بن حذافة**: بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي، كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وهو ممن شهد بدراً، ويوم أحد أصيب بجراحة، فكانت سبب موته[2].

وهو زوج السيدة حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ فلما توفي تزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت وفاته بالمدينة، ودفن بالبقيع عند عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[3].

٦ ـ **عثمان بن عفان**: بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أمير المؤمنين أبو عبد الله، وأمه أروى بنت كريز، أسلمت وحسن إسلامها، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ ﷺ ـ.

ولد بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، وهو من السابقين الأولين، أسلم على يد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ ولما سئل علي بن أبي طالب عنه قال: ذاك رجل يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، وذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ زوجه ابنته رقية، فلما توفيت زوجه ابنته أم كلثوم فسمي ذا النورين لأنه تزوج ابنتي رسول الله.

شهد له رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنة، وبشره بها، كما بشره بالشهادة، فهو من العشرة المبشرين بالجنة، وله مواقف عديدة في خدمة الإسلام والمسلمين

---

(١) الإصابة (١/ ٣٣١).

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٩٠٠).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٠٠).

منها تجهيز جيش العسرة، وفيه قال الرسول ـ ﷺ ـ: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»[1].

ومنها شراء بئر رومة، وتصدق بها على المسلمين، ومنها ذهابه إلى أهل مكة مبعوثاً عن رسول الله يوم الحديبية، إلى غير ذلك من المواقف الشهيرة.

وهو أول من هاجر إلى الحبشة، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ـ ﷺ ـ هاجر الهجرتين الأولى والثانية، وقال فيهما رسول الله ـ ﷺ ـ: إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد لوط[2].

وتآمر عليه أعداء الإسلام، بقيادة عبد الله بن سبأ اليهودي، وقتلوه وهو يقرأ القرآن، وكان ذلك في سنة خمس وثلاثين هجرية، يوم الجمعة بعد العصر ثمانية عشرة من ذي الحجة، وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، ودفن في بستان اسمه حش كوكب، كان قد اشتراه ـ رضي الله عنه ـ ليوسع به البقيع[3].

٧ ـ **عبد الرحمن بن عوف**: بن عبد عوف بن عبد الحُرث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ويكنى أبا محمد، هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وهو عنهم راض، وهم الستة الذين رشحهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ليختاروا من بينهم الخليفة، فلما اجتمعوا فوض إليه المجتمعون أمر اختيار الخليفة، وظل ـ رضي الله عنه ـ يبذل، ويستقصي آراء من فوضوه، حتى استقر الرأي على اختيار عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأعلنه عبد الرحمن على ملأ من الصحابة.

ولد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنوات، وأمه الشفاء بنت عوف، وكان اسمه عبد عَمرو في الجاهلية، فلما أسلم سماه الرسول ـ ﷺ ـ

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٥٥).
(٣) الإصابة (١/ ٤٦٣).

عبد الرحمن، وهو من السابقين الأولين، فقد أسلم قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم[1].

وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وفيها آخى الرسول بينه وبين سعد بن الربيع، وقال له سعد: هذا مالي فأنا أقاسمكه، ولي زوجتان فأنا أنزل لك عن إحداهما.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك، ولكن إذا أصبحت فدلوني على سوقكم، فدلوه، فخرج فرجع معه بحميت من سمن وأقط قد ربحه[2] ـ والحميت من السمن الخالص غير المغشوش ـ.

وشهد عبد الرحمن المشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ وبعثه الرسول إلى دومة الجندل ففتحها، وأذن له في أن يتزوج بنت ملكهم الأصبغ بن ثعلبة الكلبي، فتزوجها وهي تماضر التي أنجب منها ولده أبا سلمة[3].

وكان ـ رضي الله عنه ـ تاجراً ماهراً، يعرف كيف يتعامل في الأسواق، حتى قال عن نفسه: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة[4].

وقال الزهري: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة[5].

وهو أحد الرجلين اللذين ائتم بهما رسول الله ـ ﷺ ـ أما الأول فأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وعبد الرحمن بن عوف هو الرجل الثاني، روى المغيرة بن شعبة أن عبد الرحمن بن عوف تقدم وصلّى بالناس ـ وكان الرسول

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٤).

(٢) الحديث رواه البخاري ونقله بمعناه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٢٥).

(٣) الإصابة (٢/ ٤١٦).

(٤) الطبقات (٣/ ١٢٦).

(٥) الإصابة (٢/ ٤١٦).

في حاجته ـ فلما حضر وجد الصلاة قد أقيمت، وصلَّى عبد الرحمن بالناس ركعة، قال: فصلينا الركعة التي أدركنا، وقضينا التي سبقتنا.

وقال النبي ـ ﷺ ـ حين صلَّى خلف عبد الرحمن بن عوف: ما قبض نبي قط حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته[1].

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ سنة اثنتين وثلاثين على الأصح وعمره حينئذ اثنتان وسبعون سنة، وكانت وفاته بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع، وصلَّى عليه عثمان بن عفان، وقيل الزبير بن العوام ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وكان قد أوصى لكل من شهد بدراً بأربعمائة دينار، فكانوا مائة رجل، وأعتق قبل وفاته ثلاثين ألف نسمة[2].

وذكر ابن سعد أنه أوصى في سبيل الله بخمسين ألف دينار[3].

روى ابن زبالة عن حميد بن عبد الرحمن قال: أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت، أن هلم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وإلى أخويك.

فقال: ما كنت مضيقاً عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أيَّنا مات دفن إلى جانب صاحبه.

قالت: فمرُّوا به عليَّ، فمروا به عليها فصلت عليه.

وكان من وصيته أنه إذا مات بالمدينة أن يدفن إلى جانب عثمان بن مظعون، فلما مات دفن هناك[4].

٨ ـ **سعد بن أبي وقاص**: الوقَّاص في اللغة شبكة يصاد بها الطير، واسم أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وكنيته

---

(١) الطبقات (٣/ ١٢٩).
(٢) الإصابة (٢/ ٤١٧).
(٣) الطبقات (٣/ ١٣٦).
(٤) وفاء الوفا (٣/ ٨٩٩).

أبو إسحاق، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي[1].

وكان ـ ﷺ ـ يعتز بقرابته منه، روى ابن سعد عن جابر بن عبد الله قال: أقبل سعد ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس فقال: «هذا خالي فلْيُرِنْي امرأ خالُه»[2].

وفي رواية الترمذي (هذا خالي فليرني امرؤٌ خاله).

وسعد ـ رضي الله عنه ـ من السابقين في الإسلام حتى قال: لقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام[3] وقال ـ رضي الله عنه ـ ما أسلم رجل قبلي إلاَّ رجل أسلم في اليوم الذي أسلمت فيه، وعن عائشة بنت سعد قالت: سمعت أبي يقول، وأسلمت وأنا ابن سبع عشرة سنة[4].

وهو أول من أراق دماً في الإسلام؛ روى ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كانوا يصلون بمكة مستخفين، فبينا سعد في شعب مع أصحابه يصلون، إذ رآهم المشركون فعابوا عليهم دينهم وسفهوهم وقاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام.

وشهد مع الرسول ـ ﷺ ـ المشاهد كلها، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وذلك حين خرج في سرية عبيدة بن الحارث يلقى عير قريش، فتراموا بالسهام، فكان سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله، وقال في ذلك شعراً:

ألا هل جا رسول الله أني ... حميت صحابتي بصدور نبلي

أذود بها عدوهم ذيادا ... بكل حزونة وبكل سهل

فما يعتد رام من معد ... بسهم في سبيل الله قبلي[5]

---

(١) الطبقات (٣/ ١٣٧).

(٢) الطبقات (٣/ ١٣٧).

(٣) رواه البخاري.

(٤) الطبقات (٣/ ١٣٩).

(٥) الإصابة (٢/ ٣٤).

وهو أول من جمع له الرسول ـ ﷺ ـ أبويه، وذلك حين قال له يوم أحد: ارم سعد فداك أبي وأمي[1]. والرجل الثاني الذي جمع له الرسول ـ ﷺ ـ أبويه: الزبير بن العوام[2].

وكان ـ رضي الله عنه ـ مستجاب الدعوة، حتى كان الناس يخافون دعوته ويرجونها، وذلك لأن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا له فقال: اللهم استجب لسعد إذا دعاك، وفي رواية: اللهم أجب دعوته، وسدد رميته. وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً.

فلما كانت الفتنة التي وقعت بين المسلمين كان له منها موقف يعتبر نموذجاً يجب أن يحذو المسلمون حذوه، وذلك أنه اشترى أرضاً مواتاً فاعتزل فيها هو وأهله، وأمر أهله ألا يخبروه بشيء من خبر الناس حتى تجتمع الأمة على إمام.

وجاءه هاشم ابن أخيه عتبة، يخبره بأن أكثر المسلمين يرغبون خلافته، ويقدمونه على غيره وقال له: ههنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر.

فقال ـ رضي الله عنه ـ: أريد منها سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع[3].

وعند ابن سعد لما قيل له: ما يمنعك من القتال؟
قال: حتى تأتوني بسيف يعرف المؤمن من الكافر[4].

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ست وخمسين من الهجرة على الأرجح، فلما حضرته الوفاة طلب جبة له صوفٍ خَلِقَةٍ، وقال: كفنوني فيها، فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي، وإنما كنت أخبئها لذلك[5].

---

(١) رواه البخاري في غزوة أحد.
(٢) الاستيعاب حاشية الإصابة (٢/ ٢٠).
(٣) الإصابة (٢/ ٣٣).
(٤) الطبقات (٣/ ١٤٤).
(٥) الاستيعاب حاشية الإصابة (٢/ ٢٦).

ومات بقصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، وحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة، وصلّى عليه مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية، ودفن بالبقيع[1].

٩ ـ أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر، والأبجر هو خدرة الذي نسب إليه، وهو أنصاري خزرجي.

عرض يوم أحد وكان صغيراً، فلم يكن ضمن المحاربين، وأول مشاهدة مع رسول الله ـ ﷺ ـ غزوة الخندق، وعدد غزواته مع رسول الله اثنتا عشرة غزوة[2].

وكان ـ رضي الله عنه ـ من أفقه أحداث الصحابة، وروى عن رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً من الأحاديث. روى ابن سعد من طريق حنظلة بن سفيان الجمحي عن أشياخه قال: لم يكن أحد من أحداث أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أفقه من أبي سعيد الخدري.

وفي يوم الحرة خرج من المدينة، ودخل غاراً، فدخل عليه شامي، فقال: اخرج.

فقال: لا أخرج، وإن تدخل عليّ أقتلك، فدخل عليه، فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ بإثمك.

قال الشامي: أنت أبو سعيد الخدري؟

قال: نعم.

قال: فاستغفر لي[3].

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قتل أبي يوم أحد شهيداً، وتركنا

---

(١) الاستيعاب حاشية الإصابة (٢/ ٢٥).
(٢) نفسه (٢/ ٤٧).
(٣) الإصابة (٢/ ٣٥).

بغير مال، فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ أسأله، فحين رآني قال: من استغنى أغناه الله، ومن يستعفف يعفه الله، فرجعت[1].

ولما سمع ـ رضي الله عنه ـ الحديث، لا يمنعن أحدَكم مخافةُ الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه، قال أبو سعيد: فحملني ذلك على أن ركبت إلى معاوية، فملأت أذنيه ثم رجعت[2].

يقول ابن عبد البر: وكان ممن حفظ عن رسول الله ـ ﷺ ـ سنناً كثيرة، وروى عنه علماً جمّاً، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم، توفي سنة أربع وسبعين، روى عنه جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين[3].

روى السمهودي عن ابن شبة عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: قال لي أبي: يا بني إني قد كبرت، وذهب أصحابي، وحان مني، فخذ بيدي، فأخذت بيده حتى جئت البقيع فجئت أقصى البقيع مكاناً لا يدفن فيه، فقال: يا بني، إذا هلكت فاحفر لي ههنا، لا تبك عليَّ باكية، ولا يضربن عليَّ فسطاط، ولا يُمشى معي بنار، ولا تؤذنن أحداً، واسلك بي زقاق عمقة، وليكن مشيك بي خبباً.

وفي رواية يقول عبد الرحمن: فيأتيني الناس، متى يخرج؟ فأكره أن أخبرهم لما قال لي، فأخرجته صدر النهار، فأتيت البقيع وقد ملىء ناساً[4].

١٠ ـ عبد الله بن مسعود: بن غافل بن حبيب بن شمْخ بن فأر بن مخزوم، وكنيته أبو عبد الرحمن حالف بني زهرة في الجاهلية، وأمه أم عبد بنت عَبْدِ وِدٍّ.

ويحدث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن أول لقاء له بالنبي ـ ﷺ ـ

---

(١) الإصابة (٢/ ٣٥).
(٢) الإصابة (٢/ ٣٥).
(٣) الاستيعاب حاشية الإصابة (٢/ ٤٧).
(٤) وفاء الوفا (٣/ ٩١٥).

فيقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وقد فرّا من المشركين فقالا: يا غلام، هل عندك من لبن تسقينا؟

فقلت: إني مؤتمن، ولست ساقيكما.

فقال النبي ـ ﷺ ـ: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل؟

قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبي، ومسح الضرع ودعا فحفَّل الضرع ثم أتاه أبو بكر بصخرة متقعرة، فاحتلب فيها، فشرب أبو بكر، ثم شربت.

ثم قال للضرع: اقْلِص فقلص.

فأتيته بعد ذلك فقلت: علمني من هذا القول.

قال: إنك غلام معلَّم، فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[1].

وعند ابن عبد البر أن ابن مسعود لما قال للنبي ـ ﷺ ـ: علمني من هذا القول. مسح رسول الله رأسه وقال: يرحمك الله، فإنك غليم معلم[2].

وابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من السابقين إلى الإسلام، وحدث عن نفسه فقال: لقد رأيتني سادس ستة، وما على الأرض مسلم غيرنا[3]. أسلم قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم[4].

وهو أول من جهر بالقرآن الكريم في مكة، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ في قراءته: من سرَّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد[5].

---

(١) الطبقات (٣/ ١٥٠).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٣١٧).
(٣) الإصابة (٢/ ٣٦٩).
(٤) الطبقات (٣/ ١٥١).
(٥) الإصابة (٢/ ٣٦٩).

هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ وقطع عنق أبي جهل في غزوة بدر بعد أن ضربه ابنا عفراء بسيفيهما فأثبتاه.

وضمّه الرسول ـ ﷺ ـ إلى نفسه، فكان يستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويحمل نعليه إذا جلس، ويدخلهما في ذراعه، فإذا أقام ألبسه نعليه، ومشى أمامه بالعصا حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ـ ﷺ ـ[1].

وكان ـ رضي الله عنه ـ قليل الصيام، فلما سئل عن ذلك قال: إني أختار الصلاة عن الصوم، فإذا صمت ضعفت عن الصلاة[2].

كان عبد الله رجلاً قصيراً نحيفاً، وكان أحمش الساقين، أمره النبي ـ ﷺ ـ أن يصعد شجرة، فيأتيه بشيء منها، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه، فضحكوا منها.

فقال النبي: ما تضحكون! لَرِجْلُ عبد الله يوم القيامة في الميزان أثقل من أُحُد[3].

ويروي ابن عبد البر أن النبي ـ ﷺ ـ أتى بين أبي بكر وعمر، وعبد الله بن مسعود يصلي، فافتتح بالنساء، فقال النبي ـ ﷺ ـ: من أحب أن يقرأ القرآن غضّاً كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد[4].

فلما انتهى عبد الله من صلاته قعد يسأل الله من فضله، فقال النبي ـ ﷺ ـ: سل تعطه، فقال ابن مسعود فيما سأل: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك سيدنا محمد في أعلى جنة الخلد.

فاستجاب الله له، وأخبر النبي ـ ﷺ ـ أن ابن مسعود من أهل الجنة، وذكره ضمن العشرة المبشرين بها. روي عن سعيد بن زيد قال: كنا مع رسول

---

(١) الطبقات (٣/ ١٥٣).
(٢) الطبقات (٣/ ١٥٦).
(٣) الطبقات (٣/ ١٥٦).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٣٢٠).

الله ـ ﷺ ـ على حراء فذكر عشرة في الجنة: أبو بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن مالك (أبي وقاص)، وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود.

فأتى عمر عبد الله بن مسعود يبشره، فوجد أبا بكر خارجاً قد سبقه، فقال عمر: إن فعلت لقد كنت سباقاً للخير[1].

قال فيه النبي ـ ﷺ ـ: لو كنت مؤمراً أحداً بغير مشورة، لأمرت ابن أم عبد[2].

وشهد عبد الله فتوح الشام، وبعثه عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى الكوفة مع عمار بن ياسر، فكان عمار أميراً، وابن مسعود معلماً، وكتب عمر إلى أهل الكوفة، إني والله الذي لا إله إلاَّ هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه[3].

ولما استقدمه عثمان ـ رضي الله عنه ـ في خلافته إلى المدينة، قال له أهل الكوفة وقد أحبوه وتعلقوا به: أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيئاً تكرهه.

فقال: إن له عليَّ حق الطاعة، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتن[4].

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وعمره بضع وستون سنة، وكانت وفاته بالمدينة، وصلَّى عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ واستغفر كل منهما لصاحبه قبل أن يموت عبد الله، ودفن بالبقيع ليلاً عند قبر عثمان بن مظعون حسب وصيته[5].

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٣٢٠).
(٢) الإصابة (٢/ ٣٦٩).
(٣) الطبقات (٣/ ١٥٧).
(٤) الإصابة (٢/ ٢٧٠).
(٥) الطبقات (٣/ ١٥٩، ١٦٠).

١١ ـ **سعد بن معاذ**: بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وكنيته أبو عمرو، وأمه كبشة بنت رافع بن معاوية، وهي ممن بايع النبي ـ ﷺ ـ.

وكان إسلامه هو وأسيد بن حضير على يد مصعب بن عمير، وذلك لما أرسله النبي ـ ﷺ ـ يعلم أهل المدينة الإسلام ويفقههم في الدين.

فلما أسلم سعد أسلم بإسلامه جميع بني عبد الأشهل، فكانت دارهم أول دار من الأنصار أسلموا جميعهم رجالهم ونساؤهم.

ومنذ أسلم ـ رضي الله عنه ـ حول مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى داره، فأخذا يدعوان الناس إلى الإسلام في دار سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ وكان هو وأسعد بن زرارة ابني خالة[١].

شهد بدراً وأحداً والخندق، وفي غزوة الخندق رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب أكحله (عرق في ذراعه) وقال وهو يرميه: خذها وأنا ابن العرقة، فقال رسول الله: عرق الله وجهه في النار[٢].

ودعا الله سعدٌ فقال: اللهم لا تمتني حتى تشفيني من قريظة، وضرب له الرسول ـ ﷺ ـ خيمة في المسجد يمرض فيها، وليزوره عن قرب، وكانت التي تُمَرِّضُهُ امرأة من الأنصار اسمها رفيدة الأسلمية الأنصارية.

وقد استجاب الله دعوته، فعاش حتى حكم في بني قريظة، فحكم بقتل المقاتلين وسبي النساء والذرية، وقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لقد حكمت فيهم بحكم الله[٣].

ومات ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك بأيام سنة خمس من الهجرة، فلما

---

(١) الطبقات (٣/ ٤٢٠).

(٢) الاستيعاب (٢/ ٢٧).

(٣) رواه البخاري.

حملت جنازته قال المنافقون: ما أخفها! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الملائكة حملته[1].

وفي الصحيحين قال رسول الله ـ ﷺ ـ: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ.

روى ابن عبد البر من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: نزلت الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض قبل، وقال في حلة سيراء رآها، لمنديل من مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها، ونزل جبريل في جنازته معتجراً بعمامة من استبرق[2].

وكان عمره ـ رضي الله عنه ـ يوم وفاته سبعاً وثلاثين سنة، ودفن بالبقيع[3] بعد أن صلّى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ.

وبكته أمه ـ رضي الله عنهما ـ فقالت:

ويلُ أم سعد سعداً حزامة وجِدّا

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كل نائحة تكذب إلاّ أم سعد[4].

١٢ ـ العباس بن عبد المطلب: بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمي القرشي، عم رسول الله ـ ﷺ ـ، وأمه نتيلة بنت جناب، وكنيته أبو الفضل.

ولد قبل عام الفيل بثلاث سنوات، وأسلم مبكراً غير أنه كان يخاف أن يظهر إسلامه. روى ابن سعد عن ابن عباس قال: قد كان من كان منا بمكة من بني هاشم قد أسلموا، فكانوا يكتمون إسلامهم، ويخافون يظهرون ذلك

---

(١) الإصابة (٢/ ٣٧).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٣١، ٣٢).
(٣) الطبقات (٣/ ٤٣٣).
(٤) نفسه (٣/ ٤٢٨).

فرقاً من أن يثب عليهم أبو لهب وقريش، فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة وغيرهما.

فلذلك قال النبي ـ ﷺ ـ لأصحابه يوم بدر: من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان فلا تقتلوهم، فإنهم أخرجوا مكرهين[1].

وكان ـ رضي الله عنه ـ في الجاهلية رئيساً، وإليه كانت عمارة البيت الحرام والسقاية، فكان لا يدع أحداً يقول فحشاً في المسجد الحرام، وكان يحملهم على عمارته بالخير، ولا يستطيعون لذلك امتناعاً، وكان الملأ من قريش يعينونه على ذلك[2].

حضر مع رسول الله ـ ﷺ ـ بيعة العقبة الأخيرة ليستوثق لابن أخيه ممن جاؤوا يبايعونه من أهل المدينة، وشهد بدراً مع المشركين، وأسر فيها، وأمر الرسول بعدم قتله لأنه خرج مكرهاً، وافتدى نفسه وابن أخيه عقيلاً[3].

ولما أسر في معركة بدر شدوا وثاقه، فكان يئن ويتوجع، ورسول الله يسمع ذلك، فذهب عنه النوم، فسأله أحد الصحابة، لمَ لمْ تنم يا رسول الله؟

قال: أقلقني أنين العباس، فذهب الرجل، فأرخى وثاقه، فكف عن الأنين.

فقال الرسول: ما لي لا أسمع أنين العباس؟

فقال الرجل: أنا أرخيت من وثاقه.

فقال الرسول ـ ﷺ ـ: فافعل ذلك بالأسرى كلهم[4].

وكان بقاؤه في مكة من مصلحة المسلمين، حيث كان يكتب لرسول الله ـ ﷺ ـ أخبار قريش كما حدث في غزوة أحد وغزوة الخندق.

---

(١) الطبقات (٤/ ١٠، ٣١).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٩٤).

(٣) الإصابة (٢/ ٢٧١).

(٤) الاستيعاب (٣/ ٩٥).

وهاجر قبل فتح مكة بقليل، وحضر مع رسول الله ـ ﷺ ـ فتح مكة وحنين، وكان ممن ثبت يوم حنين[1].

وكان وجوده في مكة قوة للمسلمين، وظل مقيماً بمكة بالرغم من أنه كان يحب أن يلحق برسول الله ـ ﷺ ـ في المدينة، حتى كتب له النبي: إن مقامك بمكة خير[2].

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا قحط الناس استسقى بالعباس فيسقون، وكان هو وعثمان بن عفان إذا مرَّ بهما العباس وهما راكبين نزلا احتراماً وإجلالاً له، ويقولان: عم رسول الله ـ ﷺ ـ وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعظمه ويحترمه، ويقول: هذا عمي وصنو أبي، هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفًّا، وأوصلها رحماً[3].

وكان بينه وبين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قول، غلب العباس فيه عمر، فجاء عمر إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: ألم تر إلى عباس فعل بي كذا وكذا وفعل، فأردت أن أجيبه فذكرت مكانه منك فكففت عنه؟

فقال رسول الله: يرحكم الله! إن عم الرجل صنو أبيه، وفي رواية: إنما العباس صنو أبي، فمن آذى العباس فقد آذاني[4].

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل من رمضان، سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وكان عمره حينئذ ثمانياً وثمانين سنة[5].

ولما توفي أرسل بنو هاشم رسولاً على حمار إلى قباء يعلم الناس بوفاته، كذلك أرسل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ رسولاً

---

(١) الإصابة (٢/ ٢٧١).
(٢) الاستيعاب حاشية الإصابة (٣/ ٩٦).
(٣) نفسه (٣/ ٩٧).
(٤) الطبقات (٤/ ٢٧).
(٥) الاستيعاب (٣/ ١٠٠).

آخر يؤذن بموت العباس، كما أرسل عثمان رسولاً آخر إلى أطراف الحرة الغربية على بُعد عشرة أميال من المدينة يخبر الناس بوفاة العباس، وغسله علي بن أبي طالب وأولاده عبد الله وعبيد الله وقُثَم[1].

فاجتمع الناس من كل حدب وصوب، وكثروا كثرة عظيمة حتى ضاقت بهم المصلى، فتقدموا به ـ رضي الله عنه ـ إلى البقيع، يقول الراوي: ولقد رأيتنا يوم صلينا عليه بالبقيع وما رأيت مثل ذلك الخروج على أحد من الناس قط، وما يستطيع أحد من الناس أن يدنو إلى سريره، وغلب عليه بنو هاشم، فلما انتهوا إلى اللحد ازدحموا عليه، وأرى عثمان اعتزل، وبعث الشُّرَطَ يضربون الناس عن بني هاشم حتى خلص بنو هاشم.

فكانوا هم الذين نزلوا في حفرته ودلّوه في اللحد، قال الراوي: ولقد رأيت على سريره بُرد حِبَرَه قد تقطع من زحامهم[2].

وصلَّى عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ودفن بالبقيع في مقبرة بني هاشم.

١٣ ـ عبد الله بن جعفر: بن أبي طالب القرشي الهاشمي، وكنيته أبو جعفر، وأمه أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنهما ـ ولدته بأرض الحبشة أثناء هجرتهم إليها، وهو أول مولود في الإسلام في أرض الحبشة، ورجع جعفر وأسماء ومعهما أولادهما عبد الله ومحمد وعون من الحبشة متوجهين إلى المدينة، فوصلوا إليها بعد فتح خيبر.

وفي غزوة مؤتة كان جعفر بن أبي طالب أحد الأمراء الثلاثة الذين استشهدوا فيها وكان عبد الله ـ رضي الله عنه ـ حين استشهد أبوه صغيراً، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعطف عليه كثيراً، مرَّ به وهو يلعب، وكان رسول الله راكباً دابة فحمله أمامه[3].

---

(١) الطبقات (٤/ ٣٢، ٣٣).

(٢) الطبقات (٤/ ٣٢، ٣٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

وقال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ: وأما عبد الله فيشبه خَلقي وخُلقي، ثم أخذ بيده فقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، ثم قال: وأنا وليهم في الدنيا والآخرة[1].

توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وعمر عبد الله بن جعفر عشر سنين، وكان من أشهر أجواد العرب حتى سموه قطب السخاء، قال ابن عبد البر: ولم يكن مسلم يبلغ مبلغه من الجود[2].

مدحه نصيب الشاعر فأعطاه إبلاً وخيلاً وثياباً ودنانير ودراهم، فقيل له: تعطي لهذا الأسود مثل هذا؟

فقال: إن كان أسود فشِعره أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلاَّ ما يبلى ويفنى، وأعطانا مدحا يُروى وثناء يبقى؟[3].

كلفه أحد الدهاقين بأمر فقضاه له، فأرسل إليه الدهقان أربعين ألفاً فردها عبد الله وقال: إنا لا نبيع معروفاً، واشترى أحد التجار سكراً، وجلبه إلى المدينة، فكسد عليه ولم يبعه، وعلم عبد الله بذلك فأمر قهرمانه أن يشتريه، ويفرقه في الناس.

وأرسل إليه يزيد بن معاوية مالاً جليلاً هدية، ففرقه عبد الله في أهل المدينة، ولم يُدخل بيته منه شيئاً، وحكايات المؤرخين عنه في الكرم كثيرة لا تحصى.

ولما عوتب في الكرم الذي قد يصل إلى حد الإسراف المذموم اعتذر بأن الله عوده عادة وهو عود الناس عادة وقال: وأنا أخاف إن قطعتها قطعت عني[4].

---

(١) الإصابة (٢/ ٢٨٩).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٢٧٧).
(٣) الاستيعاب (٢/ ٢٧٧).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٢٧٧).

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة سنة خمس وثمانين من الهجرة وهو ابن تسعين سنة، وصلَّى عليه أبان بن عثمان بن عفان وهو أمير المدينة لعبد الملك بن مروان، ودفن بالبقيع ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

١٤ ـ مالك بن أنس: بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي المدني إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة المتبعة، وكنيته أبو عبد الله.

ولد ـ رحمه الله ـ سنة خمس وتسعين من الهجرة في المدينة المنورة، وأخذ القرآن عرْضاً عن نافع بن أبي نعيم، كما أخذ العلم عن شيخه ربيعة الرأي، وكان ربيعة فقيه أهل المدينة في زمانه والمفتي بين يدي السلطان، وقد نهل مالك ـ رضي الله عنه ـ من علم ربيعة حتى كان يفتي معه عند السلطان.

يقول مالك: قلَّ رجل كنت أتعلَّم منه ومات، حتى يجيئني ويستفتيني[١].

وأثنى عليه المحدثون، فقال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر.

وقال سفيان بن عيينة: ما كان أشد انتقاده للرجال، وقال يحيىٰ بن معين: كل من روى عنه مالك فهو ثقة إلاَّ أبا أمية، وقال الشافعي: إذا جاء الحديث فمالك النجم، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك[٢].

وقال ابن وهب: سمعت منادياً ينادي بالمدينة، ألا لا يفتي الناس إلاَّ مالك بن أنس وابن أبي ذئب[٣].

كان الإمام ـ رحمه الله ـ إذا أراد أن يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ تنظف وتطيب، وسرح لحيته، ولبس أحسن ثيابه، وكان يلبس الملابس الحسنة.

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ١٣٥).
(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١٧٤).
(٣) الوفيات (٤/ ١٣٥).

وكان منزله مفروشاً بأنواع المفارش الفاخرة، وكان إذا دخل منزله يقول: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله، ونقش خاتمه: حسبي الله ونعم الوكيل[1].

ولما سئل عن استعداده للحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ على هذه الصفة قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله، ولا أحدث به إلاَّ متمكناً على طهارة؛ وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً.

ويقول في ذلك: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ـ ﷺ ـ[2].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يعظم المدينة، ويلزم نفسه فيها بآداب يراها أحق بها، من ذلك أنه كان لا يركب دابة في المدينة مع ضعفه وحاجته إلى الركوب، ويقول: لا أركب في مدينة فيها جثَّة رسول الله ـ ﷺ ـ مدفونة.

بالرغم من أنه ـ رضي الله عنه ـ لم يفْتِ حتى شهد له سبعون عالماً بأنه أهل للإفتاء، إلاَّ أنه كان في آخر حياته نادماً على ما أفتى به، حكى الحميدي أن القعنبي قال: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟

قال: فقال لي: يا ابن قعنب، وما لي لا أبكي؟ ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم أفت بالرأي[3].

ومع ذلك كان ـ رضي الله عنه ـ غزير العلم، لم يكن له مثيل في حال حياته، وقد روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة، وقد فسره ابن عيينة فقال: هو مالك بن أنس[4].

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٧٤).
(٢) الوفيات (٤/ ١٣٦).
(٣) الوفيات (٤/ ١٣٦).
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٧٤).

وسعى به الواشون ـ وما أكثرهم في كل عصر ـ إلى جعفر بن سليمان، وهو ابن عم أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، وقالوا له: إن مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء.

فغضب جعفر، واشتد غيظه، وليس هناك ما يغيظ ذوي السلطان أكثر من فضح باطلهم والمساس بسلطانهم، لهذا استدعى جعفر بن سليمان مالكاً، وجرده من ثيابه، وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت من كتفه.

وقد وضح ابن الجوزي سبب ضربه حيث قال في سنة سبع وأربعين ومائة: وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطاً، لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان[1].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يأتي المسجد، ويجلس فيه، ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز، وكان يعود المرضى، ويقضي الحقوق، ويجتمع عليه أصحابه وهو في مجلسه في المسجد.

ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه، وترك حضور الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله، فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد، ولا الجمعة، ولا يأتي أحداً يعزيه، ولا يقضي له حقاً.

يقول الواقدي: واحتمل الناس له ذلك حتى مات عليه، وكان ربما قيل له في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره[2].

وقد ذكر في تعليل ذلك مرض أصاب الإمام ـ رضي الله عنه ـ وهو سلس البول، وكان رأيه أنه لا يجوز أن يجلس في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على غير طهارة، وكان يرى أن ذلك استخفاف بحرمة المسجد النبوي

---

(١) الوفيات (٤/ ١٣٧).
(٢) نفسه (٤/ ١٣٦).

الشريف[1]، وسلس البول مرض يبيح لصاحبه ترك الجمعة والجماعات وغيرها من الطاعات.

ولكن ابن كثير ـ رحمه الله ـ كان يرى أن السبب الذي دعا الإمام إلى ترك الجمعة والجماعة ومخالطة الناس، سبب سياسي، حيث يقول: ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن (المعروف بالنفس الزكيّة) لزم مالك بيته، فلم يكن يأتي أحد لا لعزاء ولا لهناء[2].

ومن المعلوم أن محمد بن عبد الله بن حسن، خرج على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور واتخذ المدينة مقراً له، وظل بها حتى قتل في رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، أي قبل وفاة الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ بأربع وثلاثين سنة.

ومعنى ذلك أن الإمام مالكاً ـ رضي الله عنه ـ ظل بعيداً عن الجمعة والجماعات، والاختلاط بالناس هذه المدة الطويلة المذكورة وهي أربع وثلاثون سنة.

وهذا مستبعد عقلاً، وإني أرجح أن يكون خروج محمد بن عبد الله بن حسن على الخلافة، وإعلان إمامته، وطلب البيعة لنفسه، قد تسبب في انقطاع الإمام عن مخالطة الناس وبخاصة بعد أن قتل، وظل الإمام مواظباً على الجمعة والجماعات وتعزية الناس وتهنئتهم في بيوتهم دون أن يشترك في مظاهر جماعية، لاستبعاد الشبهة، وعدم إثارة الفتنة.

ونحن قد علمنا أنه ـ رضي الله عنه ـ جلد سبعين جلدة، ومُدَّ ذراعه حتى انخلع من كتفه سنة سبع وأربعين ومائة، أي بعد قتل محمد بن عبد الله بن حسن بسنتين.

فلما أصابه سلس البول انقطع عن حضور الجمعة والجماعة، وكان اجتماع السببين مبررا للإمام أن يعتزل الناس تماماً والله أعلم.

---

(١) حاشية الوفيات (٤/ ١٣٦).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١٧٤).

وتوفي الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ إمام دار الهجرة في شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، وكان عمره أربعاً وثمانين سنة، وكانت وفاته بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع[1].

هذه هي قبور الرجال المعروفة في البقيع، والتي يمكن تحديدها الآن، والوقوف على أعيانها كما ذكره الثقاة من المؤرخين الذين زاروا المدينة، وشاهدوا البقيع وحددوا فيه أماكن هذه القبور.

وقد ذكر بعض المؤرخين أسماء رجال من السلف ـ رضوان الله عليهم ـ وقالوا إنهم مدفونون بالبقيع، حتى زعم بعضهم أن رأس الحسين، وجثة علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ مدفونان بالبقيع، وهذا مما لم يثبت تاريخياً، ولم يقل به أحد من المحققين، والثابت أن رأس الحسين بن علي ـ رضي الله عنه ـ مدفون دون أن يحدَّد له مكان معين، وأما علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ فالثابت المحقَّق أنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة، وأخفي قبره حتى لا ينبشه الخوارج.

وفي البقيع عدا ما ذكر شهداء الحرة، وهم الذين استشهدوا في معركة الحرة التي وقعت في المدينة المنورة بين جيش يزيد بن معاوية، وبين أهل المدينة، وكان ذلك سنة ٦٣ هـ، وكان قائد جيش يزيد مسلم بن عقبة المرِّي، وسنتكلم عن معركة الحرة في المشاهد العسكرية إن شاء الله تعالىٰ.

ولنتكلم بعد ذلك عن شخصيات مسلمات دُفِنَّ بالبقيع، وقبورهن معروفة محددة هناك، فنقول وبالله التوفيق:

١ ـ **صفية بنت عبد المطلب**: بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمها هالة بنت وهيب وهي عمة الرسول ـ ﷺ ـ وشقيقة سيدنا حمزة عم الرسول، وهي أم الزبير بن العوام.

---

(١) الوفيات (٤/١٣٨).

أسلمت في مكة، وعاشت إلى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ وهاجرت إلى المدينة المنورة مع ابنها الزبير بن العوام[1].

وصفية ـ رضي الله عنها ـ أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين، وذلك حين كانت في حصن فارع وهو حصن حسان بن ثابت، وكان من أحصن آطام المدينة، وكان الرسول ـ ﷺ ـ إذا خرج للقتال يجعل النساء فيه.

وفي يوم من أيام الخندق جاء يهودي يتسمع ليعلم من في الحصن، فرأته صفية ـ رضي الله عنها ـ فقالت لحسان بن ثابت، وكان قد تخلف عن الغزوة، اخرج إليه فاقتله. فكأنه هاب ذلك، فأخذت صفية عموداً، ونزلت إلى اليهودي، وفتحت الباب قليلاً قليلاً، حتى تمكنت منه، وضربته فقتلته[2].

ويستغل كثير من الكتاب هذه القصة، ويتهمون حساناً ـ رضي الله عنه ـ بالجبن، وليس الأمر كذلك، لأن حساناً كان رجلاً شاعراً، وكان يهجو الشعراء، ويعدد نقائصهم، ولو كان ـ رضي الله عنه ـ جباناً كما يزعم الذين يتهمونه، لما سلم من ألسنة الشعراء الذين هجاهم وذكر عيوبهم، والجبن من أبشع الصفات التي تهجو بها العرب، ولم نسمع شاعراً هجا حساناً بالجبن مما يدل على أنه ليس جباناً.

والذي يظهر والله أعلم أن حساناً كان مريضاً أو به علة منعته من حضور الغزوة وهي التي منعته كذلك من النزول إلى اليهودي ليقتله.

وروى ابن سعد ـ رحمه الله ـ أن صفية ـ رضي الله عنها ـ جاءت يوم أحد وقد انهزم الناس، وفي يدها رمح تضرب في وجوه الناس وتقول: انهزمتم عن رسول الله.

فلما رآها رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا زبير المرأة، وكان حمزة قد بقر بطنه، فكره رسول الله ـ ﷺ ـ أن تراه.

---

(١) الإصابة (٤/٣٤٨).

(٢) نفسه (٤/٣٤٩) ويذكر ابن سعد القصة غير أنه يقول إنها كانت في غزوة أحد.

فقال الزبير: يا أمَّه، إليك إليك.

فقالت: تنح لا أمّ لك، فجاءت فنظرت إلى حمزة[1].

وفي السيرة النبوية أن صفية أقبلت لتنظر إلى حمزة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لابنها الزبير: (القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها).

فقال الزبير: يا أمَّتِ، إن رسول الله يأمرك أن ترجعي.

قالت: ولمَ وقد بلغني أن قد مُثل بأخي، وذلك في الله؟ فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

ورجع الزبير إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بالذي قالت: فقال: خل سبيلها، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له[2].

ولما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ ورثته عمته صفية ـ رضي الله عنها ـ وكان مما قالت:

قد كان بعدك أنباء موهنة ... لو كنت شاهدها لم يكثر الخطب[3]

وعاشت ـ رضي الله عنها ـ حتى توفيت في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكانت وفاتها بالمدينة المنورة، ودفنت بالبقيع[4].

٢ ـ رقية بنت رسول الله: وأمها خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ ولدت قبل البعثة بثلاث سنين، وكان عمر رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً وثلاثين سنة[5].

أسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت هي وأخواتها حين بايع رسول الله ـ ﷺ ـ النساء[6].

---

(١) الطبقات (٨/ ٤١).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧٨).

(٣) الإصابة (٤/ ٣٤٩).

(٤) الطبقات (٨/ ٤٢).

(٥) الاستيعاب (٤/ ٢٩٩).

(٦) الطبقات (٨/ ٣٦).

تزوجت أولاً عتبة بن أبي لهب، وهو ابن عمها، فلما نزل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1] قال أبو لهب لابنه: رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد، فطلقها، وتزوجها بعده عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وهاجر بها إلى الحبشة، وولدت له هناك ابناً سماه عبد الله، فكان يكنى أبا عبد الله، وعاش عبد الله حتى بلغ ست سنين، ونقره ديك في عينه فورم وجهه ومرض ومات[2].

ولم تلد لعثمان شيئاً بعد عبدالله، ومرضت رقية بالحصبة، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يتجهز لغزوة بدر فخلف عليها زوجها عثمان ومعه أسامة بن زيد، وماتت رقية ـ رضي الله عنها ـ ورسول الله ـ ﷺ ـ ببدر، فبينما يدفن عثمان رقية سمع تكبيراً، فقال لأسامة: انظر ما هذا؟

فإذا زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ الجدعاء، بشيراً بقتل المشركين يوم بدر.

وكان تخلف عثمان ـ رضي الله عنه ـ عن غزوة بدر بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ ولذا ضرب له بسهمه وأجره، وكانت وفاتها في اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة[3].

٣ ـ زينب بنت رسول الله: وأمها خديجة بنت خويلد، وهي كبرى بناته ـ ﷺ ـ وأول من تزوج منهن، ولدت قبل البعثة بعشر سنين، وكان عمر الرسول ثلاثين سنة[4].

تزوجت ابن خالتها هالة بنت خويلد أبا العاص بن الربيع، وولدت له غلاماً سماه علياً، وجارية اسمها أمامة، وتوفي علي وهو صغير،

---

(١) سورة المسد.

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٠٠).

(٣) نفسه (٤/ ٣٠٢).

(٤) الاستيعاب (٤/ ٣١١).

وعاشت أمامة حتى تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ[1].

وكان زوجها أبو العاص بن الربيع ممن شهد بدراً مع المشركين، ووقع أسيراً، أسره عبد الله بن جبير الأنصاري، ولما أرسل أهل مكة في فداء أسراهم، كان عمرو بن الربيع ممن قدم لفداء أخيه أبي العاص، وبعثت معه زينب بنت رسول الله بقلادة لها، كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها عندما بنى بها أبو العاص، بعثت بها في فداء زوجها أبي العاص.

فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ القلادة عرفها، ورقّ لها، وتذكر خديجة ـ رضي الله عنها ـ وترحم عليها، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا لها متاعها فعلتم.

قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص بن الربيع، وردوا على زينب قلادتها واشترط النبي ـ ﷺ ـ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب لتلحق بأبيها ففعل[2].

خلَّى أبو العاص زينب بنت رسول الله ـ ﷺ ـ لتلحق بأبيها بالمدينة المنورة، وخرجت زينب ومعها كنانة بن الربيع أخو أبو العاص، وتصدى له المشركون ليمنعوه من الخروج بها وروعها وهي في هودجها هبار بن الأسود، وكانت حاملاً، فطرحت جنينها، وكان رسول الله قد بعث زيد بن حارثة، وأعطاه خاتمه لتعرفه زينب فتثق فيمن جاء ليصحبها إلى المدينة.

وأرسل زيد الخاتم مع أحد الرعاة، فعرفته زينب فخرجت ليلاً، وصحبها زيد حتى دخلت المدينة[3].

---

(١) الطبقات (٨/ ٣١).

(٢) الطبقات (٨/ ٣١).

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٣٣١).

وخرج أبو العاص في عير لقريش، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ زيد بن حارثة قائداً لجيش عدده سبعون ومائة رجل، ليستولوا على قافلة قريش، فالتقى جيش زيد ـ رضي الله عنه ـ بالقافلة عند العيص في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة، فأخذ العير وأسر رجالاً منهم أبو العاص، ودخل على زينب فأجارته.

فلما صلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ الصبح، نادت زينب بصوت عال قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فقال رسول الله: هل سمعتم ما سمعت؟

قالوا: نعم.

قال: والذي نفسي بيده ما علمت شيئاً مما كان حتى سمعت، وإنه يجير على المسلمين أدناهم، وفي رواية: قد أجرنا من أجرت[1].

فلما انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ إلى منزله دخلت عليه زينب، وسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ففعل.

وأمرها ألا يقربها فإنها لا تحل له ما دام مشركاً، ورجع أبو العاص إلى مكة، فأدى إلى كل ذي حق حقه، ثم أسلم، ورجع إلى النبي ـ ﷺ ـ مسلماً مهاجراً في المحرم سنة سبع من الهجرة، فرد رسول الله ـ ﷺ ـ عليه زينب بنكاحها الأول[2].

وروى ابن سعد ـ رحمه الله ـ أن أبا العاص كان يحن إلى زينب، وذكر أنه خرج مرة إلى الشام في بعض أسفاره فذكرها فقال:

ذكرت زينب لما ورّكت إرما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة ... وكل بَعْلٍ سيثني بالذي علما

---

(١) الإصابة (٤/ ٣١٢).

(٢) الطبقات (٨/ ٣٣).

ومكث أبو العاص ـ رضي الله عنه ـ مع زوجه زينب ـ عليها السلام ـ مسلماً مهاجراً في المدينة المنورة سنة كاملة حيث توفيت في أول سنة ثمان من الهجرة، وغسلتها أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم المؤمنين أم سلمة.

وأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن تغسل وتراً ثلاثاً أو خمساً أو أكثر، وأمر أن تغسل بماء وسدر، وأن يجعل في الآخرة كافورا، وألقى إليهم حقوه ـ أي إزاره ـ وقال: أشعرنها إياها[1].

٤ ـ **أم كلثوم بنت النبي**: وأمها خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ تزوجها عتيبة بن أبي لهب، ولم يدخل بها، كما فعل أخوه عتبة مع رقية ـ رضي الله عنها ـ فلما نزل قول الله تعالىٰ ـ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أمره أبوه أن يطلقها فطلقها.

وظلت بمكة في رعاية أبيها ـ ﷺ ـ وأسلمت حين أسلمت أمها، وبايعت هي وأخواتها لما بايع الرسول النساء، وهاجرت إلى المدينة مع عيال رسول الله ـ ﷺ ـ[2].

فلما توفيت رقية ـ عليها السلام ـ عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان ـ رضي الله عنهم ـ فسكت عثمان لأنه كان سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يذكرها.

وبلغ الخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ألا أدل عثمان على من هو خير له منها، وأدلها على من هو خير لها من عثمان؟

فتزوج رسول الله حفصة فكان خير لها من عثمان، وزوج عثمان بنته أم كلثوم فكانت خيراً له من حفصة[3].

وعقد عليها عثمان ـ رضي الله عنه ـ في ربيع الأول سنة ثلاث من

---

(١) الطبقات (٨/ ٣٤).
(٢) نفسه (٨/ ٣٧).
(٣) الاستيعاب (٤/ ٤٨٧).

الهجرة، وبنى بها في جمادى الآخرة من السنة نفسها، وعاشت معه ـ رضي الله عنهما ـ إلى شعبان سنة تسع من الهجرة، ولم تلد له شيئاً[1].

وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ في شعبان سنة تسع، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لو كن عشراً لزوجتهن عثمان[2].

وغسلتها أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ وصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ ﷺ ـ قالت أسماء: وجعلت عليها نعشاً، أمرت بجرائد رطبة فواريتها[3]. وصلَّى عليها أبوها[4] ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

عن أنس بن مالك قال: رأيت النبي ـ ﷺ ـ على قبرها، فرأيت عينيه تدمعان فقال: فيكم أحد لم يقارف الليلة ـ أي لم يجامع أهله الليلة ـ؟

قال أبو طلحة: أنا، فقال: انزل في قبرها، كذلك نزل علي والفضل وأسامة بن زيد ـ رضي الله عنهم ـ[5].

٥ ـ **فاطمة بنت الرسول**: سيدة نساء العالمين، وأمها خديجة بنت خويلد، وهي أصغر بنات النبي ـ ﷺ ـ وأولهن لحوقاً به، وآخر بناته وفاة، توفيت بعد رسول الله ـ ﷺ ـ بستة أشهر على الأرجح، وكانت أحب بناته إليه، حتى إنه كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه[6].

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ـ ﷺ ـ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبَّلها ورحب بها كما كانت تصنع هي به ـ ﷺ ـ.

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٨٩).
(٢) الطبقات (٨/ ٣٨).
(٣) الطبقات (٨/ ٣٨).
(٤) الاستيعاب (٤/ ٤٨٧).
(٥) الإصابة (٤/ ٤٨٩).
(٦) الاستيعاب (٤/ ٣٧٦).

ولدت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وقريش تبني الكعبة، وكان عمر النبي ـ ﷺ ـ خمساً وثلاثين سنة، وكانت أكبر من عائشة بخمس سنين، وتزوجها علي ـ رضي الله عنه ـ أوائل شهر محرم سنة اثنتين من الهجرة، بعد دخول النبي بعائشة بأربعة أشهر[1].

روى ابن سعد أن أبا بكر خطب فاطمة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا أبا بكر انتظر بها القضاء، فذكر ذلك أبو بكر لعمر، فقال له عمر: ردك يا أبا بكر.

ثم إن أبا بكر قال لعمر: اخطب فاطمة إلى النبي ـ ﷺ ـ فخطبها فقال له مثل ما قال لأبي بكر: انتظر بها القضاء، فجاء عمر إلى أبي بكر فأخبره، فقال له: ردك يا عمر.

ثم إن أهل علي قالوا لعلي: اخطب فاطمة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: بعد أبي بكر وعمر؟

فذكروا له قرابته من النبي ـ ﷺ ـ فخطبها، فزوجه النبي ـ ﷺ ـ فباع علي بعيراً له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين، فقال له النبي ـ ﷺ ـ اجعل ثلثين في الطيب وثلثاً في المتاع[2].

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها[3].

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ شديداً على فاطمة، فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فخرجت وخرج علي في إثرها، ووقف حيث يسمع كلامهما.

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٧٧).

(٢) الطبقات (٨/ ١٩).

(٣) نفسه (٨/ ٢٢).

فشكت فاطمة إلى رسول الله غلظ علي وشدته عليها، فقال: يا بنية، اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا أمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت.

قال علي: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً[1].

وقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنها ـ رضي الله عنها ـ سيدة نساء العالمين، فقد روى ابن عبد البر عن عمران بن حصين، ان النبي ـ ﷺ ـ عاد فاطمة وهي مريضة، فقال: كيف تجدينك يا بنية؟

قالت: إن وجعة، وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله.

قال: يا بنية، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟

قالت: يا أبت، فأين مريم بنت عمران؟

قال: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة[2].

وقد استهجنت ـ رضي الله عنها ـ طريقة تشييع المرأة بعد وفاتها، فقالت لأسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها.

فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟ دفعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً.

فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلي، ولا تدخلي علي أحداً[3].

وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ ليلة الثلاثاء الثالث من شهر رمضان سنة

---

(١) الطبقات (٨/ ٢٦).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥).

(٣) نفسه (٤/ ٣٧٨).

إحدى عشرة من الهجرة، وغسلتها أسماء بنت عميس وزوجها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ وصلَّى عليها عليٌّ، ودفنها ليلاً، ونزل في حفرتها العباس وعلي والفضل بن العباس ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[1].

٦ ـ **فاطمة بنت أسد**: بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمها فاطمة بنت هرم بن رواحة، أم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تزوجها أبو طالب بن عبد المطلب، وأنجبت له عليا وجعفرا وعقيلا وهو أكبرهم، وكان لأبي طالب منها من البنات: أم هانىء وجمانة وريطة[2].

أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بها، فلما ماتت كفنها رسول الله ـ ﷺ ـ في قميصه، وقال: لم نلق بعد أبي طالب أبر بي منها[3].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ تساعد فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في عمل البيت، قال علي ـ رضي الله عنه ـ قلت لأمي: أتكفي فاطمة سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك الطحن والعجن؟.

وهي أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنهما ـ وقد أهدى رسول الله ـ ﷺ ـ لعلي بن أبي طالب حلة استبرق ـ حرير ـ وقال: اجعلها خُمُراً بين الفواطم.

قال علي: فشققتها أربعة أخمرة: خمار لفاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وخمار لفاطمة بنت أسد، وخمار لفاطمة بنت حمزة، ولم يذكر الرابعة[4].

توفيت بالمدينة في حياة الرسول ـ ﷺ ـ وكفنها في قميصه كما سبق، واضطجع معها في قبرها، فقال الصحابة: ما رأيناك صنعت ما صنعت بهذه!

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٨٠).
(٢) الطبقات (٨/ ٥١).
(٣) الإصابة (٤/ ٣٨٠).
(٤) الإصابة (٤/ ٣٨٠).

فقال ـ ﷺ ـ: إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرَّ بي منها، إنما ألبستها قميصي لتُكسى من حلل الجنة، واضطجعتُ معها ليُهوَّن عليها[1].

ويروي العباسي في عمدة الأخبار أن الرسول ـ ﷺ ـ صلى عليها عند قبرها وكبر تسعا وقال: ما أُعفي أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد.

قيل يا رسول الله: ولا القاسم؟ قال: ولا إبراهيم ـ وكان إبراهيم أصغرهما ـ.

عن أنس قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ فجلس عند رأسها وقال: رحمك الله يا أمي بعد أمي[2].

وقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ حفر لحدها بيده، وأخرج ترابه بيده الشريفة، ثم اضطجع فيه، ثم قال: الله الذي يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ووسع مدخلها فإنك أرحم الراحمين[3].

أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ:

أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ هن زوجات الرسول ـ ﷺ ـ اللاتي عشن معه ومتن وهن في عصمته، وقد بلغ عددهن اثنتي عشرة زوجة، ولم يجتمع هذا العدد عنده، فقد انفردت السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ مدة حياتها معه، وهي أول زوجاته فلم يتزوج عليها، وهي أم أولاده ما عدا إبراهيم، عاشت معه ـ عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنها ـ خمسا وعشرين سنة تقريبا.

ولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم، ومات القاسم وعبد الله بمكة، والقاسم أول من مات من ولده، وأما البنات فأدركن

---

(١) الاستيعاب حاشية الإصابة (٤/ ٣٨٢).

(٢) عمدة الأخبار (ص ١٥٣).

(٣) عمدة الأخبار (ص ١٥٣).

الإسلام وهاجرن مع رسول الله إلى المدينة ومتن جميعا بالمدينة، ودُفِنَّ بالبقيع.

والسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ آزرت رسول الله ـ ﷺ ـ بنفسها، وآسته بمالها وتوفيت سنة عشر من البعثة النبوية بمكة، ودفنت بالمعلا مقبرة أهل مكة (الحجون) ولم يصلِّ عليها، لأن الصلاة على الجنائز لم تكن شرعت.

فلما توفيت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ تزوج السيدة سوْدة بنت زمعة بمكة، وبنى بها في مكة وهاجرت معه إلى المدينة، وفي السنة الأولى للهجرة تزوج السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وفي السنة الثالثة منها تزوج السيدة حفصة والسيدة زينب بنت خزيمة.

فاجتمع عنده ـ عليه الصلاة والسلام ـ سودة وعائشة وحفصة وبنت خزيمة، ثم توفيت بنت خزيمة في السنة الرابعة، فتزوج في السنة الخامسة أم سلمة وجويرية وريحانة.

فاجتمع عنده ست هن: سودة وعائشة وحفصة وأم سلمة وجويرية وريحانة، وفي السنة السابعة تزوج ـ ﷺ ـ أم حبيبة وصفية وميمونة، فكن عنده تسع نسوة ولم يجتمع عنده أكثر منهن، وماتت ريحانة في حياته ـ ﷺ ـ وبقي الثمان، وقد دُفِنَّ في البقيع ما عدا ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ فقد توفيت بِسَرف، ودفنت هناك، وهو المكان الذي تزوجها فيه رسول الله ـ ﷺ ـ ودفنت في المكان الذي دخل عليها فيه ـ رضي الله عنها ـ.

وقد يثير هذا العدد من النسوة اللاتي اجتمعن في عصمته ـ ﷺ ـ سؤالين هما:

السؤال الأول: كيف اجتمع هذا العدد لرسول الله ـ ﷺ ـ مع أن الإسلام لم يبح للمسلم أكثر من أربع نسوة؟

والجواب أن هذه خصوصية للرسول ـ ﷺ ـ لا تباح لأحد غيره، وكان القصد منها تعويض بعضهن عمن فقدن من الأزواج في الغزوات والحروب،

كما كان المقصود تأليف القبائل التي يتزوج منها لكسب مناصرتها للإسلام والمسلمين.

السؤال الثاني: وغالبا ما يطرح بخبث للنيل من الرسول - ﷺ - ولذا لا يطرحه إلا أعداء الإسلام، أو المنحرفون من المسلمين، حيث يقولون: إن محمداً كان رجلاً شهوانيا أباح لنفسه ما لم يبحه للمسلمين ليشبع رغبته الجنسية.

والجواب أن هذه مغالطة لا يقبلها ذوو العقول السليمة، إذ لو كان - ﷺ - يتزوج لإشباع رغبته الجنسية كما يدعون، لتزوج الأبكار، ولاستأثر بالصغيرات.

ولكننا نلاحظ أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يتزوج بكرا سوى السيدة عائشة - رضي الله عنها - وبقية الزوجات الكريمات الطاهرات سبق لهن الزواج من رجل أو رجلين قبله - ﷺ - فالسيدة خديجة - رضي الله عنها - وهي أولى الزوجات كانت متزوجة من قبل برجلين الأول أبو هالة بن زرارة فلما توفي تزوجت عتيق بن عائذ.

والسيدة سودة كانت تحت السكران بن عمرو فلما توفي عنها تزوجها الرسول، والسيدة حفصة كانت عند خنيس بن حذيفة، ومات عنها متأثرا بجراحه يوم أحد، وأم سلمة كانت متزوجة من عبد الله بن عبد الأسد المشهور بأبي سلمة، وأم حبيبة كانت زوجة لعبيد الله بن جحش فارتد ومات على النصرانية في الحبشة، وزينب بنت جحش كانت زوجة لزيد بن حارث، وزينب بنت خزيمة كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فتزوجها عبيدة بن الحارث، فقتل يوم بدر، فتزوجها الرسول - ﷺ - وصفية بنت حيي كانت زوجة لسلاَّم بن مشكم ففارقها وتزوجها كنانة بن الربيع، وريحانة بنت زيد كانت متزوجة رجلا من بني قريظة اسمه الحكم، وميمونة بنت الحارث كانت زوجة لمسعود بن عمرو الثقفي، فلما فارقها تزوجها بعده أبو رهم بن عبد العزَّى.

وهكذا نلاحظ أن واحدة فقط هي التي تزوجها بكراً وهي عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها - كما نلاحظ أن أربعاً من زوجاته تزوجن قبله

مرتين، وهي خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة، وصفية بنت حيي وميمونة بنت الحارث.

والباقيات تزوجن مرة واحدة، فهل يرضى الرجل الشهواني ذو المطامع الجنسية أن يتزوج نساء سبق لهن معرفة الرجال، وفي استطاعته أن يتزوج الأبكار الحسان؟

إن الإنسان الذي تقوده شهوته لا يستطيع أن يقود أمة، ولا أن يربي جيلا، والإنسان الذي تجرفه ميوله الجنسية، وتسيطر عليه نزواته الشيطانية، لا يلتفت إليه التاريخ، ولا يسجل له هذه العظمة التي أدهشت العالمين.

وسنلقي هنا نظرة خاطفة على أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - اللائي دفن بالبقيع وسيكون الحديث عنهن تعريفا موجزا بهن، وسأتكلم عنهن بحسب ترتيب زواجهن من رسول الله - ﷺ -.

١ - سودة بنت زمعة:

ابن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ، وأمها الشموس بنت قيس بن عمر من بني النجار الأنصار، تزوجها ابن عمها السكران بن عمرو بن عبد شمس بعد عبد ود.

أسلمت هي وزوجها بمكة، وهاجرا معا إلى الحبشة الهجرة الثانية، فلما رجعا إلى مكة توفي زوجها، فتزوجها رسول الله - ﷺ - في رمضان سنة عشر من النبوة - أي قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي السنة التي توفيت فيها خديجة - رضي الله عنها - ودخل عليها بمكة وهاجر بها إلى المدينة[1].

وكانت سودة - رضي الله عنها - قد أَسَنَّتْ فخشيت أن يطلقها رسول الله - ﷺ - فسارعت بإرضائه، فوهبت نوبتها في القسم لعائشة - رضي الله

---

(١) الطبقات (٨/ ٥٣).

عنها ـ فقبل رسول الله ـ ﷺ ـ ونزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1].

وكانت سودة أحيانا تضحك الرسول ـ ﷺ ـ فقالت له: صليت خلفك الليلة، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي خشية أن يقطر، فضحك رسول الله، تريد أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطال الركوع حتى خافت أن يخرج الدم من أنفها.

رأت السيدة سودة ـ قبل وفاة زوجها السكران بن عمرو ـ في منامها أن قمراً انقض عليها من السماء، وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها فقال: وأبيك صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرا حتى أموت، وتَزَوَّجين مِنْ بعدي.

فاشتكى السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات، وتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ[2].

وكانت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تثني عليها، وتحب طريقتها وهديها، وتقول: ما من الناس أحد أحب إلي من أن أكون في مسلاخه من سودة بنت زمعة، إلا أن بها حدة[3].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ سخية كريمة كثيرة الصدقة، أرسل إليها عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ غرارة مملوءة دراهم، فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم.

قالت: في غرارة مثل التمر؟ وفرقتها[4].

توفيت ـ رضي الله عنها ـ بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ[5].

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٣٨).

(٢) الطبقات (٨/ ٥٧).

(٣) الاستيعاب (٤/ ٣٢٤).

(٤) الإصابة (٤/ ٣٣٩).

(٥) الطبقات (٨/ ٥٧).

٢ ـ عائشة بنت الصديق:

وهو أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر، وأمها أم رومان بنت عمير، وعقد عليها رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة بعد موت خديجة، وقبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت بنت ست سنين، عرضتها عليه خولة بنت حكيم حين قالت له: أي رسول الله ألا تتزوج؟

قال: من؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا.

قال: فمن البكر؟ قالت: بنت أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، آمنت بك واتبعتك.

قال: فاذهبي فاذكريهما علي.

فذهبت إلى بيت أبي بكر، فأخبرت أم رومان بما أرسلها من أجله رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت لها: انتظري أبا بكر، فلما جاء أخبرته فقال: وهل تصلح له وهي بنت أخيه؟

فرجعت وذكرت ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فقال: قولي له: أنت أخي في الإسلام وابنتك تحل لي[١].

وكان النبي ـ ﷺ ـ قد رأى عائشة ـ رضي الله عنها ـ في المنام في سَرَقة من حرير (أي شقة من حرير) فتوفيت خديجة، فقال: إن يكن هذا من عند الله يمضه[٢].

وجاء أبو بكر فخطبها الرسول منه، فقال: يا رسول الله، قد كنت وعدت بها مطعم بن عدي لابنه جبير، فدعني حتى أَسْلَها منهم، ففعل[٣].

ولما هاجر الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة، وأتم بناء المسجد، بنى إلى

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٦٠).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٥٦).

(٣) الطبقات (٨/ ٥٨).

جواره بيتين: بيت لسودة بنت زمعة، وبيت لعائشة، ودخل عليها في شوال من السنة الأولى من الهجرة، وكانت بنت تسع سنين[1].

وقد تحدثت - رضي الله عنها - عن زواجها من رسول الله - ﷺ - فقالت: تزوجني رسول الله - ﷺ - وأنا بنت ست سنين، وأدخلت عليه وأنا بنت تسع سنين، وكنت ألعب على المرجوحة، ولي جمة، فأُتيتُ وأنا ألعب عليها، فأخذت فهيئت، ثم أدخلت عليه، وأرى صورتي في حريرة[2].

وعاشت مع رسول الله - ﷺ - تسع سنين، وتوفي عنها وهي بنت ثمان عشرة، سنة وكانت - رضي الله عنها - عالمة فقيهة، وكانت تروي الشعر وذات خبرة بالطب، حتى قال عنها هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي - ﷺ - وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل[3].

وقد رفع رسول الله - ﷺ - قدرها، وأعلى شأنها، وبين فضلها حين قال: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[4].

وكانت - رضي الله عنها - أحب الناس إلى رسول الله - ﷺ - سأل عمرو ابن العاص رسول الله فقال: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة.

قال: إنما أقول من الرجال: قال: أبوها.

كما كانت كريمة خيرة كثيرة الصدقة، بعث إليها ابن الزبير - رضي الله عنه - بمال في غرارتين يكون مائة ألف، فدعت بطبق - وهي يومئذ صائمة - فجعلت تقسم في الناس.

فلما أمست قالت: يا جارية، هاتي فطري، فقالت أم ذرَّة: يا أم المؤمنين، أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟

---

(١) الطبقات (٨/٥٨).

(٢) نفسه (٨/٥٩).

(٣) الإصابة (٤/٣٥٨).

(٤) رواه البخاري.

فقالت: لا تعنفيني، لو كنت أذكرتني لفعلت[1].

فلما دنا أجلها أوصت ألا يسيروا في جنازتها بنار، ولا يجعلوا تحتها قطيفة حمراء[2]، وماتت ـ رضي الله عنها ـ ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين[3]، وصلى عليها أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في البقيع، ودفنت بعد صلاة الوتر، ونزل في قبرها القاسم بن محمد، وعبد الله ابن الزبير، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر[4]، وكان عمرها يومئذ خمسا وستين سنة والله أعلم.

٣ ـ حفصة بنت عمر:

ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، وأمها زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون.

ولدت حفصة ـ رضي الله عنها ـ وقريش تبني الكعبة، قبل بعثة النبي ـ ﷺ ـ بخمس سنين، تزوجها خنيس بن حذافة، وهاجرا معا إلى المدينة المنورة.

وهي شقيقة عبد الله بن عمر، فلما توفي خنيس عرضها عمر على أبي بكر فسكت، ثم عرضها على عثمان فقال: لا حاجة بي إلى الزواج، فغضب عمر، وشكاهما إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة، وتزوج رسول الله ـ ﷺ ـ حفصة، وزوج عثمان أم كلثوم.

فلقي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عمر فقال له: لا تجد عليَّ في نفسك،

---

(١) الطبقات (٨/ ٦٧).
(٢) نفسه (٨/ ٧٦).
(٣) الإصابة (٤/ ٣٦١).
(٤) الاستيعاب (٤/ ٣٦٠).

فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كان قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سِرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ولو تركها لتزوجتها[1].

تزوج رسول الله ـ ﷺ ـ حفصة ـ رضي الله عنها ـ سنة ثلاث من الهجرة، ولم تدم عشرتها معه طويلا، فطلقها طلقة، فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة[2].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ لما علم بأن الرسول ـ ﷺ ـ طلق حفصة أخذ يحثو التراب على رأسه ويقول: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها.

فنزل جبريل من الغد، وقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر.

وفي رواية أن عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على حفصة وهي تبكي فقال: لعل رسول الله ـ ﷺ ـ طلقك، إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً[3].

ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ على حفصة، وعندها امرأة يقال لها الشفاء ترقي من النملة، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: علميها حفصة[4].

قلت: والنملة قرحة تخرج في الجسد بالتهاب شديد واحتراق مؤلم.

وأوصى عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى حفصة، فلما أحست بدنو أجلها أوصت إلى أخيها عبد الله بما أوصى به إليها عمر، كذلك أوصت بصدقة تصدقت بها، وبمال وقفته بالغابة[5].

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٧٣).
(٢) الاستيعاب (٤/ ٢٦٩).
(٣) الإصابة (٤/ ٢٧٣).
(٤) الطبقات (٨/ ٨٤).
(٥) الاستيعاب (٤/ ٢٦٩).

وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ في شهر شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهي يومئذ بنت ستين سنة[1].

وصلى عليها مروان بن الحكم في موضع الجنائز، وهو يومئذ أمير المدينة من قبل معاوية ـ رضي الله عنه ـ وحمل مروان سريرها، ثم حمله بعده أبو هريرة، وتابع مروان الجنازة، وظل معها حتى دفنت.

ونزل في قبرها ـ رضي الله عنها ـ أخواها عاصم وعبد الله، وأبناء أخيها عبد الله سالم وعبد الله وحمزة ـ رضي الله عنهم أجمعين.

٤ ـ زينب بنت خزيمة:

ابن الحارث بن عبد الله الهلالية، وتعرف بأم المساكين في الجاهلية، لأنها كانت تطعمهم، وتقضي حوائجهم.

كانت زوجة الطفيل بن الحارث، ثم تزوجها بعده أخوه عبيدة بن الحارث، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، وأمها خولة بنت عوف القرشية.

قتل زوجها عبيدة بن الحارث ببدر، فخطبها رسول الله ـ ﷺ ـ فجعلت أمرها إليه فتزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة[2].

وكان دخوله ـ ﷺ ـ عليها بعد دخوله بحفصة بنت عمر[3]، ومكثت عنده ـ ﷺ ـ ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر سنة أربع من الهجرة.

وصلى عليها رسول الله ـ ﷺ ـ ودفنها في البقيع[4].

---

(١) الطبقات (٨/ ٨٦).
(٢) الإصابة (٤/ ٣١٦).
(٣) نفسه (٤/ ٣١٥).
(٤) الطبقات (٨/ ١١٥).

ونزل في قبرها إخوتها الثلاثة، وكان عمرها يوم ماتت ثلاثين سنة أو نحوها[1].

٥ ـ أم سلمة:

هند بنت أبي أمية المعروف بزاد الراكب لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه يحمل معه زاداً، بل كان يكفيهم ذلك، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة.

تزوجت ابن عمها عبد الله المعروف بأبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة، وهي من السابقين إلى الإسلام هي وزوجها، هاجرا معا إلى الحبشة، وهي أول امرأة هاجرت إلى الحبشة، وولدت هناك سلمة، ثم عادا إلى مكة، وهاجرا إلى المدينة، وولدت بالمدينة عمر ودرَّة وزينب[2].

ولما خرجت مع زوجها مهاجرة إلى المدينة منعها قومها، وانقض أهل زوجها على ابنهما سلمة وقالوا: لا نتركه لكم وقد منعتموها من الذهاب معه، وأخذ الفريقان يتجاذبان الطفل حتى انفصل ذراعه عن كتفه، وتفرقت الأسرة، فأبو سلمة ذهب إلى المدينة، وأم سلمة بقيت بمكة ولكن بعيدة عن ولدها.

وظلت أم سلمة بمكة تنعي همها، وتبكي فراق زوجها وطفلها، حتى رق لها شيخ من جماعتها وكلم ذويها حتى وافقوا على رحيلها لتلحق بزوجها، وسلموا لها ولدها، وخرجت على بعير لها تريد المدينة، ليس معها إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو نعم الرفيق، وولدها.

ورآها رجل من المشركين مهاجرة على هذا النحو، فسألها، إلى أين يا ابنة أبي أمية؟

---

(١) الطبقات (٨/ ١١٦).

(٢) الإصابة (٤/ ٤٥٨).

قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: هل معك أحد؟

قالت: لا والله، إلا الله وابني، فقال: والله مالك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، وانطلق معها، تقول ـ رضي الله عنها ـ فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه[1].

وسار معها الرجل ـ يقال إنه عثمان بن طلحة ـ في أدب ووقار، حتى رأى نخل المدينة، فقال لها: هذه الأرض التي تريدين، ثم سلم وانصرف[2].

ودخلت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ المدينة، وجمع الله شمل الأسرة المباركة، وأقام أبو سلمة عبد الله مع زوجه هند، وبينهما وليدهما العزيز سلمة.

جلست أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ مع زوجها يتحدثان فقالت له: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، وهي من أهل الجنة، ثم لم تزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها، فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدي ولا أتزوج بعدك، قال: أتطيعينني؟

قالت: ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك.

قالت: فإذا مت فتزوجي، ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها[3].

وشهد أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ غزوة أحد، وأصيب في ذراعه بسهم ظل شهراً يداويه حتى برىء، وبعثه رسول الله ـ ﷺ ـ في بعث مكث فيه شهرا، ثم رجع إلى المدينة وجرحه منتقض فمات لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع[4].

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٥٨).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٤٥٤).

(٣) الطبقات (٨/ ٨٨).

(٤) نفسه (٨/ ٨٧).

فلما مات أبو سلمة، ذهبت أم سلمة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات، فكيف أقول؟

قال: قولي اللهم اغفر لي وله، واعقبني منه عقبى حسنة أو عقبى صالحة.

قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: ومن خير من أبي سلمة؟ ثم قلتها، فأعقبني الله خيرا منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وانقضت عدة أم سلمة في شوال سنة أربع من الهجرة، بوضع ابنتها زينب بنت أبي سلمة، وتقدم أبو بكر لخطبتها فردته، وكذلك تقدم عمر فردته، فأرسل إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبها فقالت: مرحبا برسول الله وبرسوله[1].

قالت أم سلمة: لما خطبني رسول الله ـ ﷺ ـ قلت: إني فيَّ خلال لا ينبغي لي أن أتزوج رسول الله، إني امرأة مسنة، وإني أم أيتام، وإني شديدة الغيرة.

قالت: فأرسل إليَّ رسول الله، أما قولك إني امرأة مسنة، فأنا أسن منك، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسنَّ منها، وأما قولك إني أم أيتام فإن كلهم على الله وعلى رسوله، وأما قولك إني شديدة الغيرة، فإني أدعو الله أن يذهب ذلك عنك[2].

وتزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونقلها إلى بيت بنت خزيمة أم المساكين بعد أن ماتت، وكان الذي زوجها منه ابنها عمر، وهو يومئذ غلام صغير[3] وفي الإصابة أن الذي زوجها ابنها سلمة[4].

---

(١) الطبقات (٨/ ٨٩).

(٢) نفسه (٨/ ٩١).

(٣) نفسه (٨/ ٩٢).

(٤) الإصابة (٤/ ٤٥٩).

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب، وإشارتها على النبي ـ ﷺ ـ يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها[1].

وماتت ـ رضي الله عنها ـ سنة إحدى وستين بعد ما جاءها نعْي الحسين ابن علي، وكان ذلك في خلافة يزيد بن معاوية، وهي آخر زوجات النبي ـ ﷺ ـ موتا[2].

وصلى عليها أبو هريرة بالبقيع، ونزل قبرها ابناها سلمة وعمر وابن أخيها عبد الله بن عبد الله بن أبي أمية، وعبد الله بن وهب بن رفعة الأسدي، وكان لها من العمر أربع وثمانون سنة[3].

٦ ـ زينب بنت جحش:

ابن رباب بن يعمر، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ـ ﷺ ـ هاجرت إلى المدينة، وهناك خطبها رسول الله لزيد بن حارثة مولاه، وكان يعرف بزيد بن محمد، ولما خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ على زيد، قالت: يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيِّم قريش، قال: فإني قد رضيته لك، فتزوجها زيد بن حارثة.

ولم تستقر حياتها مع زيد، فقد كان الخلاف قائما بينهما، وهم زيد بطلاقها، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ قال له: أمسك عليك زوجك واتق الله.

وكان الله ـ عز وجل ـ قد أراد أن يبطل بهذا الزواج أمرا كان شائعا في الجاهلية، وهو أن المتبنَّى عندهم كان بمنزلة الولد، ينسب إلى من يتبناه ويرثه إذا مات، ولا يجوز للمتبنِّي أن يتزوج زوجة المتبنَّى، لأنها كزوجة الابن.

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٥٩).

(٢) نفسه (٤/ ٤٦٠).

(٣) الطبقات (٨/ ٩٦).

لهذا زوج النبي ـ ﷺ ـ زينب مولاه زيد بن حارثة، فلما طلقها زيد زَوَّجها الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ـ ﷺ ـ وفي هذا نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

ومن أجل هذا لما تزوجها الرسول ـ ﷺ ـ تكلم المنافقون، وقالوا: محمد يحرم زوجة الابن، ويتزوج زوجة ابنه، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[2] ثم أمر ـ سبحانه ـ بأن ندعو هؤلاء المتبنون وننسبهم إلى آبائهم فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾[3].

وكانت زينب ـ رضي الله عنها ـ سيدة تقية صالحة، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحبها، وصفتها السيدة أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: كانت لرسول الله ـ ﷺ ـ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة صوامة قوامة صناعا تتصدق بذلك كله على المساكين[4].

وكانت تفخر على زوجات النبي ـ ﷺ ـ بأنها ابنة عمته، وبأنها دون سائر الزوجات زوجها الله من فوق سبع سماوات، وقالت فيها السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لم يكن أحد من نساء النبي ـ ﷺ ـ تساميني في حسن المنزلة عنده غير زينب بنت جحش[5].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥.
(٤) الإصابة (٤/ ٣١٣).
(٥) الاستيعاب (٤/ ٣١٤).

وغضبت مرة من السيدة صفية بنت حيي ـ أم المؤمنين ـ فقالت عنها: تلك اليهودية، فهجرها رسول الله ـ ﷺ ـ ذا الحجة والمحرم وأياما من شهر صفر، ثم عاد إليها وسار معها كما كان من قبل[1].

ومن أجلها نزلت آية الحجاب، فإن الرسول ـ ﷺ ـ لما دخل عليها، أولم وليمة، ودعا إليها أصحابه، وبعد أن أكلوا جلسوا يتحدثون في بيت رسول الله ـ ﷺ ـ وأخذ رسول الله يتردد على البيت وهم قعود، والسيدة زينب في البيت، فتأثر الرسول من قعودهم، ورُئِيَ ذلك في وجهه فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ ﴾[2].

ولما أرسل إليها رسول الله يخطبها قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، وقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ فدخل عليها بغير إذن[3] ذلك لأن الله زوجه إياها فلم يكن في حاجة إلى إذن ليدخل عليها.

وتزوجها ـ ﷺ ـ في أول شهر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، بعد غزوة المريسيع أو بعدها بقليل، وكانت يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة[4].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ سخية كريمة، كثيرة الصدقة، حتى كانت تتصدق بكل ما تقدر عليه، روى ابن سعد عن الواقدي: ما تركت زينب بنت جحش درهما ولا ديناراً، كانت تتصدق بكل ما تقدر عليه، وكانت مأوى المساكين.

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣١٤).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٣) الطبقات (٨/ ١٠٤).
(٤) الطبقات (٨/ ١١٤).

وبلغ عطاؤها في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اثني عشر ألفا، فلما بعث به إليها حسبت أن أمير المؤمنين أرسل إليها المال لتوزعه على المسلمين، وذلك لكثرته، فلما قيل لها إنه عطاؤك، فرقته كله في المحتاجين، وقالت: اللهم لا يدركني هذا المال من قابل، فإنه فتنة.

فلما بلغ عمر ما فعلت بعطائها قال: هذه امرأة يراد بها خير، فذهب إليها وسلم عليها، وقال: بلغني ما فرقت، فأرسل بألف درهم تستبقينها، ففعلت به كما فعلت بالأول[1].

وهي ـ رضي الله عنها ـ أول نساء النبي لحوقا به. روى مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً، فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: وكانت أطولنا يداً زينب بنت جحش، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[2].

فلما حضرتها الوفاة قالت: إني قد أعددت كفني، ولعل عمر سيبعث إلي بكفن، فإن بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا دلّيتموني أن تصدقوا بحقوي فافعلوا[3].

وأوصت ـ رضي الله عنها ـ أن تحمل على سرير رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يجعل عليه نعش، وكان قد حمل عليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكانوا يحملون عليه الموتى، حتى كان مروان بن الحكم فمنع أن يحمل عليه إلا الرجل الشريف، وفرق سررا في المدينة تحمل عليها الموتى.

فلما توفيت أرسل إليها عمر بن الخطاب بخمسة أثواب من الخزائن

---

(١) الإصابة (٤/ ٣١٤).

(٢) رواه مسلم.

(٣) الطبقات (٨/ ١٠٩) والمراد بالحقو الإزار.

يتخيرها ثوبا ثوبا، فكفنت فيها، وتصدقت عنها أختها حمنة بكفنها الذي أعدته تَكَفَّن فيه[1].

ورثتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: ذهبت حميدة فقيدة، مفزع اليتامى والأرامل[2]. وصلى عليها عمر بن الخطاب، وكبر أربعا، وأرسل إلى أزواج النبي ـ ﷺ ـ من تأمرنني أن يدخل قبرها؟

فأرسلن إليه: من كان يراها في حياتها، فيدخلها في قبرها[3].

وكانت وفاتها ـ رضي الله عنها ـ سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وعمرها حينئذ خمسون سنة، وقيل ثلاث وخمسون سنة[4].

ورأى عمر الحفارين يحفرون قبرها في يوم شديد الحر فقال: لو أني ضربت عليهم فسطاطاً، فضرب عليهم فسطاطاً، فكان أول فسطاط ضرب على قبر، ودفنت ـ رضي الله عنها ـ بالبقيع[5].

وجلس عمر على شفير القبر، ومعه أبو أحمد بن جحش ذاهب البصر ـ كفيفاً ـ جالس على شفير وعمر بن الخطاب قائم على رجليه، والأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قيام على أرجلهم[6].

وحمل سريرها أبو أحمد بن جحش، وهو مكفوف البصر، وكان يبكي، فقال له عمر: يا أبا أحمد تنح عن السرير، لا يعنَّك الناس، وازدحموا على سريرها.

فقال أبو أحمد: يا عمر، هذه التي نلنا بها كل خير، وإن هذا يبرد حر ما أجد.

---

(١) الطبقات (٨/ ١١٠).
(٢) الطبقات (٨/ ١١٠).
(٣) نفسه (٨/ ١١١).
(٤) الإصابة (٤/ ٣١٤).
(٥) الطبقات (٨/ ١١٣).
(٦) الطبقات (٨/ ١١٣).

فقال عمر: الزم الزم[1].

ونزل في قبرها محمد بن عبد الله بن جحش، وأسامة وعبد الله ابنا أبي أحمد بن جحش، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله، وهو ابن أختها حمنة ـ رضي الله عنهم أجمعين[2].

٧ ـ ريحانة بنت زيد:

ابن عمرو بن خنافة بن شمعون من بني النضير، كانت متزوجة رجلا من بني قريظة يقال له الحكم، فنسبها بعض الرواة إلى بني قريظة.

قتل زوجها ضمن قتلى بني قريظة، وجيء بها في الأسرى، فلما رآها ـ ﷺ ـ عزلها، ثم أرسلها إلى بيت أم المنذر بن قيس، حتى قتل الأسرى، وفرق السبي، فدخل إليها فاستحيت واختبأت.

فدعاها رسول الله ـ ﷺ ـ فأجلسها بين يديه، وخيرها، فاختارت الله ورسوله، فأعتقها وتزوجها[3].

يقول ابن سعد ـ رحمه الله ـ: إن الرسول ـ ﷺ ـ لما دخل على ريحانة قال لها: إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه.

فقالت: إني أختار الله ورسوله، فلما أسلمت أعتقني رسول الله وتزوجني، وأصدقني اثنتى عشرة أوقية ونشًّا كما كان يصدق نساءه، وأعرس بي في بيت أم المنذر، وكان يقسم لي كما كان يقسم لنسائه، وضرب عليَّ الحجاب[4].

ويروي ابن سعد رواية أخرى عن الواقدي فيقول: لما سبى رسول الله ـ

---

(١) الطبقات (٨/ ١١٣).
(٢) نفسه (٨/ ١١٤).
(٣) الإصابة (٤/ ٣٠٩).
(٤) الطبقات (٨/ ١٢٩).

ﷺ ـ ريحانة عرض عليها الإسلام فأبت، وقالت: أنا على دين قومي، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن أسلمت اختارك رسول الله لنفسه، فأبت، فشق ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ فبينما رسول الله جالس في أصحابه إذ سمع خفق نعلين فقال: هذا ابن سعية يبشرني بإسلام ريحانة.

فجاءه فأخبره أنها قد أسلمت، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يطؤها بالملك حتى توفي عنها[1].

وهكذا تختلف الروايات في كونها زوجة من الزوجات أو سرية مملوكة، ولكن الراجح أنها كانت زوجة، وعاملها الرسول ـ ﷺ ـ معاملة الزوجات، ومما يؤيد أنها كانت زوجة غيرتها الشديدة على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى طلقها، والطلاق لا يكون إلا على زوجة، والغيرة لا تكون إلا من زوجة، فلما طلقها شق عليها فأكثرت البكاء، فراجعها فكانت عنده حتى ماتت قبل أن يتوفى[2].

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ معجباً بها ويستكثر منها ويعطيها ما تسأله، حتى قيل لها: لو كنت سألت رسول الله ـ ﷺ ـ بني قريظة لأعتقهم، فقالت: ما خلا بي حتى فرق السبي[3].

وتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ في شهر محرم سنة ست من الهجرة، وبقيت عنده حتى ماتت سنة عشر، مَرْجِعَهُ من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع[4].

٨ ـ جويرية بنت الحارث:

ابن أبي ضرار بن حبيب من خزاعة، تزوجها رجل من قومها هو مسافع ابن صفوان، قتل عنها في غزوة بني المصطلق (المريسيع).

---

(١) الطبقات (٨/ ١٣١).
(٢) نفسه (٨/ ١٣٠).
(٣) نفسه (٨/ ١٣٠).
(٤) نفسه (٨/ ١٣٠).

غزا رسول الله ـ ﷺ ـ بني المصطلق لما علم بأن الحارث بن ضرار جمع جمعاً ليقاتل المسلمين، ويغزو المدينة، وانهزم بنو المصطلق، وأسر وسبى وغنم منهم رسول الله الشيء الكثير، وكان نساء بني المصطلق سبايا في أيدي المسلمين، فأخرج الرسول خمس الغنائم، وقسمه بين الناس.

ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس، وكانت كما عرفنا متزوجة ابن عمها مسافع، فكاتبها ثابت على تسع أواق تؤديها لتعتق بذلك نفسها، وأخذت جويرية تستعين من ترجو عونه لتجمع ما كوتبت عليه، فذهبت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تستعينه.

تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينا النبي ـ ﷺ ـ عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها.

فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت.

فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبني على تسع أواق، فأعني في فكاكي.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أو خير من هذا؟ فقالت: ما هو؟

قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك، قالت: نعم يا رسول الله.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : قد فعلت.

وخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله ـ ﷺ ـ يُسْتَرَقُّون، فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت بتزويجه إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[1].

ومنذئذ ضرب الرسول عليها الحجاب، وكان يقسم لها كما يقسم

---

(١) الطبقات (٨/ ١١٦).

لنسائه، فلما دخل بها سماها جويرية وكانت اسمها برَّة، كره أن يقال خرج من عند برة[1].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ كثيرة التعبد؛ روى الترمذي عن جويرية بنت الحارث أن النبي ـ ﷺ ـ مرَّ عليها وهي في مسجدها، ثم مر عليها قريبا من نصف النهار فقال: ما زلت على ذلك؟ قالت: نعم.

قال: ألا أعلمك كلمات تقوليهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته[2].

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لقد قلت بعدك كلمات لو وزن لرجحن بما قلت، قلت: سبحان الله عدد ما خلق... الحديث[3].

وروى البخاري عن جويرية ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ دخل عليها يوم جمعة وهي صائمة فقال: أصمت أمس؟ قالت: لا.

قال: فتصومين غدا؟ قالت: لا.

قال: فأفطري.

تزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ سنة ست من الهجرة، وهي حينئذ بنت عشرين سنة وتوفيت سنة خمسين من الهجرة، وكان عمرها خمسا وستين سنة، وصلى عليها مروان بن الحكم والي المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

٩ ـ رملة بنت أبي سفيان:

وهو صخر بن حرب بن أمية، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية عمة

---

(١) الطبقات (٨/ ١١٨).

(٢) رواه الترمذي.

(٣) الطبقات (٨/ ١١٩).

عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وشهرتها كنيتها أم حبيبة، وتعرف بكنيتها أكثر من اسمها.

ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاما، وتزوجها عبيد الله بن جحش، وأسلما، وهاجرا إلى الحبشة، وهناك ولدت له حبيبة، فكانت تكنى بها[1].

وارتد زوجها عن الإسلام، واعتنق النصرانية، وانكب على شرب الخمر، ورأته زوجه أم حبيبة في المنام في حالة سيئة، فلما أصبحت أخبرته، ولم يعبأ بذلك، وظل على ردته، وفي ليلة سمعت من يناديها في المنام: يا أم المؤمنين.

قالت: ففزعت، فأوَّلتها أن رسول الله ـ ﷺ ـ يتزوجني، فلما انقضت عدتي جاء رسول النجاشي يخبرني بأن رسول الله ـ ﷺ ـ كتب إلى النجاشي أن يزوجنيه، وطلب مني الملك أن أوكل من يزوجني، فبعثتُ إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته[2].

وتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ سنة سبع من الهجرة، وأحضرها من الحبشة إلى المدينة شرحبيل بن حسنة، وكان لها يوم قدمت المدينة سبع وثلاثون سنة (بضع وثلاثون سنة)[3].

وبلغ أبو سفيان بن حرب أن النبي ـ ﷺ ـ تزوج ابنته فقال: هو الفحل لا يقرع أنفه[4] ولما نقضت قريش معاهدة الحديبية، وخافوا غزو رسول الله ـ ﷺ ـ مكة، ذهب أبو سفيان إلى المدينة ليمد فترة الهدنة، فدخل على ابنته أم حبيبة، وهي يومئذ أم المؤمنين زوج النبي ـ ﷺ ـ وذهب يجلس على فراش

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٠٥).
(٢) الطبقات (٨/ ٩٧).
(٣) الطبقات (٨/ ٩٩).
(٤) الطبقات (٨/ ٩٩).

رسول الله ـ ﷺ ـ فأسرعت أم حبيبة وطوت الفراش، فقال أبو سفيان: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت امرؤ مشرك نجس.

فقال: لقد أصابك بعدي شرٌ[1].

ولما توفي أبو سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ دعت ابنته أم حبيبة بطيب فطلت به ذراعيها وعارضيها ثم قالت: إني كنت عن هذا لغنية لولا أني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا[2].

فلما أحست بقرب أجلها أحبت أن تبرىء ذمتها مما يكون قد علق بها من الخصومات مع ضرائرها، فدعت السيدة عائشة ـ رضي الله عنهما ـ فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحللينني من ذلك.

قالت عائشة: فحللتها واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سرك الله.

ثم أرسلتْ إلي أم سلمة بمثل ذلك[3]. وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان[4].

١٠ ـ صفية بنت حيي:

ابن أخطب بن سعية من سبط هارون أخي موسى بن عمران ـ صلىٰ الله عليهما وسلم ـ وأمها برَّة بنت سموأل أخت رفاعة بن سموأل.

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٠٦).

(٢) الطبقات (٨/ ١٠٠).

(٣) الإصابة (٤/ ٣٠٦).

(٤) الاستيعاب (٤/ ٣٠٦).

تزوجت صفية سلَّام بن مشكم القرظي، ولم تستقم حياته معها فطلقها، فتزوجها بعده كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، فقتل عنها يوم خيبر.

وجيء بها ضمن سبايا خيبر، فكانت في سهم دحية الكلبي، وتكلم الناس، فقالوا: إنها سيدة قريظة والنضير ولا تصلح إلا لك يا رسول الله، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لدحية: خذ جارية غيرها[1]، واصطفاها ـ ﷺ ـ لنفسه.

وكانت صفية ـ رضي الله عنها ـ قد رأت في المنام أن القمر قد وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأمها فلطمت وجهها وقالت: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكوني عند ملك العرب[2].

ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ أثر اللطمة في وجهها فسألها عنه فأخبرته خبرها، ولم يخرج الرسول من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، وحملها وراءه، وسار حتى كان على بعد ستة أميال من خيبر أراد أن ينزل ويُعرِّس بها، فامتنعت، ووجد رسول الله في نفسه، ثم واصل السير حتى إذا كان بمكان يعرف بالصهباء على بريد من خيبر ـ أي على بُعْدِ اثني عشر ميلاً عن خيبر ـ نزل هناك وأخذتها أم سليم ـ رضي الله عنها ـ فمشطتها وعطرتها، وهيأتها للعرس.

ووصفتها أم سنان الأسلمية فقالت: وكانت من أضوأ ما يكون النساء.

ودخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ ولما أصبحت سألتها أم سنان، ماذا قال لك رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

فقالت: قال لي ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟ فقلت: خشيت عليك من قرب اليهود، قالت: فزادها ذلك عنده[3].

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٤٧).

(٢) الإصابة (٤/ ٣٤٧).

(٣) نفسه.

وتصف أم سليم الحال الذي هيأت فيه صفية ليعرس بها رسول الله ـ ﷺ ـ فتقول: وليس معنا فسطاط ولا سرادقات، فأخذت كساءين أو عباءتين، فسترت بينهما إلى شجرة فمشطتها وعطرتها، وما شعرنا حتى قيل رسول الله يدخل على أهله، وقد نمصناها ونحن تحت دومة[1].

وأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ فأولم عليها هناك، وما كانت وليمته إلا الحيس، وما كانت قصاعهم إلا الأنطاع، فتغذى القوم يومئذ[2].

عن سهل بن سعد أن رسول الله ـ ﷺ ـ أوْلم حين دخلت عليه صفية بنت حيي بن أخطب قال: قلت: فماذا كان في وليمته؟

قال: التمر والسويق، قال: ورأيت صفية يومئذ تسقي الناس النبيذ.

قال: فقلت له: وأي شيء كان ذلك النبيذ الذي تسقيهم؟

قال: تمرات نقعتهن في تور من حجارة أو قال: برمة، من العشيِّ أو من الليل، فلما أصبحت صفية سقته الناس[3].

فلما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، وبات ليلته مع صفية، بات أبو أيوب على باب النبي ـ ﷺ ـ فلما أصبح رسول الله كبَّر، ومع أبي أيوب السيف، فقال: يا رسول الله، كانت جارية حديثة عهد بعرس، وكنت قتلت أباها وأخاها وزوجها، فلم آمنها عليك، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال له خيراً[4].

وأنزل الرسول صفية في بيت من بيوت حارثة بن النعمان، وسمع نساء الأنصار فجئن ينظرن جمالها وما تتمتع به من حسن، وجاءت عائشة متنقبة

---

(١) الطبقات (٨/ ١٢١).
(٢) نفسه (٨/ ١٢٢).
(٣) نفسه (٨/ ١٢٥).
(٤) نفسه (٨/ ١٢٦).

لئلا تعرف، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ عرفها، فلما خرجت خرج وراءها، فقال: كيف رأيت يا عائشة؟

قالت: رأيت يهودية.

فقال: لا تقولي ذلك، فإنها أسلمت وحسن إسلامها[1].

دخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً فوجدها تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟

قالت: بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني، وتقولان: نحن خير من صفية، نحن بنات عم الرسول وأزواجه.

قال: ألا قلت لهن: كيف تكن خيراً مني، وأبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد[2].

قال فيها ابن عبد البر: كانت صفية حليمة عاقلة فاضلة، ويدلل على ذلك بقوله: روينا أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فسألها عمر فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً وأنا أصلها.

ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟

قالت: الشيطان.

قالت: اذهبي فأنت حرة[3].

ولما مرض رسول الله ـ ﷺ ـ مرض الموت، اجتمع نساؤه حوله، فقالت صفية بنت حيي: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فتغامز أزواجه ببصرهن.

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٤٧).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٤٨).

(٣) الاستيعاب (٤/ ٣٤٨).

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: مضْمضن.

فقلن: من أي شيء؟

فقال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة[1].

وكان لها ـ رضي الله عنها ـ موقف رائع يوم الدار، يوم حاصر المتمردون أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وذلك حين لم يتمكن أحد من إدخال الماء والطعام إلى بيت أمير المؤمنين المحصور، عندئذ وضعت خشباً بين منزلها ومنزل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكانت تنقل عليه الماء والطعام إلى بيت عثمان[2].

وأوصت ـ رضي الله عنها ـ لابن أختها ـ وهو يهودي ـ وكانت ما تركته مائة ألف درهم، ولكن المسلمين لم ينفذوا وصيتها، فكلمت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأرسلت إليهم: اتقوا الله، وأعطوه وصيته، فأخذ ثلثها، وهو ثلاثة وثلاثون ألفاً ونيفاً، وأما دارها فقد تصدقت بها قبل موتها[3].

تزوجها النبي ـ ﷺ ـ سنة سبع من الهجرة[4]، وقالت أميمة بنت أبي قيس الغفارية: أنا إحدى النسوة اللاتي زففن صفية إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تقول: ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ[5].

وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ سنة اثنتين وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وقبرت بالبقيع[6].

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٤٨).

(٢) الطبقات (٨/ ١٢٨).

(٣) نفسه.

(٤) الاستيعاب (٤/ ٣٤٦).

(٥) الإصابة (٤/ ٣٤٨).

(٦) الطبقات (٨/ ١٢٩).

مشاهد البقيع المشهورة

وهذا رسم يوضح المشاهد المعروفة والمشهورة في البقيع، وقد عرفنا قبل أنه مدفون فيه أكثر من عشرة آلاف صحابي، ولكن القبور التي ثبت معرفتها، وتحقق مكانها فيه قليلة جداً نرمز لها بالرسم الآتي:

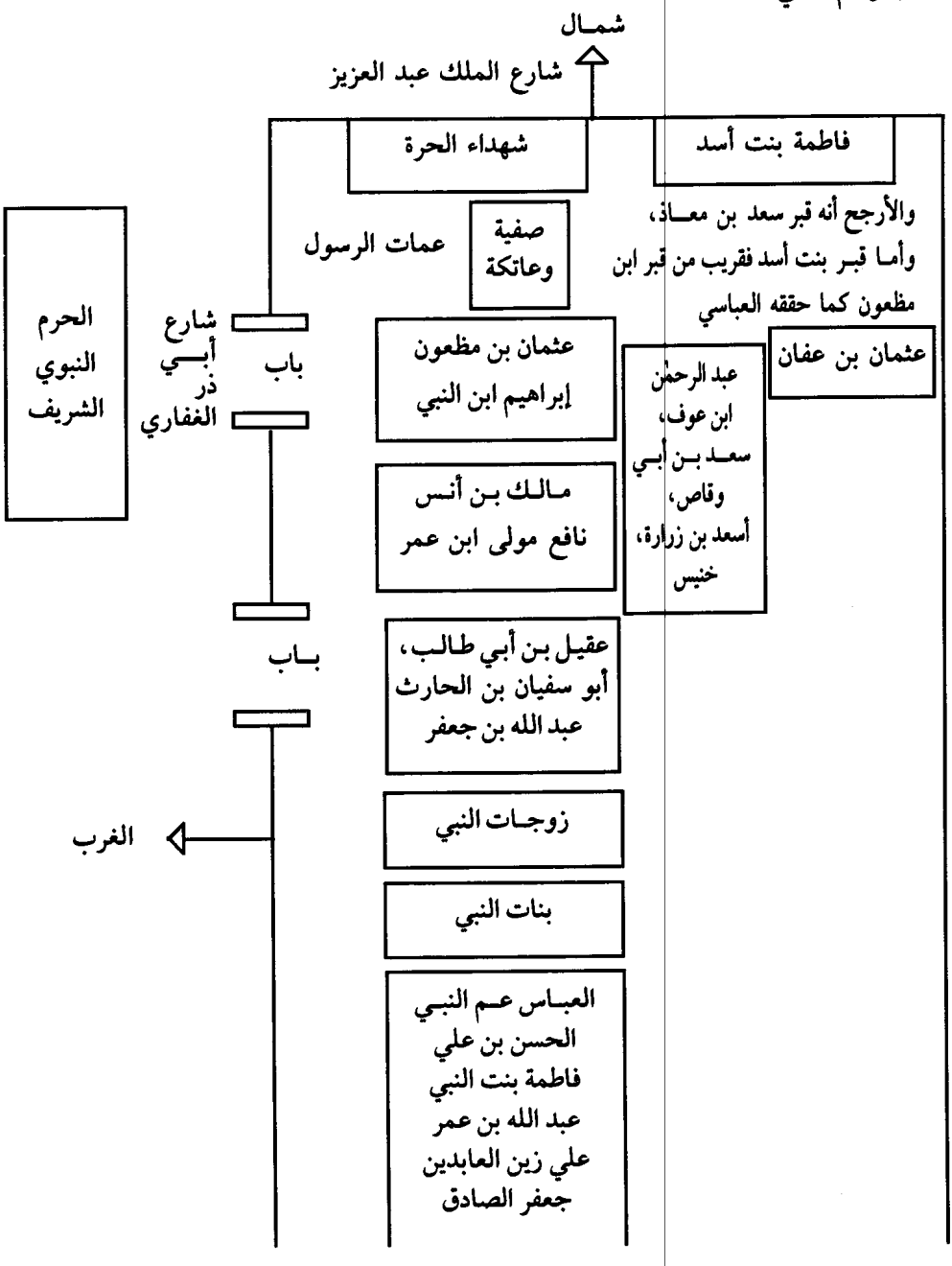

لما مات عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ وهو أول من مات من المهاجرين في المدينة، ودفن بالبقيع قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقد وضع حجراً عند قبره: (أتعلَّم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي) ولذلك لما مات ولده إبراهيم، وسئل أين نحفر له؟ قال: عند فرطنا عثمان بن مظعون[1].

ومن أجل هذا يرجح العباسي أن القبر الذي يقال له: قبر فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ ليس قبرها، وإنما هو قبر سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ لأن فاطمة بنت أسد هي أم الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فهي إذاً امرأة عم النبي ـ ﷺ ـ وهي حماة ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وهي فوق ذلك كله، كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعتبرها أمه بعد أمه حتى إنها لما ماتت شق ـ ﷺ ـ لحْدها بيده الشريفة، ورفع التراب من اللحد بيده الشريفة، ونام في اللحد قبل أن يضعها فيه، ودعا لها[2].

روى الطبراني في الكبير والأوسط عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ فجلس عند رأسها فقال: رحمك الله يا أمي بعد أمي.

وروى ابن عبد البر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب، ألبسها رسول الله ـ ﷺ ـ قميصه واضطجع معها في قبرها، فقالوا: ما رأيناك صنعت ما صنعت بهذه. فقال: إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها، إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليهوَّن عليها[3].

لهذا فإن الراجح أن يكون قبرها قرب قبر عثمان بن مظعون، حيث قال الرسول ـ ﷺ ـ: «وأدفن إليه من مات من أهلي» ويؤكد ذلك ما رواه ابن زبالة

---

(١) عمدة الأخبار (ص ١٥١).

(٢) وفاء الوفاء (٣/ ٨٩٩).

(٣) الاستيعاب حاشية الإصابة (٤/ ٣٨٢).

عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: دفن رسول الله ـ ﷺ ـ فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت مهاجرة مبايعة، بالروحاء مقابل حمام أبي قطيفة، قال: وثم قبر إبراهيم ابن النبي ـ ﷺ ـ وقبر عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ[1].

فأما القبر الذي في آخر البقيع المنسوب إلى السيدة فاطمة بنت أسد، فيقول فيه السمهودي: إنه قبر سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فإنه يذكر أن سعداً مات في منزله في بني عبد الأشهل، وصلى عليه الرسول ـ ﷺ ـ ودفنه في طرف الزقاق الذي بلزق دار المقداد بن الأسود..... وهي الدار التي يقال لها دار ابن أفلح في أقصى البقيع، قال: وهذا الوصف صادق بالمشهد المنسوب لفاطمة بنت أسد، لكونه بطرف زقاق في أقصى البقيع[2].

٢ ـ الآبار:

الآبار الأثرية في المدينة المنورة كثيرة، ومتفرقة في أقطارها المختلفة ولكنني التزمت في بداية الحديث عن المشاهد أني لن أتكلم إلا عن المشاهد الموجودة حالياً بحيث يمكن مشاهدتها والوقوف على أعيانها، أو تكون مما يمكن تحديد موقعه بصورة جلية يتمكن القارىء الكريم من معرفته، وبشرط أن يشتمل المشهد على حادثة تاريخية ينبغي أن يعرفها القارىء، ومن هذا المنطلق سأتناول هنا الآبار التي تتوفر فيها هذه الصفات وسأسكت عما سواها لا تقليلاً من شأنها، ولكن لأن الحديث عنها لن يمكن القارىء من معرفتها وأستعين بالله، فهو ـ سبحانه ـ نعم المعين:

أ ـ بئر حاء:

أدخلت هذه البئر الآن في توسعة الحرم النبوي الشريف، مشروع خادم

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٩٥).
(٢) وفاء الوفا (٣/ ٩١٥).

الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين ـ وتقع قبل ذلك في منطقة باب المجيدي شمال الحرم النبوي، وأصبحت الآن في داخل الحرم.

وهذه البئر كانت ملكاً لأبي طلحة الأنصاري الخزرجي، وكانت أحب أمواله إليه، فلما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] ذهب أبو طلحة إلى النبي ـ ﷺ ـ وقال: يا رسول الله، الله عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بير حا، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراد الله.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : بخ! ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين.

قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني أعمامه[2].

وكان هذا البئر في بستان فيه دار أبي طلحة وزوجه أم سليم بنت ملحان، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يدخل هذا البستان، ويستظل فيه، ويشرب من بئر حماء ماء طيباً.

وكان الرسول ـ ﷺ ـ يقيل أحياناً في هذا البستان، فكانت أم سليم تبسط له نِطعاً ينام عليه، فإذا قام أخذت من عرقه وشعره، وجعلته في قارورة، ثمّ جمعته في سُكّ ـ والسُّك نوع من الطيب ـ فكأنها تخلط عرقه بطيب ـ ﷺ ـ قال: فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة، أوصى أن يجعل في حنوطه من ذلك السك[3].

حبس أبو طلحة البئر بما حوله من البستان على أقاربه كما أمره

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) رواه مسلم والبيهقي والبزار.

الرسول ـ ﷺ ـ وعاد فرحاً مسروراً، وكأنه هو الذي حصل على البستان، وهكذا كانوا يفرحون بما يعطوا لله أكثر من فرحهم بما كانوا يأخذون.

ووقف بباب البستان يتأمل الهدية التي قدمها لله ورسوله، فرأى عصفوراً محبوساً في داخله، فنظر إليه وابتسم، ورأته زوجه أم سليم، وهي أم أنس بن مالك فقالت: يا أبا طلحة إن كنت أحدثت في البستان شيئاً فأعلمنا.

فحدثها عن نزول الآية الكريمة، وأخبرها أنه تصدق بالبستان لله ورسوله، فلم تحزن، ولم تغضب شأن النسوة اللاتي يفقدن صوابهن عندما يعلمن بأن أزواجهن قد فعلوا مثل ذلك، ولكنها وبكل صدق وإخلاص هنأته على هذا التصرف العظيم الذي يقربه من الله ـ عز وجل ـ وأخذت تجمع تمرات من أيدي الأطفال لتردها إلى إحدى النخلات، فلم تعد الحديقة ملكاً لهم، ولكنها أصبحت ملكاً لمن حبست عليهم، وكان منهم أبي بن كعب وحسان بن ثابت ـ رضي الله عنهما ـ.

وذكر السمهودي أن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ باع حصته من البستان لمعاوية بن أبي سفيان، فقيل له: تبيع صدقة أبي طلحة؟

فقال: ألا أبيع صاعاً من تمر بصاع من دراهم[1].

وذكر أن حسان قوم البستان واشتراه من شركائه، ثم باعه لمعاوية بن أبي سفيان بمائة ألف درهم[2].

ب ـ بئر أريس:

وهذه البئر تنسب إلى رجل من اليهود اسمه أريس ـ ومعناه الفلاح ـ وهي تقع غربي مسجد قباء، ومكانها الآن ميدان فسيح اتخذ موقفاً للسيارات وهو عمل وجيه حيث كانت البئر قد نضبت، ولم يعد من وجودها فائدة غير كونها أثراً من الآثار الإسلامية، وهذا يمكن تعويضه بإطلاق اسم البئر على

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٩٦٢).

(٢) نفسه (٣/ ٩٦٣).

الميدان، ولا شك أن تحقيق مصلحة عامة للمسلمين خير من استبقاء أثر ليس من ورائه فائدة.

وهذه البئر لها في التاريخ الإسلامي مكان مرموق، فقد ذهب إليها الرسول ـ ﷺ ـ وتوضأ منها، وجلس على قفها، وكشف عن ساقيه، وأدلاهما فيها، ودخل عليه الخلفاء الثلاثة على ترتيبهم كما سيأتي، ثم كان الحادث الخطير سقوط خاتم الرسول ـ ﷺ ـ فيها من يد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، هذا كله يجعلنا نؤرخ لهذه البئر وإن لم يعد لها وجود في دنيا الناس.

روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنه توضأ في بيته، ثم خرج فقال: لألزمن رسول الله ـ ﷺ ـ ولأكونن معه يومي هذا، فجاء إلى المسجد فسأل عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: خرج وجّه ههنا قال: فخرجت على إثره أسأل عنه، حتى دخل بئر أريس.

قال: فجلست عند الباب وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله حاجته وتوضأ، فقمت إليه فإذا هو قد جلس على أريس وتوسط قفها، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، قال: فسلمت عليه، ثم انصرفت فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بواب رسول الله ـ ﷺ ـ اليوم.

فجاء أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، قال: ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، قال: فأقبلت حتى قلت لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة، قال: فدخل أبو بكر، وجلس عن يمين رسول الله معه في القُف، ودلّى رجليه في البئر كما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ وكشف عن ساقيه.

ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني، فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال: عمر ابن الخطاب.

فقلت: على رسلك، ثم جئت النبي ـ ﷺ ـ فسلمت عليه وقلت: هذا عمر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فجئت عمر فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله بالجنة، قال: فدخل فجلس مع رسول الله ـ ﷺ ـ في القف عن يساره، ودلّى رجليه في البئر.

ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يعني أخاه ـ يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك، قال: وجئت النبي ـ ﷺ ـ فأخبرته فقال: ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه، فجئت فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله بالجنة مع بلوى تصيبك قال: فدخل فوجد القف قد ملىء، فجلس وجاههم من الشق الآخر، قال شريك: فقال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم[1].

وروى البخاري عن أنس قال: كان خاتم النبي ـ ﷺ ـ في يده، وفي يد أبي بكر بعده، وفي يد عمر بعد أبي بكر، قال: فلما كان عثمان جلس على بئر أريس، فأخرج الخاتم فجعل يعبث به، فسقط، فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان، فنزحنا البئر فلم نجده[2].

وكان خاتم رسول الله ـ ﷺ ـ من الفضة، وكان منقوشاً عليه (محمد رسول الله) وقد ظل خاتم النبي في يد عثمان ست سنين من خلافته، فلما فقد عثمان الخاتم انتقض عليه الأمر وخرج عليه الخارجون. يقول السمهودي ـ رحمه الله ـ: وكان فيه سر مما كان في خاتم سليمان ـ عليه السلام ..... وكان ذلك مبتدأ الفتنة المتصلة إلى آخر الزمان[3].

وجاء في رواية أن الخاتم لم يسقط من سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولكنه سقط من يد رجل اسمه معيقيب، يقول ابن شبة ـ رحمه الله ـ: فلما كثرت عليه الكتب ـ أي على عثمان ـ دفعه إلى رجل من الأنصار، فكان يختم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه البخاري في الصحيح.

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٤٤).

به، فخرج إلى قليب لعثمان فوقع فيها ـ يعني الخاتم ـ فالتمس فلم يوجد، فأمر بخاتم من ورق ـ يعني من فضة ـ فعمل عليه، ونقش (محمد رسول الله).

ولكن رواية البخاري السابقة ترد هذه الرواية، حيث ثبت فيها أن عثمان وهو على بئر أريس (أخرج الخاتم، فجعل يعبث به فسقط) وهذا نص صريح في أن الخاتم سقط من عثمان ـ رضي الله عنه ـ في بئر أريس.

والبئران السابقان ـ بئر حاء وبئر أريس ـ غير موجودين الآن، ولكن مكان كل منهما معروف، والأحداث التي تذكر عنهما مشهورة.

جـ ـ بئر بُضاعة:

وهي بئر لا تزال موجودة بالمدينة المنورة في منطقة تسمى باسمها ـ حي بضاعة ـ وتقع في الشمال الغربي من بئر حاء ومن المسجد النبوي.

وكان حول هذه البئر بستانان: أحدهما يقع في شمالها والآخر في جنوبها، وقد عم العمران الحي مما تسبب في إزالة البساتين، فأما الذي في شمالها فقد صار موقفاً للسيارات لقربه من الحرم، وتحويل هذه الأموال الخاصة إلى مصالح عامة أمر مهم جداً، لما يحقق من مصلحة المسلمين، فقد خفف هذا الموقف الضغط على المواقف الأخرى، وتمكن بسببه كثير من المسلمين من وجود أماكن لسياراتهم حتى يدركوا الصلاة في الحرم النبوي الشريف.

وأما البستان الذي في جنوب البئر فقد حل محله عمارات ومبان أسهمت في تخفيف حدة الأزمة في المساكن حتى انفرجت الآن تماماً.

وقد ورد ذكر بئر بضاعة في الأحاديث الصحيحة، فقد كان يستعذب لرسول الله ـ ﷺ ـ الماء منها، فقيل له: إنه يستقى لك من بئر بضاعة، وهي بئر تلقى فيها لحوم الكلاب والمحائض وعُذَر الناس.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «الماء طهور لا ينجسه شي»[1].

وفي رواية للنسائي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: مررت بالنبي ـ ﷺ ـ وهو يتوضأ من بئر بضاعة، فقلت: أتتوضأ منها وهي يطرح فيها ما يكره من النتن؟

فقال ـ ﷺ ـ: الماء لا ينجسه شيء.

وروى الطبراني في المعجم الكبير عن سهل بن سعد أن النبي ـ ﷺ ـ «برَّك على بضاعة».

وذكر السمهودي عن المجد أن النبي ـ ﷺ ـ أتى بضاعة، فتوضأ من الدلو، وردها إلى البئر، وبصق فيها، وشرب من مائها، وكان إذا مرض المريض في أيامه ـ ﷺ ـ يقول: اغسلوني من ماء بضاعة، فيغسل فكأنما ينشط من عقال[2].

وقالت أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ: كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون[3].

ووصفها ابن النجار فقال: هذه البئر اليوم (أي في عهد ابن النجار في سنة ٦٤٠ هـ تقريباً) في بستان وماؤها عذب طيب، ولونها صاف أبيض، وريحها كذلك، ويستقى منها كثيراً[4].

وقول الرسول ـ ﷺ ـ: «الماء طهور لا ينجسه شيء» وقوله: «الماء لا ينجسه شيء» دليل على أن هذه البئر كانت غزيرة الماء كثيرته، لأن الماء إذا كان كثيراً، ولم يتغير لونه أو طعمه أو ريحه، فإنه لا ينجسه شيء مهما ألقي

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والنسائي.

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٩٥٧).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٥٧).

(٤) أخبار مدينة الرسول لابن النجار ص ٤٥.

فيه، وإنما ينجس إذا تغير أحد أوصافه قل أو كثر، ولذلك فإن الرسول ـ ﷺ ـ توضأ وشرب من بئر بضاعة بالرغم من أنها كانت بئراً تلقى فيها النجاسات والأقذار.

وقد اشترى البئر والحديقتين الشجاعي أحد أمراء المدينة، واتخذ هناك مسجداً وبركة وبنى هناك منزلاً، ثم آل ملك البئر والحديقتين إلى أولاد الشريف علي جيارة وأقفوها على الأسرة، وفي وقتنا الحاضر قام الشريف زيد بن شحات بن علي آل جيارة، بتخطيط الأرض التي حولها، وأقيمت فيها العمارات الضخمة والمباني الجميلة، وظلت البئر في داخل منزل الشريف زيد المشهور بـ ڤيلاَّ الشريف زيد، وقد حول البئر إلى بركة وجعل أمامها ديوانا يصعد إليه بدرج، وكثيراً ما كنا نجلس فيه بعد صلاة العصر مع الشريف زيد ابن شحات وكان يشاركنا الجلسة أحياناً فضيلة الشيخ عبد المجيد الجبرتي وكيل المحكمة الكلية في ذلك الوقت، والإمام الثاني للحرم النبوي الشريف بعد فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام الحرم الشريف ورئيس المحكمة الكلية، وقد استأجرت المكان الذي به البئر وزارة المعارف، وأصبحت الڤيلاَّ مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

د ـ بئر رومة:

بئر قديمة حفرت في الجاهلية، تقع في أسفل وادي العقيق، وهي في مدخل الحقول النموذجية لوزارة الزراعة، وجعلت بها مشاتل ومداجن وحظائر لأصائل الحيوانات[1].

وقد حث الرسول ـ ﷺ ـ المسلمين على شرائها بقوله: من يشتري رومة بِشِرْبِ رِوَاء في الجنة؟

وجاء في رواية: «نعم القليب قليب المزني، فاشترها يا عثمان، وتصدق بها»[2].

---

(١) آثار المدينة المنورة، (ص ٢٤٥).

(٢) وفاء الوفا (٣/ ٩٦٧).

وهكذا نلاحظ أن الرسول ـ ﷺ ـ حث المسلمين عموماً على شرائها، ثم اختار من بينهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وحرضه على شرائها.

لقد قدم الرسول ـ ﷺ ـ المدينة، وليس بها ماء يستعذب للشرب غير بئر رومة، وكان ـ ﷺ ـ حريصاً على أن يكون بالمدينة ماء يستعذب حتى يشرب المسلمون ويجدوا الماء المناسب، لهذا حرص على شراء رومة، حيث كانت المصدر الوحيد المعلوم في ذلك الوقت لاستعذاب الماء.

روى البغوي من طريق بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمُدٍّ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: بعنيها بعين في الجنة.

فقال: يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها.

فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أتجعل لي فيها ما جعلت له؟

قال: نعم.

قال: قد جعلتها للمسلمين[1].

يقول ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: واشترى عثمان ـ رضي الله عنه ـ بئر رومة، وكانت زكيَّة ليهودي يبيع المسلمين ماءها، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم، وله بها شِرب في الجنة؟

فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، وقال عثمان ـ لليهودي ـ: إن شئت جعلت على نصيبي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم.

قال: بل لك يوم ولي يوم.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥/٤٠٨).

فكان إذا صادف يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى ذلك اليهودي قال: أفسدت عليَّ ركيتي، فاشتر النصف الآخر، فاشتراه بثمانية آلاف درهم[1].

وكانت عامرة إلى عهد ابن النجار، فقد قال فيها: وقد انقضت خرزتها وأعلامها، إلا أنها بئر مليحة جداً، مبنية بالحجارة الموجَّهة..... ثم قال: وماؤها صاف، وطعمه حلو، إلا أن الأجون غلب عليه (والأجون تَغَيُّر لون الماء وطعمه)[2].

ولكنها خربت في عهد المطري ـ رحمه الله ـ فقال: وقد خربت، ونقضت حجارتها، وانطمت، ولم يبق منها اليوم إلا أثرها[3].

ثم جددت بعد ذلك، ورفع بناؤها عن الأرض نحو نصف قامة، ونزحت فكثر ماؤها، وكان تجديدها على يد قاضي مكة المكرمة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن المحب الطبري في سنة ٧٥٠هـ= ١٣٤٩م.

يقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري: وقد اعتور البئر خراب بعد خراب، كما عُمِّرت مراراً، روى المطري أنها كانت خربة في زمنه (القرن الثامن الهجري) وفي هذا القرن نفسه جددت ثم خربت فأحياها القاضي شهاب الدين الطبري، ولا نعلم هل عمارتها الحالية هي عمارة هذا القاضي أم كانت بعده؟[4]

كذلك ذكر الشيخ الأنصاري أنه يوجد على بعد نحو أربعين متراً من البئر آثار بناية ضخمة عَلَتْها الرمال..... ثم قال: فظهرت أسس هذه البناية الهائلة، وبدت تربيعات غرفها العظيمة، وقد عثر على قبرين فيها... وفيهما

---

(١) الاستيعاب حاشية الإصابة (٣/ ٧٢) والركيّة البئر به الماء.

(٢) أخبار مدينة الرسول (ص ٤٨).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٧١).

(٤) آثار المدينة المنورة، (ص ٢٤٥).

هياكل بشرية يقول: وقد رأيت أحد القبرين، فإذا شكله يدل على أنه قديم وجاهلي[1].

وهاتان البئران لا تزالان موجودتين إلى يوم الناس هذا، ويمكن لزائر المدينة المنورة أن يذهب إليهما، ويقف بنفسه على عينيهما.

فأما بئر بضاعة فهو قريب من الحرم يذهب إليه القاصد على قدميه بغير عناء، وأما بئر رومة فيحتاج إلى وسيلة نقل، ويمكن المرور عليه أثناء الذهاب إلى مسجد القبلتين، حيث يقع شماليه، وبعيداً عنه قليلاً.

ثانيا- المشاهد الكونية:

١- جبل أحد:

يقع في شمال المدينة المنورة، ويبعد عنها بنحو أربعة كيلومترات ونصف والطريق إليه ممهد مرصوف، وأصبح له الآن عدة طرق كلها موصلة إليه.

وسمي أحداً، لتوحده وانفراده، فليس هناك جبال تتصل به، وإن خيل إلى من ينظر إليه أنه مكون من عدة جبال لكثرة ما يبدو منه من الرؤوس والفجوات التي تتخلله.

ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ستة كيلومترات تزيد قليلاً أو تقل قليلاً، ويغلب على لونه الحمرة، وإن وُجد به أحجار مختلفة الألوان، وعروق متباينة الأشكال.

وجبل أحد يقع داخل حدود الحرم، لأن جبل ثور الذي هو الحد الشمالي للحرم يقع خلف أحد.

وعند جبل أحد كانت الغزوة المشهورة التي عرفت باسمه، والتي ابتلي فيها المسلمون بفقد سبعين شهيداً من خيرة مجاهديهم، وعلى رأسهم حمزة ابن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

---

(١) آثار المدينة المنورة، (ص ٢٤٤).

وفي فضل جبل أحد وردت أحاديث صحيحة، تدل على مكانته، وما يجب أن يكون شعور المسلمين نحوه، فعن أبي حُميد الساعدي قال: أقبلنا مع النبي ـ ﷺ ـ من غزوة تبوك فلما أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه»[1].

وكانت هذه عادة الرسول ـ ﷺ ـ كلما رأى أُحداً، فعند عودته من غزوة خيبر وعند عودته من حجة الوداع[2] وحتى إذا خرج من منزله ورأى أُحداً قال ذلك، بل كان كلما قدم من سفر قال ذلك، فعن أبي قلابة قال: كان النبي ـ ﷺ ـ إذا جاء من سفر فبدا له أُحد قال: هذا جبل يحبنا ونحبه، ثم قال: آيبون تائبون ساجدون لربنا حامدون[3].

ويزعم كثير من الناس أن في جبل أحد غاراً اختفى فيه النبي ـ ﷺ ـ كما يزعمون أن فيه صخرة منقورة بقدر رأس الإنسان، وأن الرسول أدخل رأسه في الصخرة المنقورة وهذا كله باطل لم يرد به شيء يعتمد عليه.

كما يزعم بعض المؤرخين أن هارون وموسى ـ عليهما السلام ـ مرَّا بالمدينة عند عودتهما من الحج أو العمرة، وأنهما خافا اليهود، فنزلا أحداً وهارون مريض، فحفر له موسى قبراً بأحد وقال: يا أخي ادخل فيه فإنك ميت، فدخل فيه، فلما دخل قبضه الله، فحثا موسى عليه التراب[4].

وهذا زعم مردود على قائله لأمور: **أولها** أن اليهود لم يأتوا المدينة إلا بعد الميلاد بحوالى سبعين سنة تحت ضغط القائد الروماني تيطس حين غزا اليهود وشتت شملهم وهذا ما حققه المؤرخون الموثوقون، **ثانيها** أن موسى وهارون بعد حجهما أو عمرتهما ثبت أنهما رجعا إلى أرض فلسطين، وأن هارون ـ عليه السلام ـ مات في فترة التيه ودفن هناك، وهذا أيضاً ما أثبته

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٩٢٥).
(٢) رواهما البخاري.
(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٢٥).
(٤) وفاء الوفا (٣/ ٩٢٩).

المحققون من المؤرخين، **وثالثها** ما ذكره السمهودي وهو ينقد هذا القول حيث قال: وهو بعيد حساً ومعنى، وليس ثم ما يصلح للحفر وإخراج التراب[1].

وقد ورد أن الرسول ـ ﷺ ـ صعد جبل أحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ فاهتز الجبل وانتفض، فقال الرسول ـ ﷺ ـ: «اسْكُن أحد فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان»[2].

وفي الجنوب من جبل أحد يقع جبيل صغير، هو جبل عينين، المعروف بجبل الرماة وهو الجبل الذي أوقف عليه الرسول ـ ﷺ ـ خمسين رامياً في غزوة أحد، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم، فلما رأوا المسلمين يجمعون الغنائم تركوا أماكنهم، ليشاركوهم في الغنائم، فاجتمع في العمل خطآن: **الأول**: الحرص على جمع متاع الدنيا وهو أمر ما كان ليفوتهم لو ظلوا في أماكنهم **والثاني**: مخالفتهم لأمر الرسول ـ ﷺ ـ، فكان ذلك مما أدى إلى محنة المسلمين في تلك الغزوة.

وبين الجبلين: جبل أحد وجبل الرماة، تقع قبور الشهداء، فقد كانت تلك الساحة هي الميدان الذي دارت فيه المعركة، وكانت شرسة وقاسية، واستشهد فيها سبعون من المسلمين، وأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يدفن الشهداء في مصارعهم وكان بعضهم قد حمله أهله، وذهبوا به إلى المدينة، فأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يدفنوا حيث يدركون.

عن أبي سعيد الخُدري قال: أمر رسول الله ـ ﷺ ـ من نقل من شهداء أحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا، فأدرك أبي مالك بن سنان عند أصحاب العباء فدفن، ثم قال ابن أبي فديك: فقبره في المسجد الذي عند أصحاب العباء، في طرف الحناطين[3].

---

(١) وفاء الوفاء (٣/ ٩٣٠).

(٢) رواه البخاري في مناقب عثمان.

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٤١).

وحول جبل أحد الآن أحياء سكنية حديثة، وزودتها الحكومة بالمرافق اللازمة كالمدارس والمستوصفات الصحية والمساجد وأقسام الشرطة وغيرها.

٢ ـ جبل سَلْع:

جبل يقع شمال المدينة، وأصبح الآن ضمن إطارها، وبين أحيائها، وحجارته سوداء كما يشاهدها الناظر إليه، وعلى جانبه الشرقي تقع (دكة جلال) وهي دكة بناها رجل اسمه جلال، وفي سفحه الغربي يقع كهف بني حرام، وهو الكهف الذي كان ينام فيه الرسول ـ ﷺ ـ أثناء غزوة الخندق، قبل أن تنزل الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

وفي شمال الكهف المذكور يوجد مسجد الفتح على طرف من أطراف جبل سلع، وهو المكان الذي دعا فيه الرسول ـ ﷺ ـ على الأحزاب ثلاثة أيام حتى استجيب له، وتم الفتح، ولهذا سمي مسجد الفتح.

وعلى قمته يوضع مدفع الإفطار الذي ينطلق عند أذان المغرب مؤذناً بغروب الشمس، وحلول موعد الإفطار.

وفي شعب بني حرام يوجد مسجدهم الذي جُدد، وأصبح مسجداً عاماً تصلى فيه الصلوات الخمس، ويؤم الناس فيه إمام من قبل وزارة الحج والأوقاف.

وقد صح أن جارية للصحابي الجليل كعب بن مالك كانت ترعى غنماً لهم بالجبيل الذي بالسوق ـ وهو سلع ـ[2].

ووجد في أعلى سفحه الجنوبي كتابة أثرية بالخط الكوفي القديم نصها (أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان إلى الله من كل ما يكره) (يقبل الله عمر، الله يعامل عمر بالمغفرة).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) رواه البخاري.

يقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري: وقد أفادنا إبراهيم رفعت في كتابه المذكور (مرآة الحرمين) بأن هذه الكتابة أثرية حقاً، وبأنها بخط الصحابيين الجليلين بإثبات علمي أورده في كتابه[1].

روى الأصمعي أن حبابة جارية يزيد بن عبد الملك ـ وكانت من أحسن الناس وجهاً ومسموعاً ـ وكان ـ يزيد ـ شديد الكلف بها، وكانت قد نشأت في سلع، غنته يوماً:

لعمرك إنني لأحب سلعا ... لرؤيته ومن أكناف سلع
تقرُّ بقربه عيني وإني ... لأخشى أن يكون يريد فجعي

وتنفست الصعداء، فقال لها: لِم تتنفسين؟ والله لو أردته لنقلته إليك حجراً حجراً.

فقالت: وما أصنع به؟ إنما أردت ساكنيه.

٣ ـ جبلا ثوْر وعَيْر:

والجبلان هما حدا المدينة شمالاً وجنوباً ـ أي أن ما بينهما من الشمال إلى الجنوب حرم لا يعضد شجره، ولا ينفر صيده ـ فأما ثور فهو جبيل صغير لونه أحمر وموقعه شمال جبل أحد ـ أي خلفه ـ ومن خلف ثور يمر الطريق الموصل من المطار إلى جدة ويعرف عند الناس بطريق الخواجات، لأنه روعي في اتخاذه طريقاً أن يكون خارج حدود الحرم حتى يستطيع أن يسير فيه غير المسلمين.

وأما عير فجبل كبير مشهور لونه أسود، وموقعه جنوب المدينة، قريب من ذي الحليفة المشهورة (بآبار علي) ميقات أهل المدينة، وفي الغرب منه يمر طريق الهجرة السريع الموصل إلى جدة ومكة.

ولا أدري لماذا أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن عيراً هذا على باب من أبواب

---

(١) آثار المدينة المنورة (ص ٢٠٥).

النار، فقد روى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط عن أبي عبس بن جبر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، وهذا عَيْر جبل يبغضنا ونبغضه على باب من أبواب النار.

إننا نفهم من قول الرسول ـ ﷺ ـ عن جبل أحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، نفهم من ذلك أن الرسول يعالج به مشكلة نفسية لا بد من معالجتها ليستعيد المسلمون حيويتهم ونشاطهم للجهاد في سبيل الله، فإن الهزيمة التي مني بها المسلمون يوم أحد تركت في نفوسهم آثاراً قد تنعكس تشاؤماً وانصرافاً عن جهاد أعداء الله، حيث من المعلوم أن الإنسان يتشاءم من المكان الذي يصيبه فيه مكروه، ويؤدي به التشاؤم إلى كراهية المكان والرغبة في عدم رؤيته، كما يسبب له عقداً نفسية، يصعب علاجها إذا طال عليها الزمن.

ومن هنا جاء قول الرسول ـ ﷺ ـ عن أحد: هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من أبواب الجنة، لأن هذا القول يزيل عن نفوس المسلمين التشاؤم من الجبل، ويعالج الحالة النفسية التي أصيبوا بها بعد ما حصل عند جبل أحد.

ولكني لم أجد تعليلاً لقول الرسول ـ ﷺ ـ عن جبل عير: وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه، على باب من أبواب النار؛ ولم أطلع لأحد من العلماء على تعليل له، فنفوض معنى ذلك إلى علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونسأله أن يفقهنا في ديننا.

٤ ـ الحرتان الشرقية والغربية:

مثنى حرَّة، والحرة أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها محروقة بالنار، ويكتنف المدينة المنورة حرتان: إحداهما من جهة الشرق، وتعرف بالحرة الشرقية، وهي الحرة المعروفة تاريخياً بحرة واقم، سميت باسم أُطُم ـ أي حصن ـ قديم كان فيها.

والحرة الشرقية تضم مساكن اليهود، لأنها تعتبر حصوناً طبيعية لمن يسكنها، لهذا نزلها بنو النضير وبنو قريظة من اليهود، واتخذوا مساكنهم فيها.

وهي الحد الشرقي لحرم المدينة، وهي إحدى اللابتين اللتين قال فيهما رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما بين لابتيها حرام»[1].

والثانية من جهة الغرب، وتعرف بالحرة الغربية، وتعرف عند المؤرخين بحرة الوبرة، وهي الحد الغربي لحرم المدينة، وهي كذلك اللابة الثانية الواردة في الحديث السابق.

وفي هذه الحرة، وبالتحديد في الجزء الغربي من القسم الأوسط كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقيم حد القتل على من وجب عليه الحد، وهناك أقام حد القتل على العُرنيين الذين سرقوا إبله، وقتلوا راعيه.

وفي الطرف الجنوبي لهذه الحرة، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي، ومنع أباه ـ زعيم الخزرج ـ من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك لأن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ سمع أن أباه وصف رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه الأذل، وذلك حين عودتهم من غزوة بني المصطلق، وقد حكى القرآن الكريم عنه ما قاله، وجاء ذلك في سورة (المنافقون) قال ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[2].

ويعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ـ ﷺ ـ فلما سمع عبد الله ـ رضي الله عنه ـ مقالة أبيه، وقف له في طرف الحرة الغربية الجنوبي، ومنعه من دخول المدينة، وقال له: والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ لكي تعرف من الأذل، أنت أم رسول الله ـ ﷺ ـ؟

وعلم رسول الله بموقف عبد الله من أبيه، فأرسل إليه أن اتركه، وأقبل عبد الله ـ رضي الله عنه ـ إلى الرسول وقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه.

---

(١) رواه البخاري في فضائل المدينة.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»[1].

والحرتان الشرقية والغربية تلتقيان معاً في الجهة الجنوبية للمدينة المنورة.

وهما الآن أصبحتا مدينتين حديثتين، فيهما الشوارع الفسيحة، والعمارات الضخمة، والقيلّات الأنيقة، والحدائق النضرة، والميادين الواسعة، والأسواق العامرة، والمطاعم الفاخرة، والمرافق الحيوية الهامة للصحة والتعليم والأمن والمخابز ومحطات الوقود.

ومن يبحث في الأماكن التي لم تعمَّر في الحرة الشرقية، يرى فيها آثار حضارة قديمة، ففيها آثار لدور وقصور، ويعثر على قطع الفخار الملونة بالألوان الزاهية، كما يرى صهريجاً للماء، مما يدل على أن هذه الحرة كانت عامرة بالسكان، قبل أن يعمرها المسلمون.

وبالحرة الشرقية كانت واقعة الحرة التي سنتكلم عنها في المشاهد العسكرية إن شاء الله ـ تعالى ـ وفي جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤هـ = ١٢٥٦م انفجر بركان هائل، اندلعت منه نار شديدة التوهج، حتى فزع أهل المدينة من هولها، وخلف وراءه كثيراً من أحجار الحرة الموجودة إلى يومنا هذا.

يقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري في وصف الحرة الشرقية: وقد شاهدنا في هذه الحرة فوهة بركانية ذات شق مستطيل جداً، من فوق (دشم) وعندما رأيناها لأول مرة، ظننا أنها من آثار الإنسان القديم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١١٦).

ولكنَّ تتبعي لشقها الملتوي أثبت في نظري أنها من الآثار الطبيعية، وبقرب طريق العُرَيْض من هذه الحرة تلول عظيمة، من أطلال الآطام ـ الحصون ـ والدور التي كانت مشيدة بهذه الحرة[1].

٥ ـ ثنية الوداع:

كثر الكلام بين من كتبوا عن المدينة المنورة عن ثنية الوداع وكان مدار البحث حول النشيد الذي اشتهر بأن الأنصار استقبلوا به الرسول ـ ﷺ ـ وهو مهاجر من مكة إلى المدينة، وهو:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحبا يا خير داع

هذا النشيد ينسبه المؤرخون إلى أن ولدان المدينة استقبلوا به الرسول ـ ﷺ ـ وهو قادم إليها حال هجرته، والمعلوم أن الرسول لما هاجر، لم يدخل المدينة من طريقها المألوف، وإنما اتجه نحو اليمين في اتجاه قباء ونزل على بني عمرو بن عوف وأقام هناك أياماً، وضع خلالها أساس مسجد قباء، ثم ارتحل إلى المدينة.

والمعلوم كذلك جغرافياً أن قباء تقع جنوبي المدينة، وثنية الوداع تقع عند مدخل المدينة من جهتها الشمالية، فكيف استقبل ولدان المدينة الرسول ـ ﷺ ـ عند ثنية الوداع، وهو لم يدخل المدينة من جهتها التي تقع فيها ثنية الوداع؟

ومن هنا يعزو المؤرخون استقبال الرسول بهذا النشيد عند عودته من غزوة تبوك لا يوم الهجرة، فهو ـ ﷺ ـ عند عودته من تبوك يدخل المدينة من جهتها الشمالية التي تقع فيها ثنية الوداع.

---

(١) آثار المدينة المنورة (ص ٢١١).

ونسب بعض المؤرخين استقبال الرسول ـ ﷺ ـ بهذا النشيد عند عودته من غزوة خيبر، والأمر كذلك عند عودته من خيبر لأنه يدخل المدينة من جهتها الشمالية.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وبعض الرواة يَهِم في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراهما القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام[1].

وهذا يدل على أن ثنية الوداع واقعة في جهة المدينة الشمالية، التي هي طريق المسافر إلى الشام، وهذا لا يمنع أن تكون هناك ثنية وداع أخرى في الجنوب في جهة قباء، وقد أثبتها كثير من العلماء كالحافظ ابن حجر والداوودي والمجد الفيروز آبادي، وقالوا: إنها ثنية مشرفة على العقيق والمدينة، وهي بهذا الوصف تكون في طريق القادم من مكة[2].

وعلى هذا يكون الخلاف في استقبال النبي ـ ﷺ ـ بالنشيد، هل كان يوم الهجرة أم يوم العودة من تبوك؟

والأرجح أنه كان يوم العودة من تبوك، لأن كبار كتاب السيرة والتاريخ لم يثبتوا هذا النشيد عند استقبال أهل المدينة للرسول ـ ﷺ ـ يوم الهجرة، ولم يقله إلا ابن كثير ـ رحمه الله ـ نقلاً عن البيهقي، ولكن البيهقي بعد أن ذكر الخبر في القدوم من غزوة تبوك، قال: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة، وقد ذكرناه عنده، إلا أنه إنما قدم المدينة من ثنية الوداع عند مقدمه من تبوك.

وإذا كان كبار المؤرخين كالطبري وابن هشام وابن سعد وابن إسحاق لم يذكروا هذا النشيد في حوادث الهجرة فإن ذلك يجعلنا نقطع بأن النشيد كان يوم العودة من غزوة تبوك.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٠) تحقيق حامد الفقي.

(٢) وفاء الوفاء (٤/ ١١٧١).

أما لماذا سميت هذه الثنية بثنية الوداع، فالمؤرخون، يجيبون عن ذلك بما يأتي.

نقول أولاً: أن معنى الثنية هو الطريق في الجبل، وثانياً: أن هذه الثنية كانت تعرف بثنية الركاب، ثم عرفت بعد بثنية الوداع.

روى الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا ومعنا النساء اللاتي استمتعنا بهن حتى أتينا ثنية الركاب، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء النسوة اللاتي استمتعنا بهن.

فقال: هن حرام إلى يوم القيامة، فودعناهن عند ذلك، فسميت ثنية الوداع، وما كانت قبل إلا ثنية الركاب، وقيل إنها سميت بذلك لأنهم كانوا يودعون المسافر عندها[1].

وروى البخاري عن السائب بن يزيد قال: أذكر أني خرجت مع الصبيان، نتلقى النبي ـ ﷺ ـ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك.

ويعلق السمهودي ـ رحمه الله ـ على ذلك فيقول: وكل هذه الروايات متظاهرة على أن هذه الثنية هي المعروفة بذلك اليوم في شامي المدينة (أي شمالها) بين مسجد الراية الذي على ذباب، ومشهد النفس الزكية، يمر فيها المار بين صدين مرتفعين قرب سلع[2].

وهذه الثنية كانت قائمة مشاهدة إلى عهد قريب جداً، وكان فوقها مسجد يقال له: مسجد ثنية الوداع، وقد هدم المسجد، وأزيلت الثنية، لتوسعة المثلث الذي يفرق بين طريق سيد الشهداء الموصل إلى جبل أحد، وبين طريق سُلطانه الموصل إلى الجامعة الإسلامية.

وقد وعدتْ أمانة المدينة المنورة بإقامة مسجد في المكان نفسه للحفاظ

---

(١) وفاء الوفا (٤/ ١١٧٠).

(٢) نفسه (٤/ ١١٦٩).

على الأثر المشهور تاريخياً، نسأل الله أن يوفق القائمين على هذا العمل لبناء مسجد يخلد الأثر، ويبقي هذه التسمية الحبيبة إلى نفوس المسلمين.

وثنية الوداع هذه طريق في جبل سَلْع من جهته الجنوبية الشرقية، على يمين المتجه إلى جبل ذباب الذي يقع عليه مسجد الراية الذي تكلمنا عنه في المساجد السابقة.

ثالثاً ـ المشاهد الأثرية:

١ ـ حصن كعب بن الأشرف:

يقع هذا الحصن في الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة، وبينه وبين المدينة حوالي عشرة كيلومترات، وفي هذه المنطقة كانت منازل يهود بني النضير الذين هم خؤولة كعب بن الأشرف.

والحصن مبني على هضبة من الحرة الجنوبية الشرقية للمدينة، ويبلغ طوله حوالي خمسة وثلاثين متراً، في عرض ثلاثين متراً تقريباً، وقد تهدم وانتقضت أحجاره، وما بقي من جدرانه يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار تقريباً، وسمك الجدار متر.

ولا يوجد فيه أثر للنقوش التي كان اليهود يزينون بها بيوتهم عادة، ولعله خلا من النقوش لأنه بني بناية عسكرية، أو يكون أهله قد رفعوا ما فيه من النقوش والزينة ونقضوا ما كان به من الزخرفة عند إجلائهم عن المدينة، فقد روى أهل السير والمغازي أن يهود بني النضير لما أجلاهم رسول الله ـ ﷺ ـ عن المدينة، سمح أن يحملوا معهم كل ما يطيقون ما عدا السلاح، يقول ابن هشام ـ رحمه الله ـ:

فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به[1].

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ٩٩٥).

ولم يكن للحصن سوى باب واحد في جهته الغربية، وله أبراج لم يبق منها إلا اثنان من جهته الغربية، ويقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ: إن الحصن كان له ثمانية أبراج ضخام، بناؤها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة، وطول بعضها مائة وأربعون سنتمتراً، وعرضها ثمانون سنتمتراً، وسمكها أربعون سنتمتراً[1].

ثم يقول: وبوسطه رحبة واسعة مربعة، تبلغ مساحتها ألف متر مربع، وهي غير مرصوفة ولا مبلطة[2].

ويظهر في داخل الحصن بقايا بعض غرفة محددة، ولكنها غير مكتملة البناء، ويبدو أنه كان مكوناً من طابقين، فلا زال بعض الدرج الذي يصعد عن طريقه إلى الطابق الثاني موجوداً.

والحصن مبني بحجارة سود ضخمة، وأرضية رحبته من حجارة الحرة التي بني في طرفها، وفي الجانب الجنوبي الغربي منه بئر متصلة بداخل الحصن بفتحة لها درج يؤدي إلى البئر ليشرب منها المتحصنون به إذا طال الحصار، وانتهى ما عندهم من الماء، وبداخله مستودع لتخزين ما يحتاجون إليه من أنواع الطعام.

ومن المعلوم أن الرسول ـ ﷺ ـ حاصرهم قبل الجلاء خمسة وعشرين يوماً أو خمسة عشر يوماً، ولم يحتاجوا طول هذه المدة إلى شيء من الماء أو الطعام مما يدل على أن الحصن كان مزوداً بكل ما يحتاج إليه المتحصنون به، بحيث تكفيهم لمدة طويلة.

أما صاحب الحصن فهو كعب بن الأشرف رجل من طيء، وأحد بني نبْهان، وأمه يهودية من بني النضير، ويسوقنا هذا لنتناول مسألة اختلف فيها اليهود قديماً وحديثاً، بل لا زالت مطروحة للمناقشة في الكنيست الإسرائيلي،

---

(١) آثار المدينة المنورة (ص ٦٥).

(٢) آثار المدينة المنورة (ص ٦٥).

وتلك المسألة هي تعريف اليهودي، أو باختصار من اليهودي الذي لا يختلف اليهود في نسبته إليهم؟

يعترف اليهود بنسبة من يولد من أبوين يهوديين إلى اليهودية دون خلاف، ويأتي الخلاف بعد ذلك فيمن يولد لأم يهودية وأب غير يهودي، فالمتعصبون لليهودية لا يرون أنه يهودي ينتسب إلى اليهودية، لأن في تكوينه عنصراً غير يهودي، والمعتدلون منهم يرون أنه يهودي، لأن المهم عندهم هو الوعاء الذي حمله نطفة، ووضعه طفلاً، وذلكم يتوفر في الأم بلا نزاع، ولو كان ولد زنية، فهو لم يفقد عنصر اليهودية مرة.

وأما الذي يولد من أب يهودي وأم غير يهودية، فهم لا يعترفون به يهودياً، لأن من المحتمل أن تكون أمه زنت فأتت به من غير أبيه اليهودي، وعلى هذا يكون الطفل قد فقد عنصر اليهودية، فلا يرون لهذا إلحاقه بشعب الله المختار، ولو اعترف به والده ونسبه إليه.

وعلى هذه الأسس لا زال اليهود يطرحون للبحث تعريف اليهودي، ولم يتفقوا فيه على أمر قاطع.

على كل حال فإن كعب بن الأشرف وإن كان أبوه عربياً نبْهانياً فهو يهودي عند اليهود لأن أمه يهودية من بني النضير، بل كانوا يعتبرونه من ساداتهم وذوي المكانة الرفيعة فيهم.

كان كعب شاعراً، وكان عدواً حاقداً على المسلمين كغيره من اليهود، فلما انتصر المسلمون في غزوة بدر، وجاءت الأخبار إلى المدينة بانتصار المسلمين، وهزيمة المشركين، تأججت النار في قلب كعب، وأخذ يهجو رسول الله ـ ﷺ ـ وذهب إلى مكة، وأخذ يحرض المشركين على رسول الله، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا يوم بدر[1].

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٨١٣).

ثم رجع إلى المدينة وراح يشبِّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: من لي بابن الأشرف؟

فقال محمد بن مَسْلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله[1].

واتفق محمد بن مسلمة مع جماعة من الأوس على قتل كعب، وكان فيهم سلكان بن سلامة وهو أخو كعب من الرضاعة.

واستأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ في أن يقولوا فيه كلاماً يحتالون به على كعب ليصدقهم فيما يقولون، فأذن لهم[2].

ذهب إليه أخوه من الرضاع أبو نائلة سلكان بن سلامة، وناداه ليلاً، فأجابه، فأخذت زوجه بطرف ملحفته، وقالت: أنت رجل محارب، كيف تخرج في مثل هذا الوقت؟

فقال لها: إنه أخي أبو نائلة، ولو رآني نائماً ما أيقظني، ثم قال: لو دعي الفتى إلى طعنة لأجاب[3].

نزل كعب من حصنه، وبادر أبا نائلة بالتحية والسلام، وقال له أبو نائلة: إني قائل لك كلاماً فاكتم عني، قال: أفعل.

قال أبو نائلة: إنما جئت أخبرك أن قدوم هذا الرجل كان علينا من البلاء؛ حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، نحن نريد التنحي منه، ومعي رجال من قومي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً وتمراً، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة.

فقال كعب: جيء بهم متى شئت[4].

وعن ابن كثير ـ رحمه الله ـ أن الذي ذهب إلى كعب محمد بن مسلمة، وطلب منه سلفة، فقال كعب: نعم، ارهنوني.

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٨١٧)، والتشبيب: ذكر محاسن النساء.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٢).

(٣) السيرة النبوية (٢/ ٨١٩).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٢).

قلت: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فارهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين هذا عار؟ ولكن نرهنك اللأمة ـ يعني السلاح ـ[1].

يقول ابن هشام: إن سلكان عرض عليه رهن السلاح، حتى لا ينكر كعب مجيئهم بالسلاح عندما يحضرون به ليلاً[2].

ورجع سلكان إلى أصحابه، وأخبرهم بما كان بينه وبين كعب، وأمرهم بأن يلبسوا سلاحهم ويذهبوا إلى كعب حسب الموعد، واجتمع القوم عند رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يذهبوا إلى كعب، ومشى رسول الله ـ ﷺ ـ معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم، ثم رجع رسول الله إلى بيته، وهو في ليلة مقمرة[3].

وتوجه القوم إلى الحصن، وهتف أبو نائلة منادياً كعب بن الأشرف، ووثب كعب مجيباً، ونزل إليهم، فحادثوه ساعة حتى انبسط إليهم وأنس بهم.

كان كعب حديث عهد بعرس، ولكنه نزل إلى القوم، وترك فراشه وزوجه في ساعة متأخرة من الليل، لم يكن مثله وفي مثل ظروفه ليترك زوجه وينزل إلى أصحابه مهما كانت الظروف.

وإني أعتقد أن كعباً لم ينزل إليهم شهامة كما زعم حين قال: لو دعي الفتى ليلاً إلى طعنة لأجاب، ولم ينزل إليهم لأن فيهم رضيعه أبا نائلة، ولكن هناك عوامل خفية تعتمل في نفس كعب هي التي جعلته يستجيب للنداء، ولا يعبأ بتحذير زوجه.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٥، ٦).

(٢) السيرة النبوية (٢/ ٨١٨).

(٣) السيرة النبوية (٢/ ٨١٨).

تلك العوامل تتلخص في أمرين: **الأول**: رغبة كعب الملحة في صرف أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ عنه، وكان يعتقد أنه لو أسلفهم وزودهم بما يحتاجون إليه سيكون ذلك داعياً لهم للانصراف عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقد يتبع هؤلاء غيرهم من جماعتهم.

الثاني: أنهم جاؤوا والصفقة تجارية قد تدر لكعب ربحاً هائلاً إذا هم عجزوا عن السداد، وكثيراً ما يسيل لعاب اليهود لمثل هذ الصفقات التي يرجون من ورائها ربحاً وفيراً، وخيراً غزيراً.

على كل حال نزل كعب، مهما كانت العوامل والدوافع، وحادثهم وحادثوه، وأنس بهم، واستعدوا له، وقال أحدهم: ما أطيب ما نجد من هذا الطيب، إننا لم نجد قبل هذه الليلة عطراً أطيب من ذلك.

وقال آخر: أتأذن لي أن أشم رائحة الطيب في رأسك، وأدخل أبو نائلة يده في شعره، وأخرجها وشمها، واستحسن الطيب في رأسه، وظلوا معه كذلك حتى اطمأن لهم تماماً وعندئذ أدخل أبو نائلة يده في شعره، وأخذ بقرون رأسه، وقال لأصحابه: اقتلوا عدو الله.

فضربوه بأسيافهم فاصطدم بعضها ببعض، ولم تؤثر فيه شيئاً، ورد بعضها بعضاً، ولصق عدو الله بأبي نائلة، كأنه يريد أن يتقي به الموت.

قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً كان في سيفي، فانتزعته فوضعته في سرته، ثم تحاملت عليه فقططته حتى انتهى إلى عانته، فصاح عدو الله صيحة ما بقي أطم من آطام يهود إلا أوقدت عليه نار، ثم حزوا رأسه، وحملوه معهم[1].

وأقبلوا على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلي، فسلموا عليه، فخرج إليهم، فأخبروه بقتل عدو الله، وكان أحدهم وهو الحارث بن أوس قد أصابته جراحة

---

(١) الطبقات (٢/ ٣٢، ٣٣) والمغْول سيف دقيق صغير يخبأ في سوط أو سيف، وسمي مغولا لأن صاحبه يغتال به.

في رجله أو في رأسه عندما اختلفت سيوفهم فتفل رسول الله ـ ﷺ ـ على جرحه فبرىء، ورجعوا إلى أهليهم[1].

٢ ـ سقيفة بني ساعدة:

تقع سقيفة بني ساعدة في قريتهم المعروفة بقرية بني ساعدة، وهي التي تقع بئر بضاعة في وسطها، كذلك مسجد بني ساعدة، وهذه القرية كما سبق عند الكلام على بئر بضاعة، تكون في الشمال الغربي للمسجد النبوي.

وهناك بالقرب من ثنية الوداع يكون موقع السقيفة، حيث كانت هناك جرار سعد، التي كان يسقي منها سعد بن عبادة الناس بعد وفاة أمه، وكأنه جعلها سبيلا صدقة لأمه.

فبيت سعد ـ رضي الله عنه ـ هو نفسه المكان المعروف بجرار سعد، يقول السمهودي ـ رحمه الله ـ: إما أن تكون جرار سعد مما يلي السوق من جهة الشام، ويكون المصلى حده القبلي، وهذا هو الأرجح، لأن الجهة التي بالمشرق مما تقدم إنما هي من منازل بني زريق، والله أعلم[2].

والسقيفة كانت قرب بيت سعد، لأنه عندما توفي الرسول ـ ﷺ ـ كان مريضاً وذهب الأنصار إليه لمرضه والتقوا هناك في السقيفة، ودارت المناقشة كما سنبينه.

وقد نص المطري على أن قريتهم كانت عند البئر، وأن بئر بضاعة كان وسط بيوتهم[3].

وكان السمهودي يقول إنها وسط المدينة عند السويقة، ثم عدل عن ذلك فقال: وأما سقيفة بني ساعدة فيظهر أنها في منزلهم الثالث، وهو منزل

---

(١) البداية والنهاية (٤/٨).
(٢) وفاء الوفا (١/٢٠٩).
(٣) نفسه (١/٢٠٨).

بني أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف، لأنهم رهط سعد، ولأن جراره التي كان يسقي فيها الماء بعد وفاة أمه كانت هناك، ..... وذلك في شامي سوق المدينة قرب ذباب.

ثم قال: وقد ترجح الآن خطأ ما قدمته هناك من احتمال أن تكون جرار سعد عند الموضع المعروف اليوم بسقيفة بني ساعدة[1].
ونستطيع أن نقول بعد ذلك إن سقيفة بني ساعدة تقع في الشمال الغربي للمسجد النبوي قريباً من بئر بُضاعة، وفي الشمال الشرقي للمسجد المعروف عند العامة بمسجد السبق قرب موقف السيارات.

وأما قول الشيخ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ عن مكان السقيفة: وتحديده بالدقة أنه كان بخارج باب الشامي في الطريق المعروف بالسحيمي[2].

فهو في الحقيقة تحديد غير دقيق، وكذلك ما قاله الشيخ محمد غالي الشنقيطي: ويقع مكان السقيفة اليوم في نهاية شارع السحيمي، وعلى يسار المتجه غرباً، حيث صارت حديقة جميلة في مكان السقيفة، وأطلق عليها اسم (حديقة السقيفة)[3].

هذا التحديد من الشيخ الأنصاري والشيخ الشنقيطي تنقصه الدقة، فقد سايرا فيه ما كان شائعاً عند العامة من أهل المدينة، فهذا الموضع وإن كان قريباً من بئر بضاعة إلا أنه ليس في شمال البئر، ولكنه في جنوبه الغربي.

وقد رجح السمهودي ـ رحمه الله ـ أن السقيفة كانت شمالي سوق المدينة قرب ذباب، والمكان الذي حدده الشيخ الأنصاري ـ رحمه الله ـ والشيخ الشنقيطي ـ حفظه الله ـ كان إلى الشرق من سوق المدينة، وليس إلى شماله.

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٨٥٩، ٨٦٠).
(٢) آثار المدينة المنورة (ص ١٥٧).
(٣) الدر الثمين (ص ٢٢٦).

وبناء على ما قاله مؤرخو المدينة السابقون يكون مكان السقيفة بالتحديد هو بداية شارع الستين من جهة الغرب الآن، وهو المفرق المؤدي شمالاً إلى جبل أحد وإلى الجامعة الإسلامية.

مكانة السقيفة تاريخياً:

لسقيفة بني ساعدة مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، لأن الرسول ـ ﷺ ـ جلس فيها كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أسماء بنت النعمان، وهي الجوينية، أن الرسول ـ ﷺ ـ لما دخل عليها قالت: أعوذ بالله منك، فقال ـ ﷺ ـ لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك.

فلما خرج من عندها، توجه ـ ﷺ ـ إلى سقيفة بني ساعدة، فجلس فيها هو وأصحابه ثم قال: اسقنا يا سهل.

يقول سهل: فخرجت لهم بهذا القَدَح فسقيتهم فيه.

ولأنها المكان الذي جرت فيه بيعة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أول خليفة للمسلمين بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وبيعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ قد حسمت شراً مستطيراً كاد أن يفرق كلمة المسلمين، والإسلام لا يزال غضاً، فإنه لما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ اجتمع الأنصار على سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ في السقيفة، وانحاز المهاجرون إلى أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وانحاز معهم من الأنصار أسيد بن حضير من بني عبد الأشهل، واعتزل علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ .

وجاء الخبر إلى أبي بكر وعمر بما اجتمعت عليه الأنصار في السقيفة، ورسول الله ـ ﷺ ـ لم يزل في بيته لم يدفن بعد، فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه[1].

---

(١) السيرة النبوية (٤/ ١٥١٥).

قال: فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم، فقالا:

أين تريدون يا معشر المهاجرين؟

فقلت: نريد إخواننا من الأنصار.

فقالا: لا عليكما ألا تقربوهم، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين.

فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مزَّمل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد ابن عبادة.

فقلت: ماله؟ قالوا: وجع.

فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفَّت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتغصبونا الأمر[1].

قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر.

فكرهت أن أغضبه، فتكلم وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته أو مثلها، أو أفضل حتى سكت[2].

قال: فقام الحباب بن المنذر ـ وكان بدرياً ـ فقال: منا أمير ومنكم أمير، فإنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليها، أو قال: يليه، أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم.

قال: فقال له عمر: إذا كان ذلك فمت إن استطعت[3].

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٤٦).

(٢) السيرة النبوية (٤/ ١٥١٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٢).

وإلى هنا ونلاحظ أن الحوار بين الطرفين: الأنصار والمهاجرين كان هادئاً وملتزماً، غير أن كلمة الحباب ـ رضي الله عنه ـ (ولكنا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم) تشير إلى اتهام المهاجرين ـ رضي الله عنهم ـ بالانتقام وعدم الإنصاف إذا ولي الأمر رجل منهم قتل أبوه أو أخوه في معركة من المعارك التي كانت بين المسلمين والمشركين.

والكلمة وإن لم تكن اتهاماً صريحاً غير أنها تفيد هذا الاتهام، مما أثار عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واضطره إلى أن يرد هذا الرد القاسي على الحباب، إذا كان ذلك فمت إن استطعت.

وكاد الحوار الهادىء الرزين يأخذ شكل المجابهة الصعبة بين المؤمنين، ويبدو أن الأنصار كانوا يعتقدون أن لهم الحق في ترشيح أنفسهم للقيادة، كما أن للمهاجرين هذا الحق، ولمَ لا والإسلام قد سوى بينهم جميعاً؟ ولماذا لا يكون لهم هذا الحق وهم الذين آووا ونصروا، وجاهدوا وصبروا؟ وبماذا يمتاز المهاجرون عنهم حتى يكون لهم هذا الحق دونهم؟؟

وهذا الخلاف بين المهاجرين والأنصار في هذه المسألة الخطيرة إنما هو وجهة نظر أبداها كلا الفريقين، ولكل منهما ما يؤيد اتجاهه، ويجعله يتمسك برأيه، وذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ انتقل إلى الرفيق الأعلى، وفارق الدنيا دون أن يضع هذا الأمر في شخص بعينه أو يوصي به لأحد من أصحابه، ومن هنا كان لكل مؤمن أن يطمع في الحصول على هذا الحق الذي لم يعين له أحد، وفهم الأنصار أنهم أولى به من غيرهم، لأنهم أهل البلاد التي ستكون مقر الخليفة وموطن الخلافة.

ولكن الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ فاتهم أمر لم يفطنوا له، ذكرهم به عمر ـ رضي الله عنه ـ حين قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقامه الذي أقامه فيه رسول الله؟

قالوا: كلنا لا تطيب أنفسنا، نستغفر الله[1].

وبهذا الهدوء الذي عاد إليه عمر، استطاع ـ رضي الله عنه ـ أن يحسم الأمر، وأن يوقف الحوار الحاد عند أَمَد، وبتذكيرهم بتقديم الرسول ـ ﷺ ـ أبا بكر ليصلي بالناس، أعاد إليهم ما قد نسوه من أحقية أبي بكر بهذا الأمر دون سواه.

وكان اللغط قد كثر، وارتفعت الأصوات، وخاف عمر أن يقع الخلاف، وتحتدم الأزمة، فرشح أبا بكر للخلافة.

وتكلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وذكر للأنصار فضلهم، فلم يترك شيئاً أنزل في الأنصار، ولا ذكره رسول الله ـ ﷺ ـ من شأنهم إلا ذكره، ثم قال: لقد علمتم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لو سلك الناس وادياً، وسلكتْ الأنصار وادياً سلكتُ وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ـ وأنت قاعد ـ قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم.

فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء[2].

وبهذه الروح الودية، وبهذا الحوار الهادىء المبني على الإقناع والاقتناع، صفت القلوب وتصافحت النفوس، وقضي على فتنة كادت تأتي على الأخضر واليابس، وتعصف ببنيان أمة فتية لم يزد عمرها على عشر سنين، ولكن أخوة الإسلام جمعت بين القلوب المتنافرة، والمصلحة العامة تغلبت على المصالح الخاصة، ورفع الجميع شعار الرجل المناسب في المكان المناسب، والرئاسة في الإسلام تكليف لا تشريف.

وانتهز أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فرصة صفاء القلوب، وقدم عمر وأبا عبيدة، وقال للحاضرين: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم[3].

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن عبد الوهاب (ص ٤٦٧).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٤٧).

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٢٤٦).

ولكن عمر لم يرض بهذا، وكان ترشيحه للخلافة على غير هوى منه، حتى قال: كان والله أن أقدم فتضرب عنقي ـ لا يقربني ذلك من إثم ـ أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر[1].

وهنا قام عمر فقال: ابسط يدك يا أبا بكر، فبايعه، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وتمت بيعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ في السقيفة، ولكنها لم تكن بيعة عامة، بل كانت خاصة بمن حضر يوم السقيفة، فلما كان الغد الثلاثاء الثالث عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة من الهجرة، توجه أبو بكر إلى المسجد وصعد المنبر، وجلس.

وقام عمر ـ رضي الله عنه ـ وتكلم بين يدي أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ (يقصد قوله يوم توفي رسول الله، إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وإن رسول الله ـ ﷺ ـ ما مات..... إلخ).

قال: ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ـ يقول: يكون آخرنا ـ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به الله رسوله ـ ﷺ ـ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعته العامة بعد بيعة السقيفة[2].

وبعد أن تمت البيعة العامة، ورضي المسلمون أبا بكر خليفة لرسول ـ ﷺ ـ قام في الناس خطيباً، وشرح منهجه في الحكم، وبين طريقته في سياسة الأمة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم

---

(١) مختصر سيرة الرسول (ص ٤٦٧).

(٢) السيرة النبوية (٤/ ١٥١٩).

ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله [1].

٣ ـ دار أبي أيوب الأنصاري:

هذه الدار من المشاهد الأثرية التي لا تزال معلومة المكان في المدينة المنورة، وأبو أيوب هذا هو خالد بن زيد بن كليب أحد بني النجار من الخزرج، وهؤلاء أخوال عبد المطلب جد الرسول ـ ﷺ ـ ولهذا فهم يعتبرون أخوال الرسول ـ ﷺ ـ وتقع دار أبي أيوب في الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد النبوي الشريف، ولا يفصلها عنه سوى شارع يقع جنوب الحرم النبوي ـ في قبلته ـ، ويقابلها من الجهة الغربية مكتبة الشيخ عارف حكمت، شيخ الإسلام في عهد الخلافة العثمانية، وهو بناء قائم ومكتوب عليه لوحة باسم مكتبة الشيخ عارف حكمت.

ويذكر السمهودي أن تُبَّعا الأول ـ ملك اليمن ـ بنى هذه الدار لما مر بالمدينة، ثم قال: قال في المبتدأ ـ اسم كتاب لابن إسحاق ـ واسمه تبان أسعد، وكان معه أربعمائة عالم، فتعاقدوا على ألا يخرجوا من المدينة، فسألهم تُبَّعٌ عن سر ذلك.

فقالوا: إنا نجد في كتبنا أن نبيا اسمه محمد ـ ﷺ ـ هذه دار مهاجره، فنحن نقيم لعل أن نلقاه، فأراد تبع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك داراً، واشترى له جارية وزوجها منه، وأعطاه مالاً جزيلاً، وكتب كتاباً فيه إسلامه.

---

(١) السيرة النبوية (٤/ ١٥٢٠).

شهـــدت علـــى أحمـــد أنـــه رســـول مـــن الله بـــاري النَّســـم
فلـــو مُـــدَّ عمـــري إلـــى عمـــره لكنـــت وزيـــراً لـــه وابـــن عـــم

وختمه بالذهب، ودفعه إلى كبير العلماء، وسأله أن يدفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ إن أدركه وإلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده.

وبنى للنبي ـ ﷺ ـ داراً لينزلها إذا قدم المدينة، فتداول الدار الملاك، إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من ولد ذلك العالم، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء[1]. وكان ذلك عام ٩١ ميلادية أي قبل بعثة الرسول بنحو سبعمائة سنة[2].

الرسول في دار أبي أيوب:

هاجر الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة المنورة والدار ملك لأبي أيوب وكان ـ ﷺ ـ وهو في طريقه من قباء إلى المدينة كلما مر بجماعة من الأنصار عزموا عليه أن ينزل عندهم، ويقولون: هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة، ويأخذون بخطام ناقته.

ولكنه ـ ﷺ ـ كان يصرفهم عما يريدون برفق ولين، فيقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

وظلت الناقة تمشي حتى وصلت محل مسجده ـ ﷺ ـ وهناك بركت، ولم ينزل عن ظهرها، فنهضت، وسارت قليلاً، ثم التفت وكأنها تبحث عن شيء، ثم رجعت فبركت في مكانها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله[3].

وبادر أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ واحتمل رحله ـ ﷺ ـ فوضعه في بيته[4] وجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: المرء مع رحله.

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٨٨).
(٢) نفسه (١/ ١٨٩).
(٣) مختصر سيرة الرسول (ص ١٧٤).
(٤) السيرة النبوية (٢/ ٥٢٢).

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده[1].

وفي رواية عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ـ ﷺ ـ قال: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي.

قال ـ ﷺ ـ: فانطلق فهيِّىء لنا مقيلاً، قال: قوما على بركة الله[2].

ذهب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيت أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ وكان البيت مكوناً من طابقين، وأراد أبو أيوب أن يكرم رسول الله ـ ﷺ ـ وينزله بالطابق العلوي.

ولكن الرسول ـ ﷺ ـ رفض ذلك العرض، وأصر على أن ينزل بالسُّفْل، يقول أبو أيوب: لما نزل عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ في بيتي نزل بالسُّفْل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأُعظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال: يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت[3].

هكذا يعلمنا رسول الله ـ ﷺ ـ كيف يكون الضيف عند مضيفه، وكيف يعامل المضيف ضيفه، فعلى المضيف أن يعرض على ضيفه خير ما عنده، وأن يبذل له كل ما يريحه ويزيل عنه الحرج، حتى تطمئن نفسه، ويطيب خاطره، وعلى الضيف أن يراعي ظروف المضيف، فلا يفعل ما يضايقه، ولا يطلب ما يحرجه، وعليه كذلك أن يقدر ظروفه الخاصة، بحيث لا يحرج من يريد الاتصال به لزيارة أو لمصلحة.

والإسلام مع كونه أمر بإكرام الضيف «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر

---

(١) مختصر سيرة الرسول (ص ١٧٤).

(٢) رواه البخاري.

(٣) السيرة النبوية (٢/ ٥٢٤).

فليكرم ضيفه»[1] ومع كونه جعل الضيافة حقاً للمسلم على أخيه المسلم، وحدد لها ثلاثة أيام، فإن الرسول ـ ﷺ ـ هنا يعلمنا أن الضيف لاينبغي أن يستغل هذا الحق، ويحرج المضيف أو يضايقه، بل يكون ضيفاً خفيفاً على مضيفه.

ويحضرني هنا تحذير الشاعر للضيف الثقيل حين يقول:

لا تكـــن ضيفـــا ثقيـــلا يكـــره النـــاس لقـــاءك
إن فـــي الفنـــدق مـــأواك وفـــي الســـوق غـــذاءك

ويروي لنا أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ كيف كان حريصاً على إكرام رسول الله ـ ﷺ ـ وعدم إيذائه بشيء مهما كان خفيفاً، يقول ـ رضي الله عنه ـ:

فكان رسول الله ـ ﷺ ـ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حُبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ـ ﷺ ـ منه شيء فيؤذيه[2].

وكان أبو أيوب يصنع طعام العشاء لرسول الله ـ ﷺ ـ فكان رسول الله يأكل منه، ويرد عليهم فضلة، فيقصد أبو أيوب وزوجه موضع أصابع النبي ـ ﷺ ـ في القصعة، فيأكلان منه يلتمسان بذلك البركة[3].

وفي ليلة ما بعثا إليه بعشائه، وكان في الطعام بصل أو ثوم، فرده ـ ﷺ ـ ولم يأكله، ولم ير أبو أيوب موضع أصابع الرسول في القصعة، ففزع، وذهب إلى الرسول يسأله فقال: بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى، فأما أنتم فكلوه.

---

(١) رواه أحمد في المسند والنسائي في السنن.
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٢٠١).
(٣) البداية والنهاية (٣/ ٢٠١).

قال أبو أيوب: فأكلنا ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[1].

وتوالت الهدايا على رسول الله ـ ﷺ ـ فكانت أول هدية أهديت إليه، هدية أم زيد بن ثابت، فقد روي عنه أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن.

فقلت: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال: بارك الله فيك، ودعا أصحابه فأكلوا[2]. ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد وعراق لحم.

قال زيد: وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ـ ﷺ ـ الثلاثة والأربعة، يحملون الطعام يتناوبون[3].

وأقام ـ ﷺ ـ في دار أبي أيوب حتى بُني المسجد وبُني بجواره غرفتان إحداهما لسودة بنت زمعة زوجه ـ ﷺ ـ ورضي الله عنها ـ والثانية اتخذها بيتاً لعائشة ـ رضي الله عنها ـ ثم تحول من بيت أبي أيوب إلى مساكنه[4].

وكان مقامه في دار أبي أيوب سبعة أشهر[5].

وقد صارت دار أبي أيوب بعده إلى مولاه أفلح، فاشتراها منه المغيرة ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، وصلح ما وهى من بنيانها، ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة[6].

وقد نقل الشيخ عبد القدوس الأنصاري عن السهيلي أنه قال: إن دار أبي أيوب آلت بعد صاحبها إلى مولاه أفلح، وأن أفلح هذا لم يفلح، إذ باعها بعد ما خربت للمغيرة بن عبد الرحمن بألف دينار.

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٠١).
(٢) نفسه (٣/ ٢٠٢).
(٣) نفسه (٣/ ٢٠٢).
(٤) السيرة النبوية (٢/ ٥٢٤).
(٥) نفسه (٣/ ٢٠٢).
(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٠٣).

وقام المغيرة بإصلاحها وترميمها، وتصدق بها على أهل البيت من فقراء المدينة.

يقول الشيخ عبد القدوس: ثم لج تاريخها في الغموض حتى أصبحت عَرْصة، فاشتراها الملك شهاب الدين غازي بن الملك العادل، وبناها مدرسة سميت بالمدرسة الشهابية نسبة إليه، ثم تعطلت.

وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري أعيد بناؤها بشكل مسجد مقبب ذي محراب ولا تزال إلى الآن بهذا الشكل.

وقد أدخِلتْ دار أبي أيوب في توسعة الحرم النبوي الشريف في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، سدد الله خطاه، فكانت ضمن الساحات التي أضيفت للتوسعة.

المشاهد العسكرية

١ ـ غزوة أحد
٢ ـ غزوة الخندق
٣ ـ معركة الحرة

المشاهد العسكرية

١ـ غزوة أحد:

هي أول معركة عسكرية شنها المشركون على المدينة المنورة[١]، وكانت معركة شرسة ضارية، لأنها كانت ثمرة حقد دفين ألقحته ثارات القتلى في غزوة بدر، والحق أن المشركين لم يصابوا بكارثة قط مثل التي أصيبوا بها في غزوة بدر، فقد قتل منهم سبعون جلهم من السادة والزعماء إن لم يكن كلهم، ولقد كان من آثارها السيئة على أهل مكة أن قضي على الصف الأول من القيادة، وخلي الجو لقيادة الصف الثاني من أمثال أبي سفيان صخر بن حرب.

وقد نجا أبو سفيان من الموت لأنه كان في القافلة القادمة من الشام،التي من أجلها نفرت قريش لنجدتها حين استنجدها أبو سفيان، ودخل أبو سفيان مكة بعد أن تجهز الجيش وخرج متجهاً نحو بدر، فكانت العير التي تسببت في قتل زعماء مكة هي نفسها التي ألقت بالقيادة في يد أبي سفيان، وأنقذته من الموت المحقق.

كانت هند بنت عتبة تحت أبي سفيان، وكانت أكثر أهل مكة لوعة وأسى على قتلى بدر فقد قتل فيها أبوها عتبة بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة وعمها شيبة بن ربيعة.

---

(١) اقرأ التفاصيل في كتابنا: تأملات في سيرة الرسول.

لهذا كانت دائمة التحريض لزوجها الذي آلت إليه زعامة قريش أن يأخذ بثأر قتلى بدر، وكان على أبي سفيان أن يخضع لهذا التحريض، وإلا كانت حياته في بيته كدراً ونكداً، وتعرضت زعامته في قريش لأزمة قد تعصف بها، ويحرمها إلى الأبد، وذلكم العار الذي لا يقبله عربي، ولا يرضى به إلا دني.

جهز أبو سفيان جيشاً من ثلاثة آلاف رجل، على ثلاثة آلاف بعير، وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع[1].

كان العباس عم رسول الله ـ ﷺ ـ مقيماً في مكة، وكان مؤمناً يكتم إيمانه، وعلم بما دبر القوم فبعث إلى الرسول كتاباً مع رجل من غفار، وأمره أن يسلمه للرسول ـ ﷺ ـ قبل أن يصل جيش المشركين[2].

ولما وصل كتاب العباس إلى الرسول جمع أهل الرأي من أصحابه، وأخبرهم بكتاب العباس، وطلب منهم أن يُبْدوا رأيهم، ويقدموا مشورتهم، وابتدأهم ـ ﷺ ـ برأيه، وكان يرى ألا يخرج المسلمون من المدينة، وأن يتحصنوا بها، وقال: فإن أقاموا أقاموا بشر منزل، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها[3].

ووافق كبار الصحابة المهاجرين والأنصار على رأي رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن الشباب وبخاصة منهم من لم يشهد بدراً، عارضوا الفكرة، ورأوا أن يخرجوا لعدوهم، حتى لا يظن بهم الجبن، وتزعم المعارضة حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً اليوم حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[4].

وقال النعمان بن بشير: يا رسول الله، لا تحرمنا الجنة[5].

---

(١) حياة محمد (ص ٢٢٨).

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٢٣٠).

(٣) السيرة النبوية (٣/ ٨٤٠).

(٤) سيرة دحلان حاشية الحلبيه (٢/ ٢٦).

(٥) سيرة دحلان حاشية الحلبيه (٢/ ٢٦).

جيش المشركين يصل إلى مشارف المدينة:

تحرك جيش المشركين من مكة، ووصل إلى الضاحية الشمالية حيث نزل بساحة أحد بالقرب من المدينة، وهناك تركوا إبلهم وخيلهم ترعى فيما حول المدينة من الزرع، وبلغ الرسول خبرهم، فأرسل عيوناً تأتيه بأخبارهم، فاستطلعوا خبرهم وجاؤوه بحقيقة الأمر، واستعد الفريقان للقتال.

وقعت المعركة عند جبل أحد فسميت باسمه، وتواجه الفريقان في الساحة الممتدة من جنوب جبل أحد إلى شمال جبل الرماة، وانهزم المشركون في الجولة الأولى، ولكن الرماة لم يصبروا ويلزموا أماكنهم كما أمرهم الرسول ـ ﷺ ـ فكانت أول مخالفة لأمر الرسول، حيث نزلوا يشاركون الجيش في جمع الغنائم، وكان حرصهم على المشاركة في جمع الغنائم مخالفة أخرى تتمثل في التكالب على حطام الدنيا.

وكانت النتيجة الطبيعية لمخالفة تعاليم الرسول ـ ﷺ ـ أن لحقت بالمسلمين هزيمة استشهد فيها سبعون من خيرة الصحابة، وجرح الجيش كله بغير استثناء، حتى رسول الله ـ ﷺ ـ كسرت رباعيته، وشج رأسه، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنتيه.

وفر بعض الصحابة من الميدان هاربين إلى المدينة، واستبسل آخرون، فأحاطوا برسول الله، وفدوه بأرواحهم، ودافعوا عنه بكل ما لديهم، وانتهت المعركة على هذا النحو.

بدأت المعركة يوم السبت السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، ودارت على مشارف المدينة، على بعد أربعة كيلومترات من الجهة الشمالية، وكانت غاية المشركين منها تتلخص فيما يأتي:

١ ـ أخذ الثأر من المسلمين لقتلى بدر.

٢ ـ القضاء على الدين الذي عاب آلهتهم وسفه أحلامهم.

٣ ـ تأمين الطريق لتجارتهم في ذهابها وعودتها من الشام.

ولكن هل حقق المشركون غايتهم أو شيئاً منها، رغم ما نزل بالمسلمين من الخسائر.

الحق أن النظر في نتائج الغزوة يثبت أن المشركين لم يحققوا شيئاً ولو يسيراً من غايتهم.

فهم وإن قتلوا سبعين من المسلمين مقابل من قتل منهم يوم بدر، غير أن ذلك لم يحقق لهم الأخذ بالثأر حسبما تعارفوا عليه، فالثأر لا يهدأ إلا إذا قتل الموتور ند قتيله، والمشركون كانوا يرون أن أنداد قتلاهم يتمثلون في القيادة الإسلامية، رسول الله ـ ﷺ ـ ووزيريه ـ أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

والذي يؤكد لنا ذلك أن أبا سفيان بعد انتهاء المعركة، نادى في المسلمين: أفيكم محمد، أفيكم ابن أبي قحافة، أفيكم ابن الخطاب؟؟

وهو بهذا يريد أن يطمئن، فإن كان هناك ما يدل على قتلهم يكون قد أخذ ثأره وإلا فإن الثأر لا يزال مطلوباً ما دام هؤلاء أحياء،

وأما القضاء على الإسلام، فإن ذلك لن يتحقق إلا إذا قضي على المسلمين جميعاً وذلك ما لم يصلوا إليه، فالقيادة الإسلامية لا زالت شامخة، والعقيدة لم تزل في القلوب راسخة، وبذلك يكونون قد أخطأوا الهدف الثاني من أهداف المعركة.

وبقي الهدف الثالث، والحق أنهم كانوا حريصين عليه حرصاً لا يقل عن حرصهم على تحقيق الهدفين السابقين، لأن حياة قريش وأهل مكة كانت قائمة على التجارة وكانت تجارتهم إلى الشام صيفاً، وإلى اليمن شتاء، واستطاع المسلمون أن يقطعوا عليهم طريق الشام، وقد أثر ذلك في وضعهم الاقتصادي تأثيراً سيئاً حتى قال صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا تجارتنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معهم.

فما ندري أين نسكن؟ فإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا في مكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء[1].

---

(١) المغازي للواقدي (١/ ١٩٧) والمراد بالحبشة اليمن لأن حكمها كان خاضعاً لبلاد الحبشة.

ولم يستطع المشركون تحقيق هذا الهدف كذلك، لأن المسلمين هم المسيطرون على المدينة، والمتصرفون في شؤون المارين بها، وقد كانوا لتجارة أهل مكة بالمرصاد.

وهكذا نرى أن أهداف المعركة بالنسبة للمشركين لم تتحقق جميعها، بل لم يتحقق شيء منها، فهي إذا بالقياس العسكري معركة خاسرة بالنسبة للمشركين.

فكيف كان الحال عند المسلمين؟

وفي الجانب الإسلامي فإن هذه المعركة، كانت لها آثار سلبية، وإن لم تحقق أهدافها المرجوة، فهناك الشهداء السبعون، وما خلفوه وراءهم من الأيامى والأطفال، وهناك الجيش الجريح الذي تنزف دماؤه ولم تجف بعد، وهناك ما نزل برسول الله ـ ﷺ ـ من الجراح والآلام، وهناك فوق ذلك حالة الجيش النفسية، لشعورهم بأنهم هم الذين أكرهوا رسول الله ـ ﷺ ـ على الخروج مخالفين بذلك رأيه، وترتب على ذلك كل ما هم فيه.

وكان على القيادة الإسلامية أن تواجه كل هذه المشكلات بحلول حاسمة، تقضي على الآثار السلبية التي مني بها الجيش الإسلامي، وعلى رأسها الحالة النفسية، فإن ما عداها يهون أمره، والأيام كفيلة بإزالة آثاره.

كيف عالج الرسول الحالة النفسية للجيش؟

نلاحظ أن القرآن الكريم يعتبر هذه الغزوة درساً هاماً لا بد أن يمر به المسلمون، ليتعلموا من خلاله ما لم يجدوه في أي مجال آخر، ولهذا فإن القرآن الكريم لم يعنفهم على ما فرط منهم، ولم يتركهم طويلاً يعانون من آثار هذه الهزيمة، ولم يدعهم في الميدان وحدهم يصارعون الوضع النفسي المرهق، بل كان مرافقاً لهم في كل خطوات المعركة، يدفع ويشجع، ويعالج ويرقأ، ويوجه ويسدد.

إن القرآن الكريم يواجه المسلمين أولاً بأسباب الهزيمة بصراحة، وبغير مجاملة ولا مواربة فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ

تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾(١).

فإذا عرفت أسباب الهزيمة يمكن معالجتها، والتحرز من الوقوع فيها مرة أخرى، وإن أول ما يجب أن يعرف عند العلاج هو معرفة أسباب الداء، ولكن معرفة الأسباب وحدها لا تكفي للعلاج، وإن كانت تفتح الطريق إليه.

وقد وضعت الآية الكريمة أيدي المسلمين على الأسباب الحقيقية للهزيمة، ولخصتها في ثلاث كلمات: الأولى: الفشل، وهو هنا الضعف عن مقاومة مغريات الدنيا، والمقصود الاهتمام بجمع الغنائم، والثانية: التنازع، والمراد ما حصل من الخلاف بين قائد الرماة عبد الله بن جبير ـ رضي الله عنه ـ وبين الذين أرادوا النزول من الرماة للمشاركة في جمع الغنائم.

والثالثة: معصية أوامر القيادة، بترك المكان المحدد لهم مع التشديد عليهم بعدم تركه أو مغادرته مهما كانت الظروف.

وعرفهم القرآن الكريم أن هذه الأسباب هي التي أدت إلى ما حل بهم، وأن علاجها في أيديهم، وليس من المستحيلات التي لا يقوى عليها البشر، ثم عاتبهم بعد ذلك عتاباً رقيقاً هادئاً على تساؤلهم عن أسباب هذه الهزيمة، فقال ـ جل من قائل ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾(٢).

ثم بعد هذا التوضيح الذي لا بد منه، يبدأ في العلاج، ولا بد أن يكون العلاج شاملاً يتناول جميع الذين شاركوا في المعركة، حتى لا يبقى لهذا المصير المؤلم أثراً في النفوس، إن هذه النتيجة لم يتوقعها أحد قط، وبخاصة وأن المسلمين قد لمسوا عون الله ـ عز وجل ـ لهم يوم بدر، وهم قد ألحوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

على خوض هذه المعركة، وكلهم أمل أن يجدوا فيها العون من الله مثل ما حدث يوم بدر، بل أكثر مما حصل يوم بدر، لأنهم في هذه المعركة معتدى عليهم مهاجَمون في بلادهم، فلما حصل عكس ما كانوا يأملون كانت الصدمة شديدة، وكان الجرح أعمق وأكثر ألماً، ولهذا كانت حالة الجيش النفسية في حاجة ماسة إلى العلاج السريع الحاسم.

ونحن نلاحظ أن جيش أُحد كان به أربعة أصناف:

الأول: المحرضون على الخروج لقتال العدو خارج المدينة.

الثاني: الفارون من الميدان بعد أن لمسوا تفوق المشركين.

الثالث: المستبسلون في القتال الذين أصابهم القرح.

الرابع: الشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الله.

وقد عالج القرآن الكريم مشكلة كل صنف على نحو يزيل الحرج من النفوس، ويذهب عنها عقدة الذنب التي كانت تطاردها بعد هذه النهاية المؤلمة.

فبالنسبة للمحرضين أصدر القرآن الكريم عفواً عاماً بصورة مؤكدة حتى لا يجد الشيطان سبيلاً للتسلل إلى نفوسهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ولا شك أن العفو ممن وقع الخطأ في حقه يطمئن النفوس، ويزيل عنها الحرج، ويرفع عنها الألم الذي تعاني منه نتيجة الخطأ.

وأما الفارون فقد أصدر لهم عفواً خاصاً، لأن الفرار من الميدان في الإسلام عقوبتها غضب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدنيا، والعذاب في جهنم يوم القيامة، قال ـ تعالى ـ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٢.

يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

لهذا كان العفو الخاص بهذه الفئة مع شمول العفو العام لهم، يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2].

ولقد كان لهذا العفو الخاص أثر كبير في نفوس الفارين، فقد أنقذهم من غضب الله، وأبعدهم عن الاصطلاء بنار جهنم، فارتفعت معنوياتهم، وانحلت عن نفوسهم عقدة الذنب التي كدرت عليهم حياتهم، ولهذا لما عير عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ بأنه فرَّ يوم أحد، أجابه عثمان: أتعيرني بذنب قد غفره الله لي.

وأما الجرحى والمنهكون، فقد وعدهم الثواب الجزيل، والأجر العظيم، دون أن يقررهم بذنب، أو يلومهم على خطأ، يقول تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وأما الشهداء فقد أحسن مثوبتهم، وأجزل أجرهم، وبشر المؤمنين بأنهم أحياء عند ربهم، لم تذهب أرواحهم هدراً، ولم ترق دماؤهم عبثاً، ولكنهم ينعمون بجوار الله، ويسكنون فسيح الجنات التي طالما اشتاقوا إليها، وأجهدوا أنفسهم للحصول عليها.

يقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١.

هكذا عالج القرآن الكريم الحالة النفسية لجيش كادت الهزيمة أن تحطم معنوياته، وأن تقضي على مقوماته، فاستعاد قوته، واسترد عزيمته، وأصبح قادراً على مواجهة عدوه.

وبقي لهؤلاء وأولئك أن يحصلوا على عفو من رسول الله ـ ﷺ ـ لكي تطيب نفوسهم وتهدأ قلوبهم، ذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ هو وحده الذي تحمل نتيجة تلك الأخطاء، فقد شج رأسه الشريف، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنتيه، وسال الدم على وجهه الكريم.

لهذا كان حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على عفو رسول الله عنهم لتتم بذلك سعادتهم الروحية، وتنحل عقدهم النفسية، وترتاح ضمائرهم من مطاردة الذنب لهم.

من أجل هذا أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ـ ﷺ ـ بأن يعفو عنهم، وحث على الاستغفار لهم، بل كان ما هو أكثر من ذلك، حيث رد لهم اعتبارهم، وجعلهم موضع ثقة وأهلاً للاستشارة، وأخذ الرأي.

قال الله ـ تعالى ـ بعد ما ذكر أحداث الغزوة: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[1].

كذلك قام ـ ﷺ ـ بنصيب وافر في معالجة حالة الاكتئاب التي أصابت المسلمين، فأعد الجيش الذي أصيب بالأمس ليطارد به العدو الذي انتصر عليه، وفي اليوم التالي مباشرة للمعركة الدامية، خرج رسول الله بالجرحى والمصابين يتعقب جيش المشركين وسار بهم ستة عشر كيلومتراً تقريباً إلى مكان يعرف بحمراء الأسد، مهدداً بذلك جيش الشرك حتى لا يفكر في العودة إلى المدينة، والدخول في معركة جديدة مع المسلمين.

وقد نجحت الفكرة، وفرَّ أبو سفيان بجيشه مذعوراً، مفضلاً أن يعود

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

إلى مكة بهذا النصر الأعرج، بدلاً من أن يعوره بهزيمة تلحق به من الجيش الذي انطلق خلفه يطارده.

وبهذا العلاج النفسي الرائع هدأت النفوس المكتئبة، واطمأنت القلوب المضطربة، وزالت عن المسلمين الآثار السيئة، وأخذوا يستعدون لما سيقومون به من الأعمال العظيمة لخدمة الإسلام، وما سيكلفون به من الأمور الجليلة لنشر هذا الدين الذي أكرمهم الله ـ عز وجل ـ به، وفضلهم على سائر العالمين.

٢ ـ غزوة الخندق:

وتلك هى الغزوة الثانية التي هوجمت فيها المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، ولم يكن الهجوم هذه المرة من أهل مكة وحدهم، ولكنه كان تحالفاً أثيماً مكوناً من يهود خيبر بعد أن انضم إليهم يهود بني النضير متعاونين مع حلفائهم من غطفان وفزارة، وهؤلاء أتوا إلى المدينة من جهة الشمال الشرقي، ونقض العهد بنو قريظة، وهؤلاء كانوا من جهة الجنوب، كما استطاع يهود بني النضير أن يقنعوا قريشاً بمشاركتهم في هذا التحالف، ونزل أهل مكة وحلفاؤهم من كنانة وأهل تهامة في الشمال الغربي وكان عدد جيش الحلفاء عشرة آلاف مقاتل، ستة آلاف من غطفان وحلفائها، وأربعة آلاف من قريش وحلفائها[1].

ووضع هذه الجيوش في أقطار المدينة المختلفة، يدل على أن المدينة تعرضت لحصار رهيب من الجنوب حيث بنو قريظة، ومن الشمال الشرقي حيث نزل أهل نجد وغطفان، ومن الشمال الغربي حيث عسكر أبو سفيان وحلفاء قريش من كنانة والأحابيش وأهل تهامة.

ويساند هذه القوى اليهود، يمدونهم بالرأي، ويشدُّون أزرهم بالعون، ويواسونهم بكل ما يحتاجون إليه.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٢٩).

ويبدو أن قريشاً قد أحكمت أمرها هذه المرة سرًّا، لم يطلع عليه أحد حتى لا يتسرب إلى المسلمين في المدينة كما حدث في غزوة أحد، وقد سخر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للرسول ـ ﷺ ـ من يطلعه على خفايا تلك المؤامرة الرهيبة، حيث وصل وفد من خزاعة إلى المدينة قادمين من مكة، وكانوا قد بلغهم من الأخبار ما يدل على الاستعداد للحرب مع المسلمين، فبلَّغوا رسول الله بما علموا، فجمع الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه، وأخبرهم بما بلغه عن استعداد العرب لحربهم، فأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر الخندق، وقال: إنا كنا إذا حوصرنا خندقنا علينا[1].

وأخذ الرسول ـ ﷺ ـ بقول سلمان، وحدد المنطقة التي سيحفر فيها الخندق، وهي الجهة الشمالية من المدينة، حيث كانت هي الجهة المكشوفة التي يمكن للعدو أن يقتحم منها إلى داخل المدينة، وأما بقية الجهات فكانت محوطة بالبيوت والمزارع، بحيث لا يمكن لجيش أن يدخل المدينة منها.

ومنطقة الخندق تقع على ثلاثة كيلومترات من المدينة، وامتد الخندق من الشمال الشرقي ـ طرف الحرة الشرقية ـ إلى الشمال الغربي ـ طرف الحرة الغربية ـ ولم يكن حفرة على خط مستقيم، ولكنه كان ينحرف إلى الغرب قليلاً قليلاً، فكان خطاً منحنياً.

حدد الرسول ـ ﷺ ـ المنطقة التي سيحفر فيها الخندق، فبدأ من أجمة الشيخين، أو ثنية الشيخين بالقرب من جبل أحد، ثم يميل إلى جهة الغرب فيمر بحصن راتج، وهو حصن لبني عبد الأشهل جماعة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ وموقعه الآن وسط حي النصر، ثم يمر بجبل ذباب وهو جبيل صغير في الشمال من ثنية الوداع خلف محطة البنزين، ثم بالمذاد، وهو حصن لبني حرام غربي مسجد الفتح، وموقعه الآن إلى الغرب من مدرسة حسان بن

---

(١) مختصر سيرة الرسول (ص ٢٨١) وتراجع الغزوة بتفصيلاتها في كتابنا: تأملات في سيرة الرسول.

ثابت، ثم إلى جبل بني عبيد بن عدي، وهو جبيل صغير، وموقعه غربي مسجد الفتح الذي فوق جبل سلع، وينتهي الخندق عند السيح.

وحدد الرسول ـ ﷺ ـ لكل جماعة من الصحابة المكان الذي سيعملون فيه، فكان نصيب بني عبد الأشهل من ثنية الشيخين إلى حصنهم (راتج) وكان نصيب المهاجرين ما بين راتج وجبل ذباب، وأما الأنصار فكانوا يعملون ما بين جبل ذباب إلى جبل بني عبيد بن عدي.

واستعار المسلمون آلات الحفر من يهود بني قريظة، وجعل الرسول ـ ﷺ ـ لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعاً يحفرونها ـ أي عشرين متراً تقريباً ـ وكان طول الخندق ألفَي متر أو تزيد قليلاً، وعرضه خمسة أمتار، وعمقه ثلاثة أمتار.

وعلى هذا يكون كلّ رجل من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مكلفاً بحفر مترين طولاً في خمسة أمتار عرضاً في ثلاثة أمتار عمقاً، ويكون مجموع ما يحفره الرجل ثلاثين متراً مُكَعَّباً، وعليه أن يحفر ذلك في مدة خمسة عشر يوماً، وهي المدة التي حفر فيها الخندق كما ذكر النووي ـ رحمه الله ـ وهو أرجح الأقوال بعد التحقيق[1].

إحصاء عن حفر الخندق:

١ ـ أشار بحفره سلمان ـ رضي الله عنه ـ ووافق الرسول ـ ﷺ ـ وتبعه الصحابة.

٢ ـ حفر الخندق في الجهة الشمالية من المدينة، وامتد حفره من طرف الحرة الشرقية إلى طرف الحرة الغربية.

٣ ـ وزع الرسول العمل في الخندق على النحو التالي:

أ ـ من أجمة الشيخين إلى حصن راتج على بني عبد الأشهل.

---

(١) يراجع كتابنا: تأملات في سيرة الرسول (غزوة الخندق).

ب ـ من راتج إلى جبل ذباب على المهاجرين.
حـ ـ من جبل ذباب إلى حصن المذاد على الأنصار.
د ـ من جبل بني عبيد بن عدي إلى السيح على بني دينار.
٤ ـ كان العمل في الخندق نهاراً، وكانوا يستريحون ليلاً.
٥ ـ مدة الحفر خمسة عشر يوماً.
٦ ـ عدد الذين حفروه تسعمائة رجل والباقون كانوا ينقلون التراب والحجارة[١].

وكان من التخطيط العسكري، الذي يدل على عبقرية حربية فذة، أن أمرهم النبي ـ ﷺ ـ بأن يجعلوا التراب الخارج من الحفر في جهة المسلمين، كما أمرهم بأن يأتوا بالحجارة من جبل سلع، ويضعوها فوق تراب الخندق.

وبذلك يكون المسلمون قد اتخذوا من تراب الخندق ساترا يستطيعون الاختفاء خلفه من رمي الأعداء، وفي الوقت نفسه يكون هذا التراب حائلاً يعوق محاولات المشركين لعبور الخندق، ولذلك لما حاول نوفل بن المغيرة عبور الخندق ارتطم بالتراب وسقط في الخندق.

وأما الحجارة فكانت أولاً لتسكين التراب الناعم (السافي) إذا هبت الريح، وثانياً تستعمل في رجم من يحاول عبور الخندق توفيراً للنبل، وقد حدث ذلك فعلاً مع نوفل بن المغيرة، فإنه لما سقط في الخندق، أخذ المسلمون يرجمونه بالحجارة وهو يقول: يا معشر العرب موتة غير هذه.

فنزل الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ فضربه بسيفه فشقه، وأثر السيف في كاهل فرسه فقيل للزبير: ما أمضى هذا السيف يا أبا عبد الله!!
فقال الزبير: إنه ليس السيف، ولكنه الساعد الذي يحمل السيف.

مفاجأة مذهلة:

قدم المشركون إلى المدينة، وفي اعتقادهم أنهم لن يُصدوا عنها هذه

---

(١) تأملات في سيرة الرسول (ص ١٧٩).

المرة، فقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل، ومعنى ذلك بالمقاييس الحسابية أنهم أضعاف عدد المسلمين مجتمعين، فمن الذي يستطيع ردهم عن المدينة؟ وأية قوة في الجزيرة العربية تستطيع مواجهتهم، وهم في جيش لم يأتلف مثله قط من قبل؟؟

لقد قدموا مدلين بعددهم، معجبين بقوتهم، موقنين ألا منقذ للمدينة من هجومهم، ولم يكادوا يصلون إلى مشارفها حتى فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، وأذهلهم أنهم في مواجهة عمل عسكري لم تعرفه العرب في بلادها فقالوا: إن هذه مكيدة لم تعرفها العرب من قبل[1].

وكانت حقاً مفاجأة شَلَّت حركة الجيش المتوثب بقدر ما شلت تفكير قادته[2]، ولم يكن بين الفريقين حرب إلى الحصار والرمي بالنبل، وظلوا على ذلك بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر[3].

تحصن المسلمون بالخندق، فجعلوه أمامهم بينهم وبين العدو، وجعلوا جبل سلع وراء ظهورهم، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، ولكن مدة الحصار طالت، واشتد البلاء، وأجهدهم الجوع.

وبقدر شدة الحصار على المسلمين، كان طول الزمن بالمشركين دون أن يحققوا غايتهم، واستبطأ أبو سفيان النصر، فلم يدر بخلده أن المعركة يمكن أن تستمر شهراً، فأرسل إلى ابن أخطب زعيم اليهود، والمحرض على الحرب، وطلب منه أن يقنع بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، حتى تضيق الحلقة على رقابهم، ويتسرب الخوف إلى قلوبهم فيستسلموا، ولا يغني الخندق عنهم شيئاً.

وفعل حيي بن أخطب ما طلب أبو سفيان، وأقنع كعب بن أسد زعيم يهود قريظة بنقض العهد فنقضوه، وبلغ الخبر رسول الله ـ ﷺ ـ وتأكد منه عن

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٣٤).

(٢) تأملات في سيرة الرسول (ص ١٨١).

(٣) السيرة النبوية (٣/ ١٠٣٢).

طريق رسله، فَكَبَّر رسول الله، ورفع صوته بالتكبير، وبشر المسلمين بالنصر قائلاً: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله ـ تعالى ـ وعونه[1].

لقد اشتدت الأزمة، ولم يعد للمسلمين نصير ولا عون، فلا بد أن يأتي الفرج، ومن هنا كان تكبير الرسول وتبشيره بنصر الله، ولكن الموقف الجديد كان مصدر سرور وبهجة عند المنافقين، فأظهروا ما كانوا يكنون، وأبدوا ما كانوا يخفون.

وفي هذا الوقت الذي اشتد فيه الكرب، وتوالت فيه المحن، كان المسلمون في موقف لا يحسدون عليه، وقد وصفهم القرآن، وبين حالتهم النفسية فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[2].

في هذا الوقت العصيب فكر الرسول ـ ﷺ ـ في طريقة يستطيع بها فك هذا الحصار عن المدينة، ليريح المسلمين من عنائه، ويفت في عضد المشركين فلا يصلون إلى ما أرادوا، وهداه تفكيره ـ ﷺ ـ أن يعقد صفقة مع عيينة بن حصن الفزاري زعيم غطفان، واختار غطفان بالذات، لأنها أولاً الكثرة العددية لجيش المشركين حيث كان عددهم ستة آلاف مقاتل[3] وثانياً لا هدف لها من هذه الحرب غير الغنائم ولو أنها منحت هذه الغنائم من غير قتال لانصرفت راضية شاكرة، وإذا انصرفت هذه القوة عن المدينة، فإن ذلك يوهن بقية الحلفاء، ويرون ألا فائدة من هذا الحصار.

لهذا منّى الرسول ـ ﷺ ـ غطفان إذا انصرفت عن الحصار بثلث تمر المدينة[4].

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٣٣).

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سيرة دحلان حاشية الحلبية (٢/ ١٩٩).

(٤) السيرة النبوية (٣/ ١٠٣٣).

ووافق عيينة، وعلق الرسول ـ ﷺ ـ التنفيذ على رضا زعماء المدينة: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ ولكنا نرى أن زعيمي المدينة رفضا هذا الاتفاق بعد أن علما أن الرسول إنما فعله رأفة بأهل المدينة، وتخفيفاً لأعباء الحصار عنهم.

وقال سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم[1].

ولم تتم الصفقة، ولعل زعيم غطفان ظن بعد أن لم تتم الصفقة أن المسلمين قد أصبح عندهم من القوة ما يغنيهم عن عقدها، فظل متردداً حتى وجد الفرصة، فرجع إلى بلاده دون أن يحصل على تمر خيبر كما وعده اليهود، ولا أن يحظى بصفقة المدينة التي عاش على أملها ساعات جميلة.

حرب الإشاعة:

المراد بهذه الحرب التي عرفت في العصر الحديث بالحرب الباردة توهين العدو، وكسر شوكته، وتفريق كلمته، دون إراقة دماء، أو استعمال للسلاح، وقد استعمل الرسول ـ ﷺ ـ نوعين من هذه الحرب: التخذيل والإشاعة.

فأما التخذيل فهو ما استعمله ـ ﷺ ـ مع غطفان، فعرض عليهم ثلث تمر المدينة، فسال لعابهم، واشرأبت أعناقهم، وتخاذلوا عن القتال، ولم يعد عندهم استعداد لخوض معركة، وقد نجح التخذيل فيهم، حيث أصبحوا مترددين لا يدرون ماذا يفعلون.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٣٤).

وأما الإشاعة فقد كانت أشد نكاية على الأعداء، وكان تأثيرها على تحالفهم أعظم فتكا من السلاح، وأقوى تدميراً من المتفجرات، وقد هيئت للمسلمين وسائلها بتوفيق من الله، فبينما المسلمون يعانون من شدة الحصار، وكثرة الأعداء، هدى الله عز وجل ـ للإسلام رجلاً من غطفان هو نعيم بن مسعود.

تسلل الرجل خلسة، وذهب إلى الرسول ـ ﷺ ـ وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت.

وأدرك الرسول ـ ﷺ ـ من لهجة الرجل صدق الإيمان، وسلامة العقيدة، وإخلاص النية، فقال له: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإنما الحرب خدعة[1].

وهكذا يعطي الرسول ـ ﷺ ـ الإذن لنُعيم ـ رضي الله عنه ـ ليعلن الحرب على الحلفاء، وفتح له الضوء الأخضر ليقوم بهذه المهمة الخطيرة، وكأن القدر قد ساق نعيماً في هذه اللحظات الحرجة، ليقوم وحده بعمل تعجز عن القيام به كتيبة بأكملها.

نعيم يؤدي مهمته على أكمل وجه:

يمتاز نعيم ـ رضي الله عنه ـ بكل المميزات التي تؤهله للقيام بمهمته على أكمل وجه، فهو رجل حديث الإسلام، لا يعلم بإسلامه أحد، وهو غطفاني لا تشك غطفان ـ وهي القوة العظمى ـ في إخلاصه وولائه لقومه، وهو نديم قديم ليهود بني قريظة، وصديق حميم لقريش، إذاً فهو محل ثقة من جميع فرق الحلفاء، وموضع تقدير من هؤلاء وأولئك.

خطط نعيم للقيام بمهمته، وكان رائده في ذلك قول الرسول ـ ﷺ ـ : خذل عنا إن استطعت، فإنما الحرب خدعة.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٠) والحديث رواه مسلم.

وكانت الخطة مبنيّة على أساس تفريق كلمة الحلفاء، وتخضيد شوكتهم، وإثارة الوقيعة بين صفوفهم.

بدأ نعيم ـ رضي الله عنه ـ بندمائة الأقدمين، فسار إلى بني قريظة، وذكرهم بما كان بينه وبينهم في الجاهلية، وأخبرهم بأنه جاءهم بخبر ينبغي أن يكتموه، وأنه لهم ناصح أمين.

قال: إنكم لستم مثل قريش وغطفان، فهؤلاء أتوا من بلاد بعيدة يرجون انتهاز الفرصة، فإن وجدوها انتهزوها، وإلا عادوا إلى بلادهم موفورين، وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم.

فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من ساداتهم، يكونون بأيديكم حتى تتأكدوا من صدقهم ووقوفهم معكم، حتى تستأصلوا الرجل وقومه.

وكان رأي نعيم هذا موضع تقدير من قريظة، وأدركوا منه نصحه لهم، وحرصه على مصلحتهم، وقالوا: لقد أشرت بالرأي.

وانصرف عنهم نعيم مولياً نحو معسكر قريش، فدخل فيهم، وتحدث إليهم، وذكرهم بالود القديم القائم بينهم، والصداقة المخلصة التي تربط بينهم، ومفارقته لمحمد ليظل على دينهم، ثم قال: إني سأسر إليكم أمراً خطيراً، فعدوني أن تكتموه، فوعدوه بالكتمان.

فقال: إن اليهود ندموا على ما كان منهم من نقض العهد، وأرسلوا إلى محمد يطلبون الصلح، ووعدوه بأن يقدموا له رجالاً من أشراف قريش وساداتهم، ورجالاً من أشراف غطفان ليقتلهم، وليكون ذلك برهاناً على صدقهم، وندمهم على فعلتهم.

وقد وافق محمد على ذلك، فإذا أرسلوا يطلبون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

وانصرف عن قريش، وتركهم مشغولين بما قال، يفكرون في هذا

المصير المظلم، الذي يتوقعون من اليهود، وهم معروفون بأنهم أهل غدر وخيانة، وجبن ونذالة.

واتجه نعيم ـ رضي الله عنه ـ إلى قومه غطفان، وذكرهم بأنهم أصله وعشيرته، وأحب الناس إليه، وأقربهم من قلبه، ثم أخبر بما أخبر به قريشاً من اتفاق اليهود مع المسلمين ومحاولة أخذ الرهائن منهم، وحذرهم عاقبة موافقتهم، والنزول على رغبتهم.

واختفى نعيم عن الساحة، وبدأ الشك يسري في قلوب الحلفاء، ودارت في رؤوسهم أسئلة كثيرة كلها تطلب الإجابة السريعة والواضحة، لماذا أذعنوا لليهود ووثقوا في وعودهم؟ وإذا كان اليهود هم المحرضون والمحركون لهذه الجحافل الهائلة، فلِمَ يقفون هذا الموقف؟؟ لماذا لا نرسل إلى اليهود نطلب منهم الدخول في معركة حاسمة مع المسلمين؟؟

إن الموقف يحتم ذلك لنرى هل صحيح ما أخبرنا به نعيم أم لا؟؟؟

اختارت قريش عكرمة بن أبي جهل ليكون رأس وفد من قريش وغطفان، يرسلونهم إلى اليهود، يطلبون منهم الدخول في معركة حاسمة ضد المسلمين لينهوا بذلك هذا الموقف.

وكان اليوم يوم السبت، فردت قريظة بأن اليوم سبت، ونحن لا نفعل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا دليلاً على صدقكم في مناجزة محمد، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

لم تفاجأ قريش وغطفان بهذا الرد من قريظة، فإن نعيماً قد أخبرهم به، واعتبروه دليلاً على صدقه وإخلاصه ونصحه لهم.

وردوا على بني قريظة، لن نرسل إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا.

وعلمت قريظة أن الذي أخبرهم به نعيم بن مسعود حق[1].

وتخاذل الحلفاء، وتفرقت كلمتهم، وتمزقت وحدتهم، وتمكن الشك من قلوبهم، وارتابوا في أمرهم، فماذا يفعلون إزاء هذا الموقف المتخاذل من اليهود؟ وماذا يقولون لأقوامهم إذا رجعوا إليهم ولم يحققوا شيئاً مما خرجوا له؟

وعاد نعيم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأخبره بما فعل بالقوم، وبما أصبح عليه حال الحلفاء من التفرق والاختلاف.

الرسول يستطلع أخبار المشركين:

استمع الرسول ـ ﷺ ـ إلى نعيم بن مسعود، ووقف على الدور الهام الذي قام به لتفريق كلمة الأعداء، وتمزيق وحدتهم، وسره ما كان من نعيم وأراد أن يقف على أخبار الجيوش المتحالفة، ويعرف تأثير خدعة نعيم في نفوسهم، فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، أسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون رفيقي في الجنة»[2].

ولكن الخوف والجوع والبرد قد منع الناس من أن يقوم منهم أحد، وحينئذ انتدب رسول الله ـ ﷺ ـ حذيفة بن اليمان، يقول حذيفة: فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل القوم، انظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا»[3].

ذهب حذيفة ليدخل في القوم، ويرى ما فعلت بهم حيلة نعيم، يقول: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٢).
(٢) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٣).
(٣) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٣).

وعزم أبو سفيان قائد قوة الحلفاء، على أن يتخذ قراراً هاماً، وأراد أن يَتَثَبَّت من خلو المكان من الجواسيس، حتى لا تتسرب أخبار هذا القرار إلى المسلمين، ومن حقه أن يتثبت من ذلك، بل الواجب يحتم عليه أن يتأكد منه، فهو في معركة، والعدو يتربص به، ثم هو بعيد عن مقر الجيش الذي يقوده، والوقت ليلاً لا يرى أحد من بجواره، لذا قال: يا معشر قريش، لينظر كل امرىء من جليسه[1]؟

لقد قرر أبو سفيان أن ينسحب بجيشه، ولا بد أن يتم ذلك في سرية تامة، فقد ينكشف الأمر، ويباغته المسلمون وهو ينسحب بجيشه اللجب.

وتجلد حذيفة، وتمالك أمره، وبادر بسؤال من بجواره قبل أن يسأله واحد منهما فيفتضح أمره، ويقع المحذور، ولكن حذيفة كان واثقاً أنه سيؤدي دوره، ويعود إلى الرسول سالماً، ألم يقل له الرسول ـ ﷺ ـ : «ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا».

فالرسول إذاً قد وعده بالعودة، ولن يتخلف وعد رسول الله أبداً، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي، وقلت: من الرجل؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، وأخذت بيد الآخر فقلت: من الرجل؟ قال: عمرو بن العاص[2].

لقد كان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يتمتع بأعصاب حديدية، وتصرفات شجاعة بدهية، ولعل هذا هو الذي جعل رسول الله ـ ﷺ ـ ينتدبه لهذه المهمة الخطيرة.

أبو سفيان يقرر الرحيل:

اطمأن أبو سفيان بأن جيشه ليس فيه دخيل، ولم يتسرب إليه جاسوس، وراح يسمع القوم قراره الخطير فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٣٤٩).

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٣٤٩).

بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء.

فارتحلوا فإني مرتحل.

ركب أبو سفيان جملة، وأراد أن يرتحل في مقدمة الجيش، فقال له عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم، تذهب وتترك الناس؟

فاستحيا أبو سفيان، وأناخ بعيره، وأمر الناس بالرحيل، فارتحلوا وهو قائم[1].

واستطاع حذيفة أن يتسلل من القوم، ويعود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ كما استطاع أن يتسلل فيدخل فيهم، وعاد إلى الرسول فوجده يصلي، والبرد قارس شديد، والرسول متلفع بمِرْط لإحدى نسائه.

رأى رسول الله ـ ﷺ ـ حذيفة يرتجف من شدة البرد، فأشار إليه، فلما أتاه أدخله إلى رجليه، وطرح عليه طرْف المرط، يقول حذيفة: ثم رجع وسجد وإني لفيه، فلما سلَّم أخبرته الخبر[2].

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم[3].

وأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ فنظر في الوادي، فلم يجد من جند الشيطان أحداً، ولم يكد ـ ﷺ ـ يُمتع عينيه برؤية الوادي خالياً من جيش الشرك، ويزيح عن قلبه كابوس تلك الحرب المدمرة، ويمد بصره إلى السماء حامداً لله شاكراً فضله على ما أولاهم من كف أيدي المشركين عنهم، وكفايته لهم عن خوض

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٣٤٩).
(٢) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٤).
(٣) السيرة النبوية (٣/ ١٠٤٤).

معركة لا يعلم نتيجتها إلا هو ـ سبحانه ـ وحينئذ تنفس ـ ﷺ ـ الصعداء، وقال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم[1].

وتحققت نبوءة رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يحاول جيش الشرك أن يتوجه إلى المدينة بعد تلك الغزوة، وسار إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ في السنة الثامنة للهجرة وفتح مكة، ودالت دولة الشرك إلى أبد الآبدين.

٣ ـ معركة الحرة:

معركة الحرة وقعت في المدينة المنورة، ومما يؤسف له أشد الأسف أنها وقعت بين المسلمين بعضهم بعضاً، بين أهل المدينة من جهة، وبين جيش الخليفة يزيد بين معاوية من جهة أخرى، وكلا الفريقين يدين بالإسلام، ويؤمن بالله رباً وبمحمد رسولاً.

ولهذا كانت لها آثار سلبية، وعواقب وخيمة في نفوس المسلمين، فقد تنفس الناس الصعداء عندما انتهت المعارك التي دارت بين جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وبين جيش الشام الموالي لأمير الشام معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وفرح الناس فرحاً شديداً لما تم بين الفريقين من الصلح، واشتد فرح الناس، وزادت غبطتهم، عندما تنازل الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ حتى سمى الناس هذا العام الذي تم فيه التنازل، واجتماع الناس على خليفة واحد، عام الجماعة.

فما كادت أخبار بعث جيش من الشام إلى المدينة، تصل إلى آذان الناس، حتى ثارت في نفوسهم ذكريات مريرة، قاسىٰ منها المسلمون فترة، وكانوا يعتقدون أنها لن تعود مرة أخرى، فما بالها تطل برأسها ثانية.

وقد وقعت الواقعة، ودارت رحى الحرب، وتناولها المؤرخون، كل بطريقته، فمنهم من حمل حملة شعواء على الخليفة يزيد بن معاوية، حتى

---

(١) رواه البخاري باب غزوة الأحزاب.

أباحوا لعنه، واللعنة لا تجوز إلا على كافر بيِّن الكفر، وكأن هؤلاء حكموا بكفره بناء على ما وقع في عهده، من قتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وقتل أهل المدينة وإخافتهم في معركة الحرة، أو استباحوا لعنه لما جاء في الحديث الشريف: «من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[1].

ومن المؤرخين من احتاط، ومنع لعن يزيد حتى لا يتخذ وسيلة للعن أبيه ـ رضي الله عنه ـ أو يتوسع بعض الفسقة، ويلعن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وحمل هؤلاء ما وقع من يزيد من التصرفات السيئة على أنه تأول فأخطأ.

ودعم هؤلاء موقفهم هذا بأن يزيد تمت بيعته، فأصبح إماماً، وإن حدث ما يفسق به فهو إمام فاسق، وإذا فسق الإمام لا يعزل لمجرد فسقه، وهو أصح القولين عند العلماء، ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من حدوث الفتنة، ووقوع الفوضى، وسفك الدماء.

وكل واحدة من هذه فيها أضعاف أضعاف ما في فسق الإمام من المفاسد.

ولا شك أن لكل فريق رأيه ووجهة نظره، ولهذا رأيت قبل أن أتكلم عن موقعة الحرة أن أكتب شيئاً عن شخصية يزيد بن معاوية من الجهات المحايدة غير المنحازة، حتى نستطيع بعد ذلك أن نحلل الأحداث، ونقف على أسبابها وقفة المؤرخ المنصف، لكي يستبين الحق، وتظهر معالم هذه الصورة التي ما زالت لها رواسب عميقة في نفوس المسلمين.

ترجمة يزيد:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

---

(١) رواه أحمد في المسند والنسائي في السنن.

أمير المؤمنين، وكنيته أبو خالد، ولد سنة ست وعشرين على الأرجح، وبويع له بالخلافة في حياة أبيه، على أن يكون ولي عهده من بعده، وفي النصف من شهر رجب سنة ستين من الهجرة سنة ٦٨٠ م تأكدت له البيعة بعد موت أبيه.

وأمه ميسون بنت بحْدل بن أنيف بن وَلْجة الكلبي، روى عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وروى كذلك حديثاً آخر في الوضوء، وروى عنه ابنه خالد بن يزيد، وعبد الملك بن مروان، وعده أبو زرعة الدمشقي في رجال الطبقة العليا بعد الصحابة، وذكر أن له أحاديث.

وذكروا في وصفه أنه كان كثير اللحم، عظيم الجسم، كثير الشعر، جميلاً طويلاً، ضخم الهامة، محدد الأصابع غليظها مجدراً[1].

وكان معاوية قد طلق ميسون، وهي حامل بيزيد، فرأت في منامها أن قمراً خرج من قبلها، فقصت قصتها على أمها، فقالت: لئن صدقت رؤياك فستلدين من يبايع له بالخلافة.

ولدت ميسون يزيد، وجلست يوماً تمشطه وهو صبي صغير، فلما انتهت من تمشيطه نظرت إليه فأعجبها، فقبلته بين عينيه، وكان معاوية يرقب هذا المنظر هو وزوجته فاخته بنت قرظة، فقال:

إذا مات لم تفلح مزينة بعده فنوطي عليه يا مزين التمائما

ولكن فاختة لم يعجبها ما رأت، وكأنه ضايقها اعتزاز معاوية بابنه يزيد فقالت: لعن الله سواد ساقي أمك.

فقال معاوية: أما والله إنه لخير من ابنك عبد الله، وهو ولد معاوية من فاختة، ولكنه كان أحمق، فقالت فاختة: لا والله، ولكنك تؤثر هذا عليه[2].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٧).

(٢) نفسه.

فقال معاوية: سأبين لك هذا قبل أن تقومي من مجلسك.

استدعى معاوية ابنه عبد الله، فقال له: لقد بدا لي أن أعطيك كل ما تطلبه في مجلسك هذا فما حاجتك؟

قال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً فارهاً.

فقال معاوية! يا بني أنت حمار، ونشتري لك حماراً؟ قم فاخرج، ثم قال لأمه: كيف رأيت؟

ثم استدعى يزيد فقال: لقد بدا لي أن أعطيك كل ما تسألني في مجلسي هذا، فسل ما بدا لك.

فخر يزيد ساجداً، ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه فيَّ هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتوليني هذا العام صائفة المسلمين، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتوليني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتعرض لأيتام بني جمح، وأيتام بني سهم، وأيتام بني عدي.

قال معاوية: مالك ولأيتام بني عدي؟

قال يزيد: لأنهم حالفوني، وانتقلوا إلى داري.

فقال معاوية: قد فعلت ذلك كله، وقبَّل وجهه، ثم قال لفاختة بنت قرظة: كيف رأيت؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أوصه بي، فأنت أعلم به مني.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وكان يزيد أول من غزا مدينة القسطنطينية، ثم حج بالناس في تلك السنة (سنة تسع وأربعين أو خمسين) بعد رجوعه من هذه الغزوة من أرض الروم، وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم»[1].

---

(١) رواه البخاري.

وروي عن أبي بكر بن عياش قال: حج بالناس يزيد بن معاوية في سنة إحدى وخمسين وثنتين وخمسين وثلاث وخمسين[1].

معاوية يتعهد يزيد بالتربية:

كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يتعهد يزيد بالتربية ليعده ليوم سيطلب من المسلمين فيه البيعة له، ومعنى ذلك أن يزيد سيكون خليفة، وسيتحمل مسؤولية الأمة، ولكي يصل إلى هذه الدرجة لا بد أن يعد لذلك الإعداد الصحيح، ومعاوية أدرى الناس بما يتطلبه هذا الأمرمن الإعداد، وهو كذلك أعلم الناس بما يجب أن يتصف به رجل يتولى قيادة المسلمين.

لهذا فإنه ـ رضي الله عنه ـ تعهده منذ صغره، ومنذ توسم فيه ملامح القدرة على القيام بتلك المهمة الخطيرة، أحس معاوية بأن يزيد ـ وهو لا يزال حدثاً ـ صاحب شراب، فأراد أن يعظه برفق، ويشعره أنه إنما يأتي أمراً لا ينبغي أن يطلع عليه الناس، فالإنسان إذا ابتلي بمثل هذه القاذورات يجب أن يستتر، حتى يستره الله، وقد روي في الحديث الشريف «من ابتلي بشيء من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ».

ويروي الطبراني هذه القصة فيقول: كان يزيد في حداثته صاحب شراب، يأخذ مأخذ الأحداث، فأحس معاوية بذلك، فأحب أن يعظه في رفق فقال: يا بني، ما أقدرك على أن تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك، ويشمت بك عدوك، ويسيء بك صديقك.

ورأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له، فأراد أن يعلمه كيف يسوس الأمة، ويخوفه من قدرة الله عليه، ويشعره بأنه ـ سبحانه ـ مطلع على عمله، وعليه أن يراقبه ويخشاه، فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٩).

سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر[1].

ولما توفي أمير المؤمنين الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ وَفَدَ بعد ذلك عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ إلى معاوية بالشام، ووجد معاوية في وجود ابن عباس فرصة يعلم فيها يزيد كيف يتعامل مع الناس، فيحترم أهل بيت النبي ـ ﷺ ـ ويشارك الناس أفراحهم وأحزانهم، ويختلط بهم في مجامعهم، فيتعلم من الكبار، ويرحم الصغار، حتى تجتمع عليه القلوب في يوم سيكون فيه أحوج ما يكون إلى هذه القلوب.

فأمر معاوية ابنه يزيد أن يذهب إلى ابن عباس فيعزيه في الحسن بن علي، فلما دخل يزيد على ابن عباس رحب به وأكرمه، وجلس يزيد بين يدي ابن عباس، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المعزي، لا المهني.

ثم قال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثواباً وخير عقبى.

فلما خرج يزيد من عند ابن عباس قال: إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس، ثم أنشد متمثلاً:

مغاض عن العوراء لا ينطقوا بها وأصل وراثات الحلوم الأوائل[2]

فعل يزيد شيئاً أغضب والده، فهجره معاوية، وكان الأحنف بن قيس حاضراً فقال: يا أمير المؤمنين، إنما هم أولادنا، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولا تكن عليهم ثقلاً فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك.

فقال معاوية: لله درك يا أبا بحر، يا غلام، ائت يزيد، فأقره مني السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم، ومائة ثوب.

---

(١) البداية والنهاية (٨/٢٢٨).

(٢) البداية والنهاية (٨/٢٢٨).

فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟

فقال الغلام: الأحنف بن قيس.

فقال يزيد: لا جرم، لأقاسمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفاً وخمسين ثوباً[1]. ومن هذه القصة نفهم ذكاء يزيد وكرمه، ومكافأته لمن يقدم له معروفاً، فقد أدرك بفطنته أن أباه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه، ولا بد أن يكون هناك شخص وراء ذلك، فسأل: من عند أمير المؤمنين؟ فلما علم أنه الأحنف، عرف أن سبب رضا والده عليه، وبَعْثَهُ إليه بهذه المنحة لا بد أن يكون هو الأحنف، فقاسمه المنحة بتمامها. ومن الأمور التي ترشح صاحبها للمعالي، وتدنيه من قلوب الناس، وتجبرهم على محبته، الذكاء الذي يلمح به حاجات الناس، والكرم الذي يدفعه إلى قضائها.

ويشهد لذكاء يزيد وحضور بديهته، وتوقد خاطره ما رواه العتبي قال: قدم زياد بأموال كثيرة، وسفط مملوء جواهر ـ وكان عاملاً لمعاوية على العراق ـ فسر معاوية بما جاء به زياد، فقام زياد وصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية.

فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد، فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنبر، ومن زياد بن عبيد إلى حرب بن أمية.

فقال له معاوية: اجلس فداك أبي وأمي[2].

وأراد معاوية يوماً أن يخبر ما عند يزيد إذا آل الأمر إليه، فقال: كيف تراك فاعلاً إن وليت؟ قال: يمتع الله بك يا أمير المؤمنين، قال: لتخبرني.

قال: كنت والله يا أبت أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب.

فقال معاوية: سبحان الله! والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر بن الخطاب[3] ؟

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٨).

(٢) نفسه (٨/ ٢٢٧).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٩).

معاوية يوصي يزيد:

أحس معاوية ـ رضي الله عنه ـ بدنو أجله، وقرب ارتحاله من الدنيا، فأحضر ولده وولي عهده يزيد، وأوصاه بما يجب عليه أن يراعيه، وأن يعمل به بعد أن يتولى أمر المسلمين.

إن معاوية ـ رضي الله عنه ـ يدرك أنه هو الذي مهد ليزيد أمر الخلافة، وهو الذي توَّجه ليجلس على العرش، وشعوره بذلك يجعله يحس بالمسؤولية عن هذا العمل الذي لم يسبق إليه، إنه غَيَّرَ نظام الحكم، وأحدث فيه أمراً لم يرضه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو يقرر أمر الخلافة من بعده، حين جعل ابنه عبد الله شريكاً لمجلس الشورى في اختيار الخليفة، ونبَّه على أنه ليس له من أمر الخلافة شيء.

إن إحداث هذا التغيير في طريقة اختيار الخليفة أمر يتحمله معاوية وحده، لأنه أول من أخذ به من المسلمين، وأول من حمل المسلمين عليه، ولعله في إحداث هذا التغيير معذور، فقد شهد بنفسه المعارك الدامية بين المسلمين، ورأى بعينيه الأرواح التي أزهقت في معركة صفين من جراء عدم اتفاق المسلمين على خليفة يرعى شؤونهم، ويدبر أمرهم.

إن هذه المأساة التي حلت بالمسلمين لم تفارق عقل معاوية، حتى بعد أن اجتمع المسلمون عليه، وسلموا له بالخلافة، وإني أعتقد أنه إنما سعى ليولي ابنه أمر المسلمين في حياته، ويأخذ له البيعة قبل وفاته، حتى لا تتكرر تلك الكارثة التي أزهق بسببها عشرات الآلاف من أرواح المسلمين.

لقد حرص معاوية على حقن دماء المسلمين بهذا التغيير الذي أحدثه في نظام اختيار الخليفة، ولئن صح حدسي، وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ حريصاً على حقن دماء المسلمين بهذا العمل فهو مأجور عليه إن شاء الله ـ تعالى ـ.

على كل حال أحس معاوية بمسؤوليته عن تصرفات ولي عهده حتى بعد وفاته، فأراد أن يبرىء ذمته، وينصحه بما يرفع المسؤولية عنه فقال له:

يا يزيد، اتق الله فقد وطأت لك هذا الأمر، ووليت من ذلك ما وليت، فإن يك خيراً فأنا أسعد به، وإن كان غير ذلك شقيت به، فارفق بالناس، واغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به، وطَأ عليه يهنك عيشك، وتصلح لك رعيتك، وإياك والمناقشة وحمل الغضب، فإنك تهلك نفسك ورعيتك، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم، ولِنْ لهم ليناً بحيث لا يروا منك ضعفاً ولا خوراً، وأوطئهم فراشك، وقربهم إليك، وأدنهم منك، فإنهم يعلمون لك حقك، ولا تهنهم، ولا تستخف بحقهم، فيهينوك، ويستخفوا بحقك، ويقعوا فيك.

فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم، وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأي ليس في صدر واحد، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف، واخزن ذلك عن نسائك وخدمك.

وشمر إزارك، وتعاهد جندك، وأصلح نفسك تصلح لك الناس، ولا تدع لهم فيك مقالاً فإن الناس أسرع إلى الشر، واحضر الصلاة، فإنك إذا فعلت ما أوصيك به، عرف الناس لك حقك، وعظمت مملكتك، وعظمت في أعين الناس.

واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعهدهم فيه منك بالمعروف فإن ذلك يبسط آمالهم، وإن وفد عليك وافد من الكُوَر كلها فأحسن إليهم وأكرمهم، فإنهم لمن وراءهم، ولا تسمعن قول قاذف ولا ماحل، فإني رأيتهم وزراء سوء[1].

وروى ابن كثير ـ رحمه الله ـ من وجه آخر، أن معاوية قال ليزيد: إن لي خليلاً من أهل المدينة فأكرمه، قال: ومن هو؟ قال: عبد الله بن جعفر[2].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وقد كان يزيد حريصاً على العمل بوصية أبيه، فإنه لما وفد عبد الله بن جعفر على يزيد بعد وفاة معاوية ضاعف له الجائزة التي كان يعطيها له معاوية، فقد كانت جائزته على معاوية ستمائة ألف، فأعطاه يزيد ألف ألف، فقال له عبد الله: بأبي أنت وأمي، فأعطاه ألف ألف أخرى، فقال له عبد الله! والله لا أجمع أبوي لأحد بعدك[1].

وهكذا تبرز هذه الوصية حرص معاوية ـ رضي الله عنه ـ على أن يكون ولي عهده أهلاً لتحمل المسؤولية، وأن يكسب رضا الله ـ عز وجل ـ وثقة الناس، فقد بدأ وصيته بالأمر بتقوى الله ثم بالرفق بالرعية، والتغاضي عما يبلغه من قول الناس بالقدح فيه، وحذره من المناقشة والغضب وأمره باحترام كبار القوم واللين لهم، ومعرفة حقهم.

ثم وجهه إلى مشاورة أهل الخبرة والتجربة، وعدم الاستبداد برأيه، وأمره بالاجتهاد والجد والاهتمام بشؤون الجيش، واحترام أهل المدينة ومكة، والابتعاد عن المنافقين وزراء السوء.

يزيد بين القادحين والمعتدلين:

تعرض يزيد لحملة شعواء من بعض الفئات التي كانت تنظر إليه على أنه عدو لما تؤمن به، وعلى رأس هؤلاء جماعات من الشيعة الذين خذلوا علياً ـ رضي الله عنه ـ وورطوا الحسين ـ رضي الله عنه ـ ثم تخلوا عنه، وقد وضع هؤلاء المدَّعون لحب آل البيت أحاديث كثيرة في ذم بني أمية، وكان نصيب يزيد منها وافراً، وحظه منها كبيراً، حتى ذكروا اسمه نصاً في الأحاديث، ومن ذلك:

ما روى الحافظ أبو يعلى عن مكحول عن أبي عبيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط، حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد».

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وقد ذكر علماء الحديث المتخصصون في دراسة الرجال أن هذا الحديث وأمثاله معضل.

وروى أبو يعلى حديثاً آخر عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال أبو العالية: كنا مع أبي ذر بالشام فقال أبو ذر: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية».

قال البخاري: الحديث معلول، ولا نعرف أن أبا ذر قدم الشام زمن عمر بن الخطاب، وقد مات يزيد بن أبي سفيان زمن عمر، فولى مكانه أخاه معاوية.

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذم يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح شيء منها.

وإذا ثبت لدينا بشهادة أهل العلم الثقاة أن الأحاديث التي رويت في ذم يزيد كلها موضوعة، وأجود ما جاء في ذلك ضعيف الإسناد أو منقطع أو معضل، إذا ثبت هذا بقي علينا أن نعرف رأي كبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وموقفهم منه بعد بيعته وكذلك رأي ذوي الفضل والعلم وموقفهم من يزيد.

١ ـ عبد الله بن عمر ويزيد:

روى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد ثم قال: أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، يقال هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله، أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته».

فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون الفيصل بيني وبينه[1].

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي.

وكما كان هذا موقف ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ مع بنيه وأهله، كذلك كان له موقف مع زعماء الخارجين على يزيد، وأنكر عليهم خروجهم ومفارقتهم للجماعة، ونزع أيديهم من الطاعة.

روى البغوي عن زيد بن أسلم عن أبيه أن ابن عمر دخل وهو معه على ابن مطيع (أحد زعيمي الخارجين على يزيد) فلما دخل عليه قال: مرحباً بأبي عبد الرحمن، ضعوا له وسادة.

فقال: إنما جئتك لأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارقاً الجماعة مات موتة جاهلية»[1].

وقال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالب، ولا من بني عبد المطلب أيام الحرة[2].

٢ ـ محمد بن الحنفية ويزيد:

وهنا موقف آخر من تابعي كبير من الطبقة الأولى هو موقف محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، وكان موقفه من فتنة الحرة موقفاً مشهوراً.

فقد راوده عبد الله بن مطيع أحد الزعيمين اللذين قادا ثورة أهل المدينة على أن يخرج على يزيد أو يحرض عليه، أو يبعث أحد ولديه مع الثوار، ولكنه رفض ذلك كله، وقد سجل الحوار بين ابن الحنفية وبين ابن مطيع ابن كثير ـ رحمه الله ـ على النحو التالي:

مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٣).

يزيد فأبى عليهم، قال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتحدى حكم الكتاب.

فقال محمد: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة.

قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك.

فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع، أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فلا يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه.

فقال: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] ولست من أمركم في شيء.

قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا.

قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً.

قالوا: فقد قاتلت مع أبيك.

قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه.

قالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا.

قال: لو أمرتهما قاتلتُ.

قالوا: فقمم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال.

قال: سبحان الله!! آمر الناس بما لا أفعل ولا أرضاه، إذاً ما نصحت الله في عباده.

قالوا: إذاً نكرِهك.

قال: إذاً آمر الناس بتقوى الله، ولا يُرضون المخلوق بسخط الخالق، وخرج إلى مكة[2].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٣).

٣ ـ الحافظ ابن كثير ويزيد:

وهذا موقف عالم جليل من علماء السلف الصالح، وهو الحافظ إسماعيل بن كثير صاحب تفسير القرآن العظيم، وصاحب البداية والنهاية، وغيرهما من الكتب التي أسهمت في إثراء المكتبة الإسلامية، وهو صاحب المواقف التاريخية الحاسمة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وابن كثير ـ رحمه الله ـ له موقف من يزيد يدل على إنصاف وورع، فهو برغم ما ذكر عن يزيد لم يحمل عليه؛ وبرغم ما روى في دفع بعض التهم عنه لم يحكم ببراءته، ولكنه وقف موقف المؤرخ المنصف، فذكر ليزيد ماله وما عليه، فقال:

قد كان ليزيد خصال محمودة من الكرم والحلم، والفصاحة والشعر، والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة.

وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات[1].

ثم أخذ يحدد موقفه من يزيد، ومن الخارجين عليه، ويبين رأي علماء الأمة في مثل هذه الحال، هل يحل خلع يزيد لما اشتهر عنه؟ هل يجوز للأمة أن تنزع يدها من طاعته؟ وما رأي سلف الأمة في ذلك؟؟

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر، وإتيان بعض الفواحش... ثم قال: ولما خرج أهل المدينة عن طاعته، وخلعوه، وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة، لم يذكروا عنه ـ وهم أشد الناس عداوة له ـ إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر وإتيان بعض القاذورات، ولم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض، بل قد كان فاسقاً، والفاسق لا يجوز خلعه، لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة والوقوع في الهرج كما وقع في زمن الحرة.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٠).

فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا قاتلهم[1].

ولا يفوت ابن كثير هنا وهو المؤرخ المحايد الناقد أن يوجه لوما لاذعاً ليزيد حيث أباح المدينة بعد المعركة لجنوده، فيقول: وقد كان في قتال أهل الحرة كفاية، ولكنه تجاوز الحد بإباحة المدينة ثلاثة أيام، فوقع بسبب ذلك شر عظيم[2].

ومن الثغرات العميقة الغور في عصر يزيد بن معاوية مقتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وقد كان ذلك معولاً شديد الخطر في يد الخارجين على يزيد، يلوحون به لإثارة الناس ويقوضون به عرش يزيد، ولكن المنصفين من المؤرخين، لا يحملون يزيد تبعة قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ فليس هناك ما يثبت أن يزيد أمر بقتله، وليس هناك ما يدل على أن يزيد رضي بقتله وباركه، سوى ما نقل عن الروافض الذين غرروا بالحسين، ثم تركوه يواجه مصيره وحده.

بل الذي أثبته الثقات من المؤرخين المسلمين أن يزيد حزن لقتل الحسين، ولم يكافىء من حملوا إليه البشارة بقتله، وجاؤوه برأسه، وأنه أكرم أهله، ورد عليهم كل ما فقدوه بل ضاعفه لهم، وشيعهم إلى المدينة معززين مكرمين.

هذا أبو جعفر ابن جرير الطبري يقول: لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد ـ رأس الحسين وأهل بيته وأصحابه ـ قال يزيد:

يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله يا حسين، لو أنا صاحبك ما قتلتك[3].

ويقول: ثم دعا بالنساء والصبيان فأجلسوا بين يديه، فرأى هيئة قبيحة،

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).

(٢) نفسه (٨/ ٢٣٢).

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٠).

فقال: قبح الله ابن مُرجانة! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا[1].

ثم قال يزيد بن معاوية: يا نعمان بن بشير، جهزهم بما يصلحهم، وابعث معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً، وابعث معه خيلاً وأعواناً فيسير بهم إلى المدينة.

ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دارٍ على حِدَة، معهن ما يصلحهن، وأخوهن معهن علي بن الحسين في الدار التي هن فيها، قال: فخرجن حتى دخلن دار يزيد، فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثة أيام.

وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين إليه.....
ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيدُ عليَّ بن الحسين ثم قال: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت.

كاتبني وانْهِ كل حاجة تكون لك، وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول، فخرج بهم وكان يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه، فإذا نزلوا تنحى عنهم، وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم، وينزل منهم بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم، فلم يزل ينازلهم في الطريق هكذا، ويسألهم عن حوائجهم، ويلطفهم حتى دخلوا المدينة[2].

وهكذا يروي الطبري ـ رحمه الله ـ ما يثبت ندم يزيد وحزنه على ما كان من قتل الحسين، ويثبت إكرامه لأهله، مما يدل على أنه لم يأمر به.

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٦١).
(٢) نفسه (٥/ ٤٦٢).

ولم يكن الطبري وحده هو الذي يذكر هذا ليزيد، ولكن كذلك رأي المؤرخين الثقات، المحايدين كما ذكرت سابقاً، ولنستمع إلى ما رواه ابن كثير في الموضوع نفسه.

يقول ـ رحمه الله ـ: فأما قتل الحسين فإنه كما قال جده أبو سفيان يوم أحد، لم يأمر بذلك ولم يسؤه، ثم يروي عن معمر بن المثنى أن يونس بن حبيب الجرمي حدثه قال: لما قتل ابن زياد الحسين ومن معه، بعث برؤوسهم إلى يزيد، فسر بقتله أولاً، وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم، فكان يقول:

وما كان علي لو احتملت الأذى، وأنزلته في داري، وحكمته فيما يريده، وإن كان علي في ذلك وكْف ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله ـ ﷺ ـ ورعاية لحقه وقرابته، ثم يقول: لعن الله ابن مرجانة، فإنه أحرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله، أو يأتيني، أو يكون بثغرة من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله، فلم يفعل، بل أبى عليه وقتله، فَبَغَّضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فأبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً، مالي ولابن مرجانة، قبحه الله وغضب عليه[1].

ومن هذه النماذج نرى أن الاتهامات الموجهة إلى يزيد نوعان: نوع كله افتراء وكذب، وهو ما نفاه ابن كثير ـ رحمه الله ـ من اتهام الرفض له بالزندقة والإلحاد[2]، وإظهار الفرحة والشماتة بأهل المدينة بعد وقعة الحرة[3].

وأما النوع الثاني فإنه وإن صح لا يزيد صاحبه عن أن يكون فاسقاً، ولا يبيح أن يعزل صاحبه عن الإمامة، كما أفتى بذلك جمهور علماء المسلمين[4].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).
(٣) نفسه (٨/ ٢٣٣).
(٤) نفسه (٨/ ٢٣٢).

ولهذا لم يخرج ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ على يزيد، وحذر أهله وولده، بل وحذر ابن مطيع من الخروج عليه، وابن عمر من كبار الصحابة الموجودين في تلك الفترة، ومن فقهائهم.

ورفض ابن الحنفية الخروج عليه، وأنكر ما اتهموه به، ولم يشارك في الخروج، ولم يستحله وهو من كبار التابعين.

وكذلك كان موقف أبي جعفر محمد الباقر، حين أخبر بأنه لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب على يزيد.

وفاة يزيد:

مات يزيد بن معاوية بحُوَّارين قرية من قرى حمص في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول، سنة أربع وستين[1].

وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ومات وعمره ثمان وثلاثون سنة[2]، وحمل بعد موته من حوارين إلى دمشق، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد ـ أمير المؤمنين يومئذ ـ ودفن بمقابر باب الصغير[3].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفي أيامه وسع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيون وكان جدولاً صغيراً، فوسعه أضعاف ما كان يجري فيه من الماء[4].

قال عبد الرحمن بن مذعور: حدثني بعض أهل العلم قال: آخر ما تكلم به يزيد بن معاوية: اللهم لا تؤاخذني بما لم أحبه ولم أرده، واحكم بيني وبين عبيد الله بن زياد.

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٩).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٩).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٦).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٦).

قال: وكان نقش خاتمه: آمنت بالله العظيم[1].

وقال ابن عساكر: حدثنا أبو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي قاضي البحرين من لفظه، وكتبه لي بخطه ـ قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: أنت قتلت الحسين؟

فقال: لا.

فقلت له: هل غفر الله لك؟

قال: نعم، وأدخلني الجنة.

قلت: فالحديث الذي يروى أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى معاوية يحمل يزيد، فقال: (رجل من أهل الجنة يحمل رجلاً من أهل النار).

فقال: ليس بصحيح.

قال ابن عساكر: وهو كما قال، فإن يزيد بن معاوية لم يولد في حياة الرسول ـ ﷺ ـ وإنما ولد بعد العشرين من الهجرة[2].

روى السيوطي عن عطية بن قيس قال: خطب معاوية فقال: اللهم إن كنتُ إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه.

وإن كنتُ إنما حملني حب الوالد لولده، وأنه ليس لما صنعتُ به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك[3].

أسباب معركة الحرة:

يختلف المؤرخون في حكمهم ونظرتهم إلى هذه المعركة اختلافاً ليس مثل اختلافهم في المسائل التاريخية الأخرى، فالاختلاف في المسائل التاريخية ليس المقصود به الاختلاف في روايتها، فالوقائع التاريخية حقائق لا يجوز

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٦).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٦).

(٣) تاريخ الخلفاء (ص ٢٠٦).

الاختلاف فيها، وإنما يقع الخلاف غالباً في تحليلها وتفسيرها، واستنتاج الأحداث المترتبة عليها.

وهذا الخلاف ظاهرة إنسانية، وثمرة من ثمرات اختلاف العقول البشرية، ومن هنا فليس ثمت غبار على المختلفين، ولا اعتراض على إبداء وجهة النظر في مسألة ما، ولو أن اختلاف المؤرخين في معركة الحرة كان من هذا القبيل، لكان علينا أن نسجل كل وجهات النظر مع التقدير والاحترام لأصحابها.

ولكن اختلاف المؤرخين في هذه المسألة يغاير تماماً مواقفهم المتباينة في المسائل الأخرى فنحن هنا أمام معركة مثيرة، تشمئز منها النفوس، وتنفر من هولها القلوب، لا لكثرة القتلى، ولا لبشاعة الحدث، ففي التاريخ من المعارك ما هو أكثر منها إراقة للدماء، وأبشع منها مأساة وأحداثاً، ولكن لأنها قتال شرس بين المسلمين، ولأنها وقعت في المدينة المنورة المدينة المقدسة، ولأن جيش الشام قد استباح المدينة ثلاثة أيام ينهب ويسلب ويعتدي ويدمر.

هذه العوامل التي صاحبت هذه المعركة، هي التي جعلت النفوس تشمئز عند ذكرها، والقلوب تنفر من الاستماع إليها، وبالتالي شَكَّلت نظرة المؤرخين إليها وإلى قيادتها، فاحترام المسلمين لأهل المدينة جعلهم يتعاطفون معهم، حتى ولو كانوا مخطئين في تقديرهم واتجاههم، وتقديس المسلمين للمدينة أثار من نفوسهم بغض المعتدين عليها، والمنتهكين لحرمتها.

ولهذا فإننا نرى بعض المؤرخين يتعامل مع الحادث بعاطفة محضة، وينسى واجبه كمؤرخ يجب أن يتعامل مع أي حدث بواقعية تبعده عن الانحياز والميل غير المعتدل، ومنهم من انضمت إلى عاطفته الجياشة محبته وتشيعه لآل البيت، وعداوته للنظام الحاكم، ولو كان على الحق.

وقليل هؤلاء الذين استطاعوا أن يتجردوا من عاطفتهم ولو إلى حين، وأن يتناولوا الحادث كما يتناولون عادة الأحداث التاريخية، ويعالجوه من جوانبه المختلفة، فيذكرون لكل فريق ما له وما عليه.

وهذا الفريق هو ما ينبغي أن يعتمد المؤرخ على رواياته، وأن يحتاط

مع ذلك لما يذكره غيره حتى يوافق روايته الثقات، فعندئذ لا بأس بأخذ رأيه، والنظر في وجهة نظره، وإلا طرحت من غير لوم على من يهملها، ولا يجوز بأي حال أن تصاغ بطريقة توهم صحتها، والقطع بما جاء فيها، إلا إذا أراد مناقشتها وبيان فسادها.

وهذه ستكون طريقتنا في معالجة هذا الحادث المفجع الدامي بمشيئة الله.

يجمع المؤرخون على أن أسباب هذه الواقعة هو خروج أهل المدينة على يزيد بن معاوية ونبذ بيعته، ومبايعتهم لعبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع، ثم يختلفون بعد ذلك في جواز الخروج على يزيد.

ويجتمعون كذلك على أن سبب الخروج عليه هو تلبسه ببعض المعاصي، وخروجه على ما ألفه المسلمون من ولاتهم وأمرائهم، ثم يختلفون بعد ذلك في الأمور التي تُجوِّز خروج الرعية على الإمام، وهل ما ارتكبه يزيد يجيز الخروج عليه أم لا؟

والذي عليه جمهور علماء المسلمين أنه لا يجوز الخروج على الإمام إلا أن يجاهر بكفر بواح ظاهر لا يحتمل التأويل، عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: بايعنا رسول الله - ﷺ - على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

وفي رواية: وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان[1] وعلى هذا فالمعصية مهما كانت لا تجيز خلع الإمام ولا الخروج عليه، يقول رسول الله - ﷺ -: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم».

قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟

---

(١) متفق عليه.

قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي شيئاً من معصية الله، ولا ينزع يداً من طاعة»[1].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من رأى من أميره شيئاً بكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة فيموت إلاّ مات ميتة جاهلية»[2].

ونظرة إلى هذه الأحاديث الصحيحة نرى أنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي انعقدت له البيعة صحيحة، وكان مستوفياً للشروط ما دام يقيم الصلاة، فإن ترك الصلاة وجاهر بالفسق، ينصح ويحذر، ولا يجوز الخروج عليه[3].

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ولما خرج أهل المدينة عن طاعته (يريد يزيد) وخلعوه، وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة لم يذكروا عنه ـ وهم أشد الناس عداوة له ـ إلا ما ذكروه من شرب الخمر وإتيان بعض القاذورات، ولم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض.

بل كان فاسقاً، والفاسق لا يجوز خلعه لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع زمن الحرة[4].

وفد أهل المدينة إلى يزيد:

كانت ثورة عبد الله بن الزبير في مكة مثار فزع وقلق ليزيد بن معاوية ـ أمير المؤمنين ـ حتى اضطر إلى خلع عمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة، لأنه ظن أنه يمالىء ابن الزبير، وولى مكانه ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فلما قتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ ثار رجل آخر من نجد يقال له: نجدة بن عامر الحنفي.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) القيادة والجندية في الإسلام (١/ ٣٣) للمؤلف.

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).

حاول الوليد بن عتبة ـ أمير الحجاز من قبل يزيد ـ أن يفتك بابن الزبير ولكنه لم يستطع لأنه كان دائماً متحصناً ممتنعاً، فعزل يزيد الوليد، وولى مكانه ابن عم له آخر هو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ويصفه ابن كثير بأنه كان فتى غراً حدثاً غمراً لم يمارس الأمور[1].

واختار الأمير الجديد وفداً من أهل المدينة وأشرافها فيهم عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن أبي عمرو المخزومي، والمنذر بن الزبير، وأرسلهم إلى يزيد في دمشق، وكأنه يريد بذلك أن يظهر ولاء أهل المدينة ليزيد، فلما قدم الوفد على يزيد أكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم[2].

ولكن صنيع يزيد هذا لم يثنِ أهل المدينة عما عزموا عليه من الخروج عليه وخلعه، فلم يكد الوفد يعود إلى المدينة حتى أعلنوا عدم ولائهم ليزيد، وشتموه، وحرضوا الناس على الخروج عليه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين؛ يشرب الخمر، وتعزف عنده القيان، وإنا نشهدكم أننا خلعناه.

وصدقهم الناس فيما قالوا، وخلعوا الخليفة، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على الموت[3].

كان عبد الله بن عمر بن الخطاب في المدينة المنورة حين خلع أهلها يزيد، وبايعوا ابن حنظلة فلم يرض عما فعلوا، وأنكر عليهم خروجهم على الإمام الذي بايعوه[4].

وعلم يزيد بما فعل أهل المدينة، فأحب أن يعذر إليهم، وأن يذكرهم بمغبة ما صنعوا ويخوفهم عاقبة تمردهم وخروجهم على إمامهم، فأرسل إلى النعمان بن بشير الأنصاري فقال له: ائت الناس وقومك فافثأهم عما يريدون،

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢١٦).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٠).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢١٦).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢١٦).

فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىء الناس على خلافي، وبها من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك[1].

وتوجه النعمان بن بشير إلى المدينة، وأمر أهلها بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوفهم عاقبة الفتنة، وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام[2].

فقال عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟

فقال النعمان: أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحا الموت بين الفريقين، قد هربت على بغلتك تضرب جنبيها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين ـ يعني الأنصار ـ يُقتلون في سككهم ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم[3]!

ولم يسمع الناس نصيحة النعمان، وعصوه، وانصرفوا عنه. يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وكان الأمر والله كما قال سواء[4].

الاستعداد للمعركة:

رجع النعمان بن بشير إلى يزيد بأخبار أهل المدينة، وأنهم لم يسمعوا له، ولم يرجعوا إلى الطاعة، فغضب يزيد، وأصر على أخذهم بالقوة، وإرغامهم على الطاعة.

وفهم أهل المدينة من كلام النعمان أنها الحرب لا محالة، وعليهم أن يستعدوا لها، وأن يعبئوا الناس لمواجهتها، ووثب أهل المدينة على واليهم

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨١).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨١).
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨١).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢١٦).

عثمان بن محمد بن أبي سفيان وتتبعوا بني أمية ومن كان على رأيهم من قريش، وكانوا نحواً من ألف رجل[1].

ولكن هؤلاء أسرعوا النهضة، ونزلوا جميعهم في دار مروان بن الحكم، وحاصرهم أهل المدينة هناك حصاراً ضعيفاً، واستدعى مروان بن الحكم حبيب بن كُرَّة، وكتب له كتاباً وبعثه به إلى يزيد بن معاوية، وخرج عبد الملك بن مروان مع حبيب إلى ثنية الوداع، وهناك دفع إليه الكتاب وقال له: قد أجلتك اثنتي عشرة ليلة ذاهباً، واثنتي عشرة ليلة مقبلاً، فوافني لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان تجدني إن شاء الله في هذه الساعة جالساً أنتظرك، وكان الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذب، ورمينا بالجنوب ـ يعني الأرض الغليظة ـ فياغوثاه يا غوثاه![2].

ذهب حبيب إلى الشام، وأعطى الكتاب ليزيد، فلما قرأه استفزّه، فتمثل قائلاً:

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي فبدلت قومي غلظة بلِيان

ثم التفت إلى الرسول وقال: ويلك! ما فيهم ألف رجل؟ قال: بلى. قال: فهلا قاتلوا ساعة من نهار؟

واستدعى يزيدُ عمرو بن سعيد، وقرأ عليه الكتاب، واستشاره في الأمر، وعرض عليه أن يوليه الجيش الذي سيبعثه إلى المدينة فاعتذر، فأرسل إلى مسلم بن عقبة المرّي، وهو شيخ كبير ضعيف، وقلده أمر الجيش، وأرسل معه عشرة آلاف فارس[3].

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٢).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٢).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢١٨).

قال يزيد لمسلم: فاخرج فأنبئني نبأك، وسر بالناس، فخرج مناديه فنادى: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملا، ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته، فانتُدب لذلك اثنا عشر ألف رجل[1].

ونحن نلاحظ هنا أن مسلم بن عقبة أغرى الناس بالمال الوفير، فالأعطيات كاملة وفوقها معونة مائة دينار لكل رجل ينضم إلى الجيش، وهذه المعونة ليست مؤجلة، وإنما هي عاجلة يأخذها الرجل لتوِّه.

إن مسلماً يعلم أنه ذاهب لقتال أهل المدينة، وللمدينة قدسيتها ومكانتها في نفوس المسلمين، وهو لهذا يعلم أنه لن يغري المقاتلين بثواب الشهداء، ولا بأجر المجاهدين في سبيل الله، فإنه لو فعل ذلك لن يجد من يخرج معه، لأن الذين يرجون ثواب الشهداء وأجر المجاهدين هم المؤمنون الأتقياء الذين يرغبون فيما عند الله، وهؤلاء لا يمكن أن ينضم منهم أحد إلى جيش خرج لقتال أهل المدينة.

لذلك لم يكن بد من إغراء الناس بالمال، حيث يسيل له لعاب المفتونين بالدنيا، والذين لا يعنيهم أمر الآخرة في شيء، وقد أسرع فعلاً للانضمام إلى هذا الجيش أوباش الناس الذين لا يعنيهم إلا المال، ولا يهمهم بعد ذلك من يقاتلون، أيقاتلون أصحاب رسول الله، أم يقاتلون أعداء الله؟ ولا يعنيهم كذلك إلى أي بلد سيذهبون، إلى مثوى رسول الله ـ ﷺ ـ أم إلى مأوى الشيطان؟؟

وإني أعتقد أنه لولا إغراء هذا الجيش بالمال والمال الوفير، لما خرج أحد قط لقتال أهل المدينة، ولخسر يزيد المعركة بغير قتال.

اجتمع حول مسلم بن عقبة اثنا عشر ألف فارس، وخمسة عشر ألف راجل، استعرضهم يزيد وهو على فرس له: فجعل على أهل دمشق عبد الله ابن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السَّكوني، وعلى أهل

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٣).

الأردن حبيس بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين رَوْح بن زنباع الجذامي وشريك الكناني، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم مسلم بن عقبة المري من غطفان[1].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ويسميه السلف مسرف بن عقبة[2].

أدرك النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ النهاية السيئة التي سيؤول إليها أمر أهل المدينة، فحاول أن يصرف يزيد عن مسلم بن عقبة، وطلب القيادة لنفسه، لعله إن وصل إلى المدينة بهذا الجيش اللجب يستطيع أن يقنع المقاتلين فيها بالعدول عن رأيهم، وإظهار الطاعة للخليفة الذي بايعوه.

ولكن الخليفة كان غاضباً لما فعله أهل المدينة ببني أمية، وزادته رسالتهم غيظاً على غيظه كما كان يشعر بعطف النعمان على أهل المدينة، لهذا رفض طلب النعمان، وقال في حدة وغضب: لا، ليس لهم إلا هذا الغشمة، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم، وعفوي عنهم مرة بعد مرة.

وازداد شعور النعمان بما سيحل بالمدينة وأهلها من الدمار والخراب فقال: يا أمير المؤمنين أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ـ ﷺ ـ. وقال عبد الله بن جعفر: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم؟

قال يزيد: إن فعلوا فلا بأس عليهم[3].

يزيد يوصي مسلم بن عقبة:

استعد الجيش لمغادرة الشام، ووقف يزيد في وداعه، وكان قد بلغه أن عبد الله ابن الزبير في مكة يقول في خطبته: يزيد القرود، شارب الخمور، تارك الصلوات، منعكف على القينات، فعندما رأى يزيد الجيش تذكر مقالة ابن الزبير فأنشد:

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢١٨).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢١٨).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢١٨).

أبلـغ أبـا بكـر إذا الجيـش سـرى وأشـرف الجيـش علـى وادي القـرى
أجمـعُ سكـران مـن القـوم تـرى يـا عجبـاً مـن ملحـد فـي أم القـرى
مخادع للدين يقضي بالفرى

وابن الزبير كان يكنى أبا بكر.

وكأن يزيد تذكر شفاعة النعمان بن بشير في أنصار رسول الله ـ ﷺ ـ وتذكر كذلك شفاعة عبد الله بن جعفر، وما وعده به من قبول التوبة منهم، وعدم مؤاخذتهم بما كان منهم. فقال لمسلم: ادع القوم ثلاثاً، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فما فيها من مال أورِقَة ـ يعني الدراهم ـ أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عنهم، وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصِ به خيراً، وأَدْنِ مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه[1].

يقول ابن كثير: وقال له: إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني[2].

وبلغ أهل المدينة إقبال مسلم بالجيش، وقربه من المدينة، فعندئذ شددوا الحصار على بني أمية المجتمعين في دار مروان بن الحكم، وقالوا: والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم، أو تعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة، ولا تدلوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدواً، فنكف عنكم ونخرجكم عنا، فأعطوهم عهد الله، فأخرجوهم من المدينة[3].

وكان الرسول الذي بعثوه إلى الشام قد عاد إليهم فأخبرهم بما أعد يزيد، وما عزم عليه، فحمدوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[4].

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٤).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢١٩).
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤١٩).
(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٤).

بنو أمية يلتقون بجيش مسلم:

التقى بنو أمية في وادي القرى بجيش مسلم بن عقبة، وأخذ مسلم يسألهم عن الأخبار، ولا يخبره أحد لما أخذ عليهم من عهد الله وميثاقه، وتقدم عبد الملك بن مروان وقال لمسلم: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أقفيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، فإن الله ناصرك عليهم إذ خالفوا الإمام، وخرجوا عن الطاعة[1].

فشكر له مسلم بن عقبة على نصيحته، وامتثل ما أشار به.

مسلم يهاجم المدينة:

نزل مسلم بجيشه في الحرة الشرقية، وكان أهل المدينة قد اجتهدوا في تحصينها، وأحيوا خندق رسول الله ـ ﷺ ـ وزادوا عليه خنادق أخرى في الجهات المكشوفة، وقسموا جيشهم أربعة أرباع، على كل ربع أمير.

وكان على الربع الأول عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعلى الثاني عبد الله ابن مطيع، وعلى الثالث ابن هريرة في الموالي، وعلى الرابع ابن ربيعة[2]، وقيل على الربع الثالث عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف، وعلى الرابع معقل بن سنان[3].

ولما علم قواد الجيوش بخيانة بني حارثة، وفتحهم الطريق لجيش مسلم بن عقبة، أقبلوا من جهات المدينة المختلفة، واجتمعوا جميعاً في مواجهة أهل الشام[4].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢١٩).
(٢) وفاء الوفاء (١/ ١٣٠).
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٧).
(٤) وفاء الوفا (١/ ١٣٠).

واجه مسلم بجيشه أهل المدينة، ودعاهم إلى السلم ثلاثة أيام، وهم يأبون إلا الحرب، فلما انقضت الثلاث، قال لهم في اليوم الرابع: يا أهل المدينة، مضت الثلاث، وإن أمير المؤمنين قال لي: إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرني أن أؤجلكم ثلاثاً وقد مضت، فما أنتم فاعلون؟ أتسالمون أم تحاربون؟

فقالوا: بل نحارب.

فقال: لا تفعلوا، بل سالموا، ونجعل جدنا وقوتنا على هذا الملحد ـ يعني ابن الزبير ـ فقالوا: يا عدو الله، لو أردت ذلك لما مكناك منه، أنحن نذركم تذهبون فتلحدون في بيت الله الحرام[1]؟

رأى قائد جيش الشام أن أهل المدينة مصرون على القتال فاستعد لدخول المعركة.

كيف دارت المعركة؟

عبأ مسلم جيشه، وأراد أن يضرب القلب ضربة يشيع بها الرعب في قلوب أهل المدينة، فوجه الخيل نحو عبد الله بن حنظلة، ولكن عبد الله حمل على الخيل حملة شديدة حتى انكشفت وتقهقرت حتى ردَّت إلى مسلم بن عقبة، فنهض مسلم بمن كان معه من الرِّجال، وصاح بهم فقاتلوا قتالاً شديداً.

وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل، وقال له! مر من معك من الفرسان فليأتني فليقف معي، فإذا حملت فليحملوا، والله لا أنتهي حتى أبلغ مسلماً، فإما أن أقتله، وإما أن أقتل دونه.

فقال ابن الغسيل لعبد الله بن الضحاك الأنصاري: ناد في الخيل فلتقف مع الفضل بن العباس، فنادى فيهم، فجمعهم إلى الفضل، وحمل الفضل على

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢١٩).

أهل الشام فانكشفوا، فقال لأصحابه: ألا ترونهم كُشْفاً لئاماً؟ احملوا أخرى جعلت فداكم، فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلنه أو لأقتلن دونه، إن صبر ساعة معقب سرور أبد، إنه ليس بعد صبرنا إلا النصر[1].

وحمل الفضل وحمل أصحابه، فانهزمت خيل الشام، وظهر مسلم بن عقبة يحيط به خمسمائة راجل جثاة على الركب، قد شرعوا أسنتهم نحو القوم، وتقدم الفضل نحو حامل راية أهل الشام ليضرب رأسه، وكان صاحب الراية قد وضع على رأسه مِغفرا، فضربه الفضل فقطَّ المغفر، وفلق هامته فخر ميتاً، فقال: خذها مني وأنا ابن عبد المطلب.

وظن الفضل أنه قتل مسلماً، فقال: قتلت طاغية القوم ورب الكعبة.

فقال مسلم: أخطأت استك الحفرة.

وكان الذي قتل غلاماً لمسلم يقال له: روميّ، وكان شجاعاً[2].

وعندئذ أخذ مسلم الراية، ونادى في أصحابه: يا أهل الشام، أهذا القتال قتال قوم يريدون به أن يدفعوا عن دينهم، وأن يعزوا به نصر إمامهم، قبَّح الله قتالكم منذ اليوم ما أوجعه لقلبي، وأغيظه لنفسي! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا العطاء، وأن تجمَّروا في أقاصي الثغور، شدوا مع هذه الراية، ترَّح الله وجوهكم إن لم تعتبوا[3].

وثارت الحمية في نفوس أهل الشام لقول أميرهم، وقد خافوا أن يحرموا من أُعطياتهم، وأن يغربوا في أقاصي الثغور ويحبسوا فيها، فشدت الخيل والرَّجالة على عبد الله بن حنظلة وجيشه حتى دنوا منه وركب مسلم بن عقبة فرسا له، وأخذ يحرض جيشه على القتال والاستبسال فقال:

يا أهل الشام، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً، ولا أوسعها بلداً، ولم يخصصكم الله بما خصكم به من النصر

---

(١) تاريخ الطبري (٥/٤٨٨).

(٢) نفسه (٥/٤٨٨).

(٣) نفسه (٥/٤٨٨).

على عدوكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفُلْج[1].

وعاد مسلم إلى مكانه، وأمر الخيل أن تهجم على ابن الغسيل، وأمر ابن الغسيل جنده أن يضربوا في وجوه الخيل بالرماح والسيوف حتى نَفَرَت وأحجمت، ولم تستطع أن تتقدم.

وهنا نادى مسلم بن عقبة: يا أهل الشام، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم، يا حصين بن نمير، انزل في جندك، فنزل حصين في أهل حمص، فمشى إلى أهل المدينة.

ورأى مسلم ابن نمير يتقدم في جنده تحت راياتهم نحو ابن الغسيل، فقام في أصحابه فقال: يا هؤلاء، إن أعداءكم قد أصابوا وجه القتال الذي ينبغي أن تقاتلوهم به، وإني قد ظننت ألا تلبثوا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم إما لكم وإما عليكم، أما إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة، والله ما أظن ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم.

إن لكل امرىء منكم ميتة هو ميت بها، والله ما من ميتة بأفضل من ميتة الشهادة، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها، فوالله ما كل ما أردتموها وجدتموها[2].

ومشى مسلم برايته حتى وقف قريباً من القوم، وقدم ابن نمير برايته حتى دنا من القوم، وأمر مسلم بن عقبة عبد الله بن عضاه الأشعري فمشى في خمسمائة رام حتى اقتربوا من عبد الله بن حنظلة، وأخذوا يرمونهم بالنبل.

فقال ابن الغسيل: علام تستهدفون لهم؟ من أراد التعجّل إلى الجنة

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٩).
(٢) نفسه (٥/ ٤٩٠).

فليلزم هذه الراية، فقام إليه كل شجاع يريد الجنة، ويتشوف للشهادة، فقال: الغدوّ إلى ربكم فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعة قريري عين[1].

أثارت كلمات ابن حنظلة الشوق إلى الجنة من نفوس أصحابه، فنهضوا إلى القتال، وقاتلوا جيش الشام أشد القتال، وأخذ عبد الله يقدم بنيه بين يديه واحداً بعد واحد حتى قتلوا جميعاً، وهو يضرب بسيفه ويقول:

بُعدا لمن رام الفساد وطغى وجانب الحق وآيات الهدى
لا يبعد الرحمن إلا من عصى

وقتل ابن حنظلة بعد أن قتل بنوه الثمانية بين يديه[2]، وكذلك قتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس الأنصاري[3].

وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو وبنون له سبعة، وبعث برأسه إلى يزيد[4] وخرج محمد بن سعدبن أبي وقاص يقاتل القوم، فلما رأى الناس ينهزمون، أخذ يضرب بسيفه حتى غلبته الهزيمة، وقتل مع من قتل[5].

واستبسل أهل المدينة في القتال، ولولا خيانة بني حارثة، وإتاحتهم الفرصة لأهل الشام لدخول المدينة من قبلهم لتغير الموقف، ولكان الحال غير الحال.

مسلم بن عقبة يبيح المدينة:

كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة ٦٣ هـ = ٦٨٣ م[6] وكانت مدة الإمهال وهي ثلاثة أيام قد انتهت، وأصر أهل

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٠).
(٢) وفاء الوفا (١/ ١٣٣).
(٣) وفاء الوفا (١/ ١٣٣).
(٤) نفسه (١/ ١٢٩).
(٥) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩١).
(٦) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٤).

المدينة على الحرب، وخرجوا من جموع كثيرة لمواجهة أهل الشام، وهابهم أهل الشام في بداية الأمر، وكرهوا قتالهم، ولم يمض سوى وقت قليل حتى سمع أهل المدينة التكبير من داخل المدينة.

كان ذلك نتيجة إدخال بني حارثة جماعة من جيش أهل الشام من جهتهم، فما أن سمع أهل المدينة التكبير من داخلها، حتى انصرفوا عن القتال، ودخلوا المدينة خوفاً على أهليهم وأولادهم، فوقعت الهزيمة بجيش المدينة[1].

وأباح مسلم المدينة لجيشه ثلاثة أيام كما أوصاه يزيد، فدخل الجند المدينة وعاثوا فيها فساداً، فقتلوا الرجال، ونهبوا الأموال[2].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، . . . . وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحدّ ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[3].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن جيش أهل الشام لما أباح لهم مسلم المدينة ثلاثة أيام استباحوا الأعراض، واستحلوا الفروج[4]. وروى ابن الجوزي بسنده عن المدايني، قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوْج[5].

وذكر المجد أنهم سبوا الذرية، واستباحوا الفروج، وأنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتي حملن: أولاد الحرة[6].

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٣٠).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩١).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).
(٤) وفاء الوفا (١/ ١٣٢) نقلاً عن المجد.
(٥) وفاء الوفا (١/ ١٣٤) والبداية والنهاية (٨/ ٢٢١).
(٦) وفاء الوفا (١/ ١٣٢) نقلاً عن المجد.

وروى القرطبي عن ابن حزم قال: وجالت الخيل في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، وبالت، وراثت بين القبر والمنبر ـ أدام الله تشريفها ـ[1].

تعليق:

لا شك أنَّ إباحة المدينة النبوية جريمة لا تغتفر لمن أباحها أو أمر بها أو رضي عنها، وهذا أمر لم يحدث في أي عهد من عهود الدولة الإسلامية مع تعاقب الحكام والأمراء، واختلاف أحوالهم ونزعاتهم، فالمدينة النبوية بلد مقدس له حرمته ومكانته في نفوس المسلمين وقلوب المؤمنين، ومهما تكن الجريمة التي وقعت من أهله، فإنها لا تبيح مطلقاً حرمة هذا البلد الطيب الطاهر، نعم، إن حق الخليفة الذي أخذت له البيعة السمع والطاعة، ومن حقه أن يرد الخارجين عليه، وأن يعيدهم إلى الطاعة حتى لا تكون فتنة.

ولكن ليس من حقه مطلقاً أن يبيح بلداً آمناً فيه الشيوخ الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض، وفيه النساء اللاتي لا يقاتلن ولا يقدرن على القتال، وفيه الصبيان الذين لا ذنب لهم ولا جريرة.

إن إباحة المدينة على ما فيه من الخطأ الفاحش، والظلم البين، والقسوة البالغة، أمر غير مقبول لأي جيش ومن أي أمير، فما بالنا إذا كان الأمير مسلم بن عقبة المري الرجل الجاهل، الفاسق، الذي كان يظن أنه يتقرب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقتل أهل المدينة، بل كان يعتقد أنه السبيل لنجاته من النار حتى كان يقول: لئن دخلت النار بعدها إني لشقي[2].

وما بالنا إذا كان الجيش مثل هذا الجيش الذي لم يجتمع إلا لأخذ العطاء، ولم يجدَّ في الحرب إلا حين هُدد بحرمانه وتجميره، إنه جيش لم يقاتل على مبادىء، ولم يدخل المعركة على بصيرة، وإنما حباً في الغنيمة، ورغبة في الحصول على الدنانير.

إن هذا الجيش لا يستبعد عليه أن يفعل كل شيء إذا أبيحت له المدينة،

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٢٦).

(٢) وفاء الوفا (١/ ١٣١).

ووجد نفسه في حل من سلبها ونهبها، غير أن النفس لا تطمئن إلى ما روي من استحلال الأعراض واستباحة الفروج، لأنه لا يوجد من يستحل ذلك إلا أن يكون كافراً مكابراً، وتميل نفسي إلى أن هذه المقولة مما زيفته أقلام أعداء بني أمية، ويؤيد ذلك ما يأتي:

١ ـ إن كبار المؤرخين لم يذكروا ذلك، فالطبري يقول: وأباح مسلم المدينة ثلاثاً؛ يقتلون الناس، ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة[١].

والطبراني يكتفي بقوله: فدخل مسلم المدينة، وهرب منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وعاث فيها، وأسرف في القتل، ثم خرج منها[٢].

والقرطبي يقول: ووجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش عظيم من أهل الشام فنزل المدينة، فقاتل أهلها، فهزمهم، وقتلهم بحرة المدينة قتلا ذريعاً، واستباح المدينة ثلاثاً، .... ثم يقول: فقتل بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين[٣].

والإمام ابن حزم الذي روى أن الخيل دخلت المسجد النبوي وبالت فيه وراثت بين القبر الشريف والمنبر لم يذكر أنهم استباحوا الفروج[٤].

وابن الجوزي الذي روى عن المدايني عن هشام بن حسان قال: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج، يقول في رواية أخرى عن المدايني: وأباح مسلم المدينة ثلاثاً، يقتلون الناس، ويأخذون الأموال، ورفعوا على النساء[٥]. ولم يذكرا استباحة الفروج.

والواقدي يروي قصة الحرة دون أن يذكر استباحة الفروج بالرغم من أنه

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩١).
(٢) وفاء الوفا (١/ ١٢٦).
(٣) وفاء الوفا (١/ ١٢٦).
(٤) وفاء الوفا (١/ ١٢٦).
(٥) نفسه (١/ ١٢٩).

ذكر أن يزيد قال لمسلم: فمن عاقك عن دخولها، أو نصب لك حرباً، فالسيفَ السيفَ، لا تُبق فيهم، وأنهبها ثلاثاً، وأجهز على جريحهم، واقتل مدبرهم، وإياك أن تبقي عليهم[1].

وابن كثير يقول: ثم أباح مسلم بن عقبة ـ الذي يقول فيه السلف مسرف بن عقبة ـ قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله، المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد ـ لا جزاه الله خيراً ـ وقتل خلقاً من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكره غير واحد[2].

ولما ذكر ما قيل من استباحة الفروج، ذكر ذلك بطريقة وأسلوب يدل على أنه غير واثق مما قيل فقال: ووقعوا على النساء، حتى قيل إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج فالله أعلم[3].

٢ ـ نلاحظ أن مسلم بن عقبة ـ قبَّحه الله ـ كان حريصاً على تنفيذ وصية يزيد له كما وصاه بها، كما كان يخشى أن يفعل شيئاً لم يأمره به، حتى لا يتعرض لغضبه وعقوبته.

ونلاحظ أن وصية يزيد حددت له ما يباح للجند في هذه الأيام الثلاثة، وذلك حين قال له: فإن أُظهِرت عليهم فأبحها ثلاثاً: فما فيها من مال أورِقَة ـ يعني دراهم ـ أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس[4].

وهكذا لم يترك يزيد إباحة المدينة مطلقة حتى يفعل مسلم ما يريد، ولم يذكر أحد حتى ممن حملوا على يزيد، وتحاملوا عليه أنه أوصى بسبي الذرية أو استباحة الفروج، وكلهم متفقون على أنه أوصاه باستباحة الأموال والأنفس والسلاح والطعام.

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٣١).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠).

(٣) نفسه (٨/ ٢٢١).

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٤).

وكذلك نلاحظ أن الإباحة هذه التي أباحها يزيد لجيش مسلم لم تكن بغير شروط، ولكنها كانت مشروطة برفض أهل المدينة الإنذار الذي يوجهه إليهم مسلم، كما كانت مشروطة بمضي ثلاثة الأيام التي حددها لهم، ورفضهم الدخول في الطاعة.

وبهذا يكون يزيد قد أنذر وأعذر، ولكنا لا نعفيه على أية حال من تبعة السماح للجيش باستباحة المدينة، ونحمله مسؤولية ما نزل بأهلها الآمنين الذين لم يشاركوا في القتال، من النساء والصبيان والشيوخ.

وكان يكفيه أن يُخضع المحاربين والخارجين بالوسيلة التي تردهم إلى الطاعة، بما له عليهم من حق، وبما في أعناقهم من البيعة له، فإذا ما انتهت المعركة، وانهزم الخارجون، كف عن الآمنين، وأمسك عمن ألقوا السلاح، لأن في إلقائه، وعدم التشبث به، دليلاً على الخضوع والاستسلام، والعودة إلى الطاعة ولو كانوا كارهين.

إن استباحة المدينة، وترويع أهلها ظلماً، وبغير جريرة، فيه وعيد شديد، وتهديد أكيد من رسول الله ـ ﷺ ـ لمن فعله أو رضي به.

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن السائب بن خلاد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[1].

فماذا كان من الصحابة؟

كانت معركة الحرة في السنة الثالثة والستين من الهجرة النبوية، وكان كثير من الصحابة موجودين في المدينة حين دخلها جيش مسلم بن عقبة، واستباحها هذه الأيام الثلاثة، ولم يكن ما حدث في هذه المعركة اللعينة

---

(١) رواه أحمد في المسند.

مفاجأة لهؤلاء الأصحاب الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ولكنهم كانوا على علم تام به، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ كان قد أخبرهم به.

روى الواقدي أن النبي ـ ﷺ ـ خرج سفراً من أسفاره، فلما مرَّ بحرة زهرة وقف واسترجع، فسيء بذلك من معه، فظنوا أن ذلك من أمر بسفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما الذي رأيت؟

فقال النبي ـ ﷺ ـ: أما إن ذلك ليس من سفركم هذا.

قالوا: فما هو يا رسول الله؟

قال: يقتل في هذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي[1].

لم يكن ما حدث مفاجأة كما أسلفت، ولكن المفاجأة كانت في أن ذلك يحدث على يدي جيش مسلم يسيِّره أمير المؤمنين، حيث لم يكن الصحابة الذين بلغهم حديث رسول الله ـ ﷺ ـ يظنون أن ذلك سيحدث للمسلمين على أيدي المسلمين، فكان هول المفاجأة مفزعاً لهم، حتى فروا يلتمسون النجاة.

ولم يكن فرارهم جبناً من مواجهة الواقع، ولا فرقاً من منازلة الموت، ولكنه طلبا للنجاة من الدخول تحت طائلة الحديث الشريف «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[2].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله، وخرج أبو سعيد الخدري، فلجأ إلى غار في جبل، فلحقه رجل من أهل الشام.

قال: فلما رأيته انتضيت سيفي، فقصدني، فلما رآني صمم على قتلي، فشممت سيفي، ثم قلت: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما رأى ذلك قال: من أنت؟

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٢٤).

(٢) رواه أحمد في المسند.

قال: أنا أبو سعيد الخدري.

قلت: صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ .

قلت: نعم، فمضى وتركني[1].

وروى الطبراني عن أبي هارون العبدي قال: رأيت أبا سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ ممعَّط اللحية، فقلت: تعبث بلحيتك؟

قال: لا، هذا ما لقيت من ظلمة أهل الشام، دخلوا زمن الحرة فأخذوا ما كان في البيت من متاع أو خُرثيٍّ، ثم دخلت طائفة أخرى فلم يجدوا شيئاً، فأسفوا أن يخرجوا بغير شيء فقالوا: أضجعوا الشيخ، فجعل كل يأخذ من لحيتي خصلة[2].

وقتل من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عدد، ومن أشهرهم عبد الله ابن حنظلة الغسيل، وقتل معه بنوه الثمانية، وأخوه لأمه محمد بن ثابت ابن قيس بن شماس.

كذلك قتل عبد الله بن زيد، ومعقل بن سنان الأشجعي، وهو ممن شهد فتح مكة، ومنهم محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري[3].

ويروي الطبري قصة قتل معقل بن سنان فيقول: وجاء معقل بن سنان، فجلس مع القوم، فدعا بشراب ليسقى، فقال له مسلم: أي الشراب أحب إليك؟

قال: العسل، قال: اسقوه، فشرب حتى ارتوى.

فقال له مسلم: أقضيت رِيَّك من شرابك؟ قال: نعم.

قال: لا والله لا تشرب بعده شرباً أبداً إلا الحميم في نار جهنم، أتذكر

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢١) والآية من سورة المائدة رقم ٢٩.

(٢) وفاء الوفا (١/ ١٣٥) وممعط اللحية يعني ساقط شعرها، والخُرثي أردأ المتاع.

(٣) نفسه (١/ ١٣٣).

مقالتك لأمير المؤمنين: سرت شهراً، ورجعت شهراً، وأصبحت صفراً، اللهم غيِّر، ـ تعني يزيد ـ فقدمه فضرب عنقه[1].

عدد القتلى يوم الحرة:

تعددت أقوال المؤرخين في عدد القتلى في معركة الحرة، ورأيت أن أجمعها، وأدقها ما ذكره القرطبي ـ رحمه الله ـ وذلك لأنه ذكر ما لم يذكره غيره، ودعم كلامه بالأرقام التي لم تتوفر لغيره، فقال: كانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من مسجد النبي ـ ﷺ ـ فقتل بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وقتل بها من حملة القرآن سبعمائة رجل ومن قريش سبعة وتسعون قتلوا ظلماً في الحرب صَبْراً[2].

وواقم هذه هي الحرة الشرقية، وكانت المعركة بالقرب من مكان يعرف إلى اليوم بالعريض، وهي نفسها حرة زهرة التي أشار إليها الرسول ـ ﷺ ـ في سفره الذي سبقت الإشارة إليه وقال: يقتل في هذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي.

مسلم يدعو لبيعة يزيد:

انتهت المعركة، وقتل من قتل من الصحابة وكبار التابعين، وبقي من بقي ممن لم يشتركوا في المعركة، أو نأوا عن أماكن القتال، وانفرد مسلم بن عقبة بالسيطرة على المدينة، يدبر أمورها، ويوجه سياستها، وكان عليه أن يتمم هدف الحملة بأخذ البيعة من أهل المدينة لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

بعث مسلم بن عقبة إلى من بقي من أهل المدينة ليبايعوا ليزيد، وكان

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٢).
(٢) وفاء الوفا (١/ ١٢٦).

ذلك بقباء فحضر جماعة ممن كانوا بالمدينة منهم يزيد بن عبد الله بن زمعة ابن الأسود القرشي، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي القرشي، ومعقل ابن سنان الأشجعي وسعيد بن المسيّب وغيرهم.

قال مسلم ليزيد بن عبد الله ومحمد بن أبي الجهم: بايعا.

فقالا: نبايع على كتاب الله وسنة نبيه.

فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبداً، فقدمهما فضرب أعناقهما.

فقال مروان بن الحكم: سبحان الله! أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمّنا فضربت أعناقهما؟ فنخس بالقضيب في خاصرته، ثم قال: وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة[1].

ونظر مسلم إلى معقل بن سنان ـ وكان معقل صديقاً لمسلم ـ فقال مسلم: مرحباً بأبي محمد! أراك عطشان! قال: أجل.

قال: شوبوا له عسلاً بالثلج الذي حملتموه معنا، فشابوه له، فلما شرب معقل قال لمسلم: سقاك الله من شراب الجنة.

فقال له مسلم! أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم، فاسترحمه معقل، وناشده الله والرحم، ولكن مسلماً أمر به فقتل[2]. وقال مسلم لسعيد بن المسيَب! بايع.

فقال: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر، فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله[3].

وجيء بزيد بن وهب بن زمعة، فقال له مسلم: بايع.

فقال: أبايع على سنة عمر.

قال: اقتلوه، فقال زيد: أنا أبايع، فقال مسلم: لا والله لا أقيلك

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٢).

(٢) نفسه (٥/ ٤٩٣).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٢١).

عثرتك. فكلمه مروان ـ لصهر كان بينهما ـ فأمر بمروان فوجئت عنقه، ثم قال: بايعوا على أنكم خَوَل ـ يعني خدم وعبيد ـ ليزيد بن معاوية، ثم أمر به فقتل[1].

وهكذا أسرف مسلم في قتل أهل المدينة، دون ذنب ولا جريرة، وأدخل الرعب إلى القلوب حتى ذلت النفوس، وطأطأت الرؤوس، وأذعن الناس لما طلب منهم من البيعة ليزيد على أنهم عبيد له، يحكم في أموالهم ودمائهم وأهليهم ما شاء[2].

لم يرض مسلم من أهل المدينة بديلاً إلا أن يبايعوا على أنهم عبيد ليزيد، ومن أراد غير ذلك، أو تردد فيما طلب منه، أو تلكأ أمر بضرب عنقه على الفور.

وأحضروا علي بن عبد الله بن عباس ليبايع، فخاف الحصين بن نمير أن يقتله مسلم كما قتل غيره، فحث أهل اليمن في الجيش على حمايته، وهم أخوال عليٍّ، فقال الحصين: يا معشر اليمن، عليكم ابن أختكم.

فقام معه أربعة آلاف رجل، فقال لهم مسلم: أخلعتم أيديكم من الطاعة؟ فقالوا: أما فيه فنعم، فبايعه مسلم على أنه ابن عم يزيد[3].

وأسر مسلم بعض أهل المدينة، وحبسهم ثلاثة أيام لم يذوقوا طعاماً، وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك، وابني في الأسارى، فقال مسلم: عجلوه لها، فضربت عنقه.

وقال: أعطوها رأسه، أما ترضين ألا تقتلي حتى تكلمي في ابنك[4]؟!

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٤٩٣).
(٢) نفسه (٨/ ٢٢٢).
(٣) وفاء الوفا (١/ ١٣٢).
(٤) نفسه (١/ ١٣١).

وأرسلت إليه سُعدى بنت عوف المرِّية تقول: أنا بنت عمك، فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا.

فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلا بأخذ إبلها أولاً[1].

موقف مروان من قتلى الحرة:

مروان بن الحكم هوأحد أعمدة البيت الأموي، وهو وإن كان فرعاً آخر من الأمويين، أعني أنه ليس من ولد أبي سفيان، إلا أنه ابن عمهم، وقد آلت إليه إمارة الناس بعد انتهاء الفرع السفياني.

وهو الذي جمع الناس على بني أمية في أحرج الأوقات، وذلك بعد أن انتشرت دعوة ابن الزبير، ودانت له مصر والعراق والحجاز، وكادت دولة الأمويين أن تتبدد وتذهب مع الريح، لولا وقفة مروان، وأخذه البيعة لنفسه من أهل الشام كممثل للبيت الأموي الذي كان أهل الشام قد أعطوه ولاءهم بلا حدود.

ومع أن مروان لم يعمَّر في الحكم أكثر من شهور، غيرأنه استطاع فيها أن يعيد الحكم إلى البيت الأموي حيث ترك من الأولاد من كانوا جديرين بحق بقيادة الأمة، وتسيير دفة الأمور فيها، مثل عبد الملك بن مروان وأولاده الذين تولوا زمام الدولة أكثر من ستين عاماً.

ومروان هذا أحد الثقاة عند المحدثين، ومن أبرز الأدلة على ذلك رواية البخاري عنه في صحيحه، وقد ذكرتُ ذلك لأن الشيعة الذين يبغضون الأمويين قد قالوا فيه وذكروا عنه ما ينفر المسلمين منه، ويبغضه إلى قلوبهم، فأحببت أن تكون صورته واضحة أمام أعين الباحثين، حتى لا ينخدعوا بأقوال الرفض المتشيعين.

ولقد كان لمروان ـ رحمه الله ـ شهادة صدق لقتلى زعماء الحرة، مما

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠).

يدل على تألمه لما حصل في هذا اليوم من قتل الصالحين، وإراقة دماء المسلمين.

فبعد انتهاء المعركة، أخذ مسلم بن عقبة يطوف على القتلى، وبصحبته مروان بن الحكم، فمرَّا على محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، ورآه مروان مجندلاً فقال: رحمك الله، فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود[1].

يقول الطبري ـ رحمه الله ـ: وقتل معه محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، فمرَّ عليه مروان بن الحكم، وكأنه بِرْطيل من فضة ـ البرطيل معدن صلب تنقر به الرحا ـ فقال: رحمك الله فرب سارية قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها[2].

ومرَّ مروان بعبد الله بن حنظلة الغسيل، وقد رآه مشيراً بأصبعه السبابة، وقد يبست فقال: لئن أشرت بها ميتاً لطالما دعوت وتضرعت بها إلى الله تعالى.

وسمعه رجل من أهل الشام يشهد لهؤلاء الشهداء شهادة الحق، فقال الشامي: إن كان هو كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة.

فقال مروان: خالفوا ونكثوا[3].

مسلم بن عقبة وعلي بن الحسين وعمرو بن عثمان:

انتهى مسلم من أخذ البيعة ليزيد على النحو الذي ذكرته، وكان علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب في المدينة، ولكنه لم يحضر مع من بايعوا وكان لعلي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ موقف سابق مع

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩١).

(٣) وفاء الوفا (١/ ١٣٣).

مروان بن الحكم، وذلك حين حاصر أهل المدينة بني أمية، فآوى عليٌّ امرأة مروان وثَقَله، فلما أرادت الخروج إلى الطائف أرسل عليٌّ معها ابنه عبد الله، فكانت هذه يد لعلي عند مروان، شكرها له.

وأراد مروان أن يرد هذا الجميل لعلي بن الحسين، فدعاه، وجعله بينه وبين ابنه عبد الملك وأقبل به على مسلم، فجلسا وجلس عليٌّ بينهما، وطلب مروان شراباً ليستأمن به عند مسلم، فأحضروا له الشراب، فشرب مروان قليلاً، ثم ناوله لعلي بن الحسين.

وأخذ علي القدح، وهمّ أن يشرب، فقال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فأرعدت كف علي، وخاف أن يغدر به مسلم، ويبست يده على القدح فلم يشرب منه، ولم يضعه.

وهنا قال مسلم: إنما جئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي، والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك، ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك، وأخبرني أنك كاتبته، فذلك نافعك عندي[1].

ثم قال: فإن شئت فاشرب شرابك الذي في يدك، وإن شئت دعونا بغيره.

فقال: هذه التي في كفي أريد.

قال: اشربها[2].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ثم قال له مسلم بن عقبة: قم إلى ههنا فاجلس، فأجلسه معه على السرير، وقال له: إن أمير المؤمنين أوصاني بك، وإن هؤلاء شغلوني عنك.

ثم قال له: لعل أهلك فزعوا؟

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٣).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٣).

فقال: إي والله. فأمر بدابته فأسرجت ثم حمل علياً عليها، حتى رده إلى منزله مكرماً[1]. ونحن نرى هنا أن مسلم بن عقبة إنما أكرم علي بن الحسين لوصية يزيد، وتنفيذاً لما أمره به، ولولا ذلك ما أفلت علي من قبضة مسلم، وما استطاع أن ينجو بنفسه.

وهذا هو ما ذكره المؤرخون الموثوقون، وأما مؤرخو الشيعة فإنهم يروون أن مسلماً حين أحضر علي بن الحسين، وجلس بين يديه، امتلأ قلبه رعباً منه، فلم يقتله خوفاً مما أصابه من الرعب والفزع[2].

واستدعى مسلم بن عقبة عمرو بن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وكان عمرو قابعاً في المدينة لم يخرج مع بني أمية، ولعله كان يرى أن أهل المدينة على حق، ولعله أراد أن يتخذ عندهم يداً، فظل بينهم، ولم يخرج مع من خرج من بني أمية.

استدعاه مسلم بعد أن أكرم علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ وأظهر للناس احترامه لوصية أمير المؤمنين، فلما حضر عمرو عند مسلم قال: يا أهل الشام، تعرفون هذا؟

قالوا: لا، قال: هذا الخبيث بن الطيب، هذا عمرو بن عثمان بن عفان أمير المؤمنين، هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم، وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

ثم أمر به، فنتفت لحيته[3] بين يديه.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وكان ذا لحية كبيرة[4].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠).

(٢) مروج الذهب (٣/ ٨٠).

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٤).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠).

مسلم يغادر المدينة:

أتم مسلم مهمته الصعبة في مدينة رسول الله ـ ﷺ ـ وعبَّد أهلها ليزيد ثم غادرها يريد مكة المكرمة لينازل عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ كما أمره يزيد بن معاوية. ففي أول محرم سنة ٦٤ هـ = ٦٨٣ م استخلف مسلم على المدينة رَوْح بن زِنباع، وسار نحو مكة فمات في الطريق.

قال القرطبي: أهلكه الله منصرفه عن المدينة، ابتلاه الله بالماء الأصفر في بطنه، فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث ليال[١].

وسار بالجيش حتى بلغ ثنية هرشا، وهناك أحس بالموت فقال: إن ابني يزعم أن أم ولدي سقتني السم، وهو كاذب، هذا داء يصيبنا في بطوننا أهل البيت[٢].

ويرى الطبري أن مسلماً مات في آخر المحرم سنة ٦٤ هـ = ٦٨٣ م، وذلك يعني أنه مات بعد معركة الحرة بشهر تقريباً.

ويروي المدايني عن ذكوان مولى مروان قال: شرب مسلم بن عقبة دواء بعدما أنهب المدينة، ودعا بالغداء، فقال له الطبيب: لا تعجل، فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء.

قال: ويحك! إنما كنت أحب البقاء حتى أشفي نفسي من قتلة عثمان، فقد أدركت ما أردت، فليس شيء أحب إلي من الموت على طهارتي، فإني لا أشك أن الله قد طهرني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس[٣].

ثم أوصى بأن تكون مزرعته التي بحوْارن صدقة على قومه مُرَّة، ثم قال: وما أغلقت عليه فلانة بابها فهو لها ـ يريد أم ولده[٤] ـ.

---

(١) وفاء الوفا (١/ ١٣٦).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٧).
(٣) وفاء الوفا (١/ ١٣٣).
(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٧).

ثم قال: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أحب إليَّ من قتل أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة[1].

وسلم القيادة لحصين بن نمير السكوني، وأوصاه أن يسرع السير، وأن يعجل بالحرب، وأن يكتم أخبار الجيش، ولا يستمع لحديث قرشي.

وقال لحصين: يا ابن برذعة الحمار، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولاّك بعدي، وليس لأمر أمير المؤمنين مردٌّ[2].

ومات مسلم بن عقبة، ودفن بقفا المشلل[3].

ويعقب ابن كثير ـ رحمه الله ـ على موت مسلم بن عقبة فيقول:

ثم مات قبحه الله، ودفن بالمشلل فيما قاله الواقدي، ثم أتبعه الله بيزيد ابن معاوية، فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه.

فما متعهما الله بشيء مما رجوه وأملوه، بل قهرهم القاهر فوق عباده، وسلبهم الملك، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء[4].

تعليق وتحليل

إن واقعة الحرة تركت في تاريخ المسلمين جرحاً لم يندمل بعد، كما تركت في نفوسهم ألماً لم تستطع الأيام مع كثرتها تخفيفه، ولقد تناولها المؤرخون بأساليبهم المختلفة، وطرائقهم المتنوعة، ولكنهم جميعاً اشتركوا في حقيقة واحدة، وتلكم هي غلبة العاطفة، وسيطرة الانفعال على

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٧).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٦).
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٦).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٥).

الموضوعية، مع أننا جميعاً نؤمن تمام الإيمان أننا إزاء حادثة تاريخية ينبغي عند معالجتها التجرد من العاطفة، ونبذ الانفعال، وهما العاملان اللذان يؤثران في تحليل الأحداث التاريخية ويحولانها للخضوع لهوى النفس، وميل العاطفة.

إن تحكم العاطفة، وسيطرة الانفعال، يحرمان الأحداث التاريخية من الواقعية التي يجب أن تدرس في ضوئها، ويبعدانها عن الموضوعية التي لا يجوز أن تحلل إلا في محيطها، ومن هنا وجدتني ملزماً بتناول الواقعة بعيداً عن تحكم العاطفة وسيطرة الانفعال، حتى تُرى في حقيقتها مبرَّأة من التحيز، منزهة عن التحامل.

وإني أعتقد أن طريقتي في معالجة هذه الحادثة بالذات على النحو الذي قصدت، لن تروق العاطفيين من المؤرخين، ولن تعجب الكثيرين من قرائهم، وكذلك لن يوفر المادة التي ينتظرها الذين يتناولون الوقائع من جانب واحد متغاضين عن بقية الجوانب، ولو كانت أساس الموضوع وصلبه.

ولهذا فأنا أعتذر مقدماً لهؤلاء وأولئك، راجياً أن يحكموا عقولهم، ويستبعدوا عواطفهم، وأن يتسموا بالهدوء وينبذوا الانفعال، ولو لحظات حتى ينتهوا من قراءة هذا التعليق، ثم لهم بعد ذلك أن يتصفوا بما يشاؤون، ولكني واثق أنهم لن يميلوا عن الحق، ولم يجانبوا الصواب، مهما كانت العاطفة، ومهما قوي الانفعال.

وأحب أن أنبه هنا إلى أن مثل هذا الموضوع، يجب على من يريد معالجته، أن يكون شديد الحذر، مرهف الحاسة التاريخية، لمَّاحا لكل ما يحيط بالموضوع من الملابسات، فالحاكم الذي وقعت في عهده الواقعة، وصل إلى الحكم بطريقة لم يعهدها المسلمون من قبل، أثارت حوله كثيراً من القيل والقال، ثم لم يكن أحد البارزين الذين تشرئب إليهم الأعناق، وتتعلق بهم الآمال، وهو فوق ذلك ابن معاوية بن أبي سفيان العدو الأول للشيعة الموالية لعلي بن أبي طالب وآل بيته، وأخيراً فقد تولى أمر المسلمين، مع وجود كثير من الصحابة الذين لهم سابقة وجهاد، وكل منهم كان يرى أنه أحق بالأمر من يزيد بن معاوية.

كل هذه الأسباب جعلت يزيد يقف في مهب الريح، ويواجه عواصف هوجاء لا بد من مواجهتها، وبالتالي أوجدت له أعداء تقليديين، وأعداء عقديين، وهؤلاء وأولئك كان لهم أتباع، وهؤلاء الأتباع ليسوا على درجة من الوعي الديني، وشرف الخصومة، مما يجعلهم يتورعون عن افتراء الكذب، واختلاق البهتان.

وقد ثبت تاريخياً أن هؤلاء الأعداء دسوا على بني أمية كثيراً من الأباطيل، حتى إنهم لم يتورعوا عن وضع الأحاديث كذباً على رسول الله ـ ﷺ ـ ليذموا بها بني أمية، وينسبوا إليهم ما ليس فيهم، قاصدين من وراء ذلك تنفير الناس عنهم.

ويبدو أن بعض الخارجين على يزيد في موقعة الحرة كانت لهم منافع شخصية لم يحصلوا عليها، ومآرب مادية لم يستطيعوا الوصول إليها، ومن ذلك ما روي عن معقل بن سنان ـ رضي الله عنه ـ أنه ذهب إلى يزيد ليحظى بنواله، ويتزود من ماله، ولكن رجع بدون خفي حنين.

وفي طبرية قابل معقل مسلم بن عقبة ـ وكان صديقاً له ـ فقال له: سرنا شهراً، ورجعنا من عند يزيد صفرا، نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين[1].

فأسرَّها مسلم في نفسه، حتى تمكن من معقل بن سنان يوم الحرة، فأمر بضرب عنقه. نحن الآن أمام حاكم يقيم بالشام، تجمعت حوله عوامل كثيرة، كفيلة بأن تشوه أجمل صورة لأعدل حاكم، ومن ناحية أخرى أمام شعب يقيم بالمدينة النبوية، يرتبط بالإسلام برباط وثيق، يتمثل الواقعية التي كان يعيشها الخلفاء، ويتمسك بأن يكون الخلفاء كلهم على نحو أسلافهم، مهما اختلفت البيئة، ومهما تغيرت الأحوال.

وأمام هذين الموقفين ينبغي أن نعالج الموضوع متحرين مراعاة الظروف

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٢).

المختلفة للصورتين، متوخين إحقاق الحق، ولا يهمنا في أي جانب كان، غير عابئين بثورة العواطف المجانبة للصواب، ولا بسيطرة الانفعالات المؤدية إلى الانحراف.

إن بُعْد المسافة بين الشام والحجاز، لا يمكِّن سكان كل منهما من الوقوف على حقيقة الأمر في الجهة الأخرى، وهذا غالباً يكون أحد أسباب كثرة الشائعات، كما يكون أحد الأسباب المؤدية إلى ذيوعها وانتشارها، بل وتصديقها، ولهذا فنحن كباحثين لا نستبعد أن تكون التهم الموجهة إلى الخليفة إحدى هذه الشائعات، وإن لم يكن كلها فبعضها.

ونحن لا ننكر أن التهم خطيرة، وأنها تقلق نفوس المؤمنين الذين لم يبعدوا كثيراً عن زمن الخلافة الرشيدة، على أن بعض المعاصرين قد عايش الخلافة الرشيدة، وتمتع بعدالتها، وما أظلت به المسلمين من البر والمرحمة، ونحن لا ننكر ورود الإشاعات، كما لا ننكر قدرتها على إثارة النفوس، وإشعال الفتنة حتى يتحدى كل فريق الآخر، ومن هنا كان لا بد من تحقيق جانبين هامين في الموضوع، وهما: هل هذه التهم الموجهة إلى يزيد بن معاوية صحيحة؟ وإذا كانت صحيحة، فهل تجيز للمسلمين خلعه والخروج عليه؟؟

يجب على من يريد تحليل الأحداث للوصول إلى وجه الحق فيها أن يجعل هذين السؤالين أساس التحقيق والتحليل، لأن الوصول فيهما إلى إجابة شافية، سيوضح الصورة التي لا يستطيع المحقق الوصول إليها، وإصدار حكمه عليها إلا من خلال هذه الإجابة.

ومن هذا المنطلق نقول: إن أخطر التهم التي وجهت إلى يزيد هي شرب الخمر، وأنه كان يسكر حتى يترك الصلاة، ويعزف بالطنابير، ويلعب بالكلاب.

ونحن لا نقبل هذه التهم على عواهنها، بل ينبغي أن نسأل: من الذين رأوا يزيد وهو يمارس هذه المنكرات؟

لم يذكر المؤرخون أحداً باسمه لم يُتهم، وجه هذه التهم إلى يزيد، مما يجعلنا نرتاب في صحتها، حتى عبد الله بن مطيع أحد قواد ثورة أهل المدينة، لما ذهب إلى محمد بن الحنفية ليقنعه بالخروج معهم وخلع يزيد، ووجه هذه التهم إلى يزيد، سأله محمد، أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟

قال ابن مطيع! إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه.

فقال ابن الحنفية: أبى الله ذلك على الشهود فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فهذا أحد زعماء الثورة، وأشد المتحمسين لخلع يزيد، يعترف بأنه لم ير يزيد يشرب الخمر، فكيف نسمح لأنفسنا أن نوجه تهمة خطيرة مثل هذه لمسلم، ناهيك عن الخليفة، ولم نره يفعل ذلك، ولم يرد إلينا عن طريق الثقاة؟ ولو أنها وردت للثوار عن طريق الثقاة لأخبر عبد الله بن مطيع ابنَ الحنفية عن المصدر الذي يستند إليه في توجيه التهمة، ولكنه لم يفعل.

ثم نقول لمن يوجهون هذه الاتهامات: هل رأيتم يزيد وهو يأتيها؟ فإن رأيتموه ولم تنهوه عن ذلك فأنتم شركاؤه في الإثم، وإن زعمتم أنكم نصحتموه، فهاتوا لنا ما يثبت ذلك، وإلا فأنتم في عداد المفترين.

ذكر الطبري أن المنذر بن الزبير ممن صرح بذلك فقال: إن يزيد والله قد أجازني بمائة ألف درهم، وإنه لا يمنعني ما صنع إليَّ أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة[2].

ونحن نسأل: متى قال المنذر ذلك؟ وبأي مناسبة؟

إن المنذر بن الزبير لما أجازه يزيد بمائة ألف درهم لم يرجع إلى المدينة مع من رجعوا إليها، ولكن توجه إلى البصرة، حيث يكون عبيد الله ابن زياد أميراً عليها، وهو صديق للمنذر، فلما رجع وفد المدينة، وأظهروا

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٣).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨١).

شتم يزيد، وتداعوا إلى خلعه، بلغ يزيد ما فعل أهل المدينة، فكتب إلى عبيد الله بن زياد أن يمسك المنذر حتى يرى فيه رأيه.

وهنا استنكف ابن زياد أن يغدر بصديقه وضيفه، فاحتال حتى خرج المنذر من عنده أمام الناس، وعندئذ توجه المنذر إلى المدينة، وقال ما قال في يزيد، فهل يؤخذ بقول المنذر، وهو في مثل هذه الحال، وهو واقع تحت هذا الضغط النفسي؟

لا شك أن المنذر في هذه الحال، التي وقع فيها تحت تهديد يزيد ووعيده يعتبر خصماً ليزيد لا تقبل شهادته فيه.

وذكر ابن الجوزي أن عبد الله بن أبي عمرو بن حفص المخزومي قال: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي، ونزعها عن رأسه، إني لأقول هذا وقد وصلني وأحسن جائزتي، ولكن عدو الله سكير[1].

إن عبد الله بن أبي عمرو هذا أحد أفراد الوفد الذين ذهبوا إلى يزيد، وأكرمهم وأحسن جائزتهم كما يقول، وشهادته هذه يعتد بها لو أنه رواها بطريقة موثقة، كأنه يقول: رأيته يسكر، أو أخبرني فلان الثقة أنه يسكر، ولكن الرواية كما ذُكرت تحتمل أنه رآه، وتحتمل أنه سمع، ومثل ذلك لا يعتد به عند المحدثين إلا أن يقترن بما يدل على القطع، والإسلام يدرأ الحدود بالشبهات، والاحتمال أحد الشبهات التي يُدرأ بها الحد، وإذا درىء الحد فقد سقطت التهمة.

على أن جواب عبد الله بن مطيع السابق لابن الحنفية، يدل على أن أحداً من أتباعه لم ير يزيد وهو يشرب الخمر، وعبد الله بن أبي عمرو هذا أحد أتباع ابن مطيع، فلو كان رآه يشرب الخمر لذكر ذلك لابن الحنفية، أو لذكر ابن مطيع أن ابن أبي عمرو رآه يشرب، ولكن ابن أبي عمرو لم يقل، وابن مطيع لم يرو عنه، فدل ذلك على أن الرواية مشكوك فيها.

---

(١) وفاء الوفا (١/١٢٨).

إن اتهام يزيد بما اتهم به لم يثبت بطريق قطعي يمكن الاعتماد عليه، ولهذا فإنه سيبقى مجرد اتهام بعيد عن الأدلة، لا يمكن إدانة صاحبه به شرعاً.

ونحن إذا سلمنا مع الذين يتهمون يزيد بهذه الاتهامات، وقلنا بصحة ثبوتها فرضاً، فهل هذه التهم مما يجيز خلع الخليفة الذي بايعته الأمة، ورضيت بخلافته ثلاث سنين؟

لنستعرض آراء العلماء في هذه المسألة، لنتعرف على وجه الحق فيها، ثم نمضي بعد فيما يفتح الله به من التحليل والتعليق.

إن آراء علماء الأمة سلفها وخلفها متفقة على أن الفسق بارتكاب بعض المعاصي لا يبيح للأمة الخروج على الخليفة وخلعه.

يقول إمام الحرمين الجويني: ولا يخفى على منصف أن اشتراط دوام التقوى، يجر قصاراه عسر القيام بالإيالة العظمى،ثم لو كان الفسق المتفق عليه يوجب انخلاع الإمام أو يخلعه لكان الكلام يتطرق إلى جميع أفعاله وأقواله على تفنن أطواره وأحواله، ولما خلا زمن عن خوض خائضين في فسقه المقتضي خلعه، ولتحزب الناس أبداً في مطرد الأوقات على افتراق وشتات في النفي والإثبات، ولما استتبت صفوة الطاعة للإمام في ساعة[1].

ويقول ولي الله الدهلوي: إن استوى من لم يجمع الشروط، لا ينبغي أن يبادر إلى المخالفة، لأن خلعه لا يتصور غالباً إلا بحروب ومضايقات، وفيها من المفسدة أشد مما يرجى من المصلحة، وسئل رسول الله ـ ﷺ ـ عنهم فقيل: أفلا ننابذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة» وقال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» وبالجملة فإذا كفر الخليفة بإنكار ضروري من ضروريات الدين، حل قتاله، بل وجب، وإلا لا[2].

ويقول الحافظ ابن كثير: والفاسق لا يجوز خلعه، لأجل ما يثور بسبب

---

(١) الغياثي الجويني (ص ١٠٢) تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب.
(٢) حجة الله البالغة للدهلوي (٢/ ١٥٠).

ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع زمن الحرة[1]. وقال: والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قَوْلَي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من إثارة الفتنة[2].

ويقول الإمام النووي: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم، إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم.

وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق.

وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضاً فغلط من قائله، مخالف للإجماع.

قال العلماء: وسبب عدم انعزاله، وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه[3].

وعلى هذا يتقرر أن الخروج على الإمام ولو كان فاسقاً حرام، ومخالف لإجماع علماء الأمة كما قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ وبناء على ما تقرر يكون خروج أهل المدينة النبوية على يزيد بن معاوية غير جائز، ويكونون بذلك مخالفين لما أجمع عليه سلف الأمة وخلفها.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهو من فقهاء الصحابة، ومحمد بن الحنفية وهو من كبار التابعين وخيارهم، وسعيد بن المسيّب الذي لزم المسجد النبوي ولم يخرج مع الخارجين، وعلي بن عبد الله

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).

(٢) نفسه (٨/ ٢٢٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (باب وجوب طاعة الأمراء).

ابن عباس، وغيرهم لم يخرجوا، ولم يفتوا بجواز الخروج، بل دافع بعضهم عن يزيد، ودفع التهم التي وجهت إليه، ونصح بعضهم الخارجين وطلبوا منهم بذل الطاعة وعدم الخروج على الجماعة، والتزم بعضهم المسجد ولم يشارك في شيء مما قام به أهل المدينة، فإن ذلك يؤكد أن خروج أهل المدينة كان غلطة جَرَّتْ عليهم هذا البلاء الذي نزل بهم.

وعلينا بعد ذلك أن ننظر إلى الموضوع من الجانب الآخر، ومن حق القارىء أن يتساءل: هل كان يزيد على حق لما بعث جيشه إلى المدينة؟ وهل ما حصل لأهل المدينة على يدي هذا الجيش شيء لا يلام عليه يزيد؟؟

أقول: إن يزيد كان في موقف الدفاع عن سلطانه، وذلك حقه، ومن يدري ماذا كان يحدث لو أنه يزيد تساهل وترك أهل المدينة يستقلون بأمورهم، ويخرجون على الطاعة، هل كانت المسألة ستقف عند هذا الحد، أم سيتفاقم الأمر، ويدلهم الخطب، وتتمرد بقية الأقاليم، وتتفتت الدولة الإسلامية، وهي في ريعان شبابها؟

لا شك أن نجاح ثورة المدينة، سيكون من أهم العوامل التي تشجع على حدوث تمردات أخرى في أماكن أخرى، مما يترتب عليه ذوبان الدولة وزوالها في وقت كان أعداؤها يتربصون بها الدوائر، ويتحينون الفرصة للانقضاض عليها، ليستردوا ما فتحه المسلمون من بلادهم.

لقد كان الواجب يحتم على يزيد أن يردع المتمردين، لا من أجل الحفاظ على ملكه فقط، ولكن من أجل الحفاظ على الإسلام ودولته التي لا تزال في دور التكوين، ومع ذلك فإننا رأينا أن يزيد اتبع الطريقة الصحيحة حين بعث جيشه إلى المدينة، فلم يأمره بالمفاجأة، ولم يحثه على البغتة، بل أمره بأن يتمهل، وأن ينذر القوم، فلا يحارب إلا بعد مضي ثلاثة أيام، وكان يزيد يأمل أن يعود أهل المدينة إلى الطاعة، فيكف عنهم الجيش، ويقبل منهم العودة، ولا يكون هناك قتال، وبخاصة وأن عبد الله بن جعفر، كان قد سأل يزيد حين جهز الجيش ليبعثه إلى المدينة فقال: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم؟

قال يزيد: إن فعلوا فلا بأس عليهم[1].

وكان مسلم بن عقبة ـ مع إجرامه وحبه لسفك الدماء ـ ملتزماً بوصية يزيد، فلم يفاجىء أهل المدينة، ولكنه أنذرهم وأمهلهم ثلاثة أيام، فلما انقضت الأيام الثلاثة، حاول أن يقنعهم بعدم الحرب، والدخول في السلم، ليحقنوا دماءهم، ولكنهم أبوا عليه، وأصروا على الحرب[2].

ولما انتهت المعركة، وراح ضحيتها خيار المسلمين بالمدينة، واستقر الأمر ليزيد فيها، لم يفرح بما آل إليه أمر المدينة، ولم يشمت بهم كما روى مؤرخو الشيعة حين نسبوا إليه قوله متمثلاً بشعر ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكّت بقباء بركها ... واستحر القتل في عبد الأشل
ثم خفوا عند ذاكم رُقّصا ... رقص الحِفّان يعلو في الجبل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

ولكنه حين جاءه روح بن زنباع يبشره بما حل بأهل المدينة من الدمار والقتل والخراب تألم ألماً شديداً، وندب القتلى، فقال: واقوماه!!

ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة، فما الذي يُجبرهم؟

قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أعطيته[3].

ولم يكن إرسال الجيش والاستعداد للمعركة هو أول ما بدأ به يزيد مع أهل المدينة ولكنه أعذر قبل ذلك، فأرسل إليهم النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي، ليقنعهم بالعودة إلى الجماعة، والانضمام إلى صف المسلمين،

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢١٨).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٧).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٣).

فأبوا عليه، ولم يقبلوا نصحه، وقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟

وعصاه الناس، فانصرف عنهم[1].

وهكذا يكون يزيد قد أنذر وأعذر، وسلك كل طريق يمكن أن يؤدي إلى وقف الحرب، ويحفظ على المسلمين دماءهم وأموالهم، ويساعد على وحدة المسلمين وتماسك صفوفهم. ولكن هل يكفي ذلك لينجو يزيد من المؤاخذة واللَّوم؟

على أية حال لم يكن يزيد لينجو من لوم المؤرخين، ولا من مؤاخذة التاريخ، ولو أنه وقف عند حد الإعذار، وأرسل بعد النعمان بن بشير رجلاً ثانياً وثالثاً لكان قد قطع الشوط إلى آخره ولوجد المؤرخون له بعض العذر، ولو أنه اكتفى بحرب المحاربين، وإخضاع الخارجين دون أن يبيح المدينة، ويعكر صفو الآمنين، ويبيح أموال المسالمين، لالتمس التاريخ له عذراً وعذراً وعذراً.

ولكن الخطأ الفاحش الذي لا تغسله الدموع، ولا يخفف منه الاعتذار والمواساة هو الأمر بإباحة المدينة ثلاثة أيام، مما أدى إلى وقوع فساد عظيم، وشر مستطير، وفتح للحاقدين باباً. نفذوا منه إلى تشويه سمعة يزيد، وزادوا وعادوا في أمور لولا التحقيق والبحث لأصبح يزيد يُلعن على كل لسان بسببها.

إن استباحة المدينة عمل يخالف طبيعة الإسلام، وحماقة لا تليق بعامة المسلمين، بلْه الخلفاء والمسؤولين، وجريمة ستظل تلاحق يزيد إلى يوم الدين.

ويجرنا ذلك إلى سؤال مهم في الموضوع، وهو: هل يجوز لعن يزيد؟

أقول: اللعنة هي الطرد والحرمان من رحمة الله ـ تعالى ـ ولهذا لا

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨١).

يجوز لعن المؤمن ولو كان عاصياً فاسقاً، لأن مآله إلى رحمة الله مهما كانت معاصيه، ما دام يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بالقدر خيره وشره.

فقد جاء في الصحيح: «أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[1] فالعصاة في رحمة الله، حتى وهم في النار، لأنه رحيم بهم حين يخرجهم منها، فكيف إذاً نلعنهم ونطلب طردهم من رحمته ـ سبحانه ـ.

ولكن وردت أحاديث فيها لعن أصناف من الناس، وقد يكونون مؤمنين. روى ابن كثير عن ابن وهب بسنده: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[2].

واستدل بهذا الحديث وأمثاله من رأى جواز لعن يزيد، ومن هؤلاء الإمام أحمد في أحد قوليه، والخلال والقاضي أبو يعْلَى وابنه القاضي حسين، وأبو الفرج بن الجوزي، فقد جوز لعنته، وألف فيه كتاباً.

وأرى أن هذا الحديث جاء مطلقاً، ولكن رواية الإمام أحمد قيدت الإخافة بالظلم، حيث روى الإمام أحمد بسنده: «من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» ولعل هذا القيد هو الذي جعل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لا يجوِّز لعن يزيد في قوله الثاني، وانضم إلى رأي الإمام أحمد هنا جماعة من العلماء، فمنعوا لعن يزيد، حتى لا يكون لعنه وسيلة إلى لعن أبيه أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من التصرفات السيئة على أنه تأول وأخطأ[3].

ومن أباح لعنه احترز وقال: العن يزيد ولا تزيد.

وأرى من تمام الفائدة للبحث أن أختم هذا التحليل بكلمات هي نص

---

(١) رواه البخاري باب تفاضل أهل الإيمان.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٣).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٣).

في الموضوع للإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وأبي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ.

فأما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فيرد على متهمي يزيد بقوله: وأما من قال إنه كان كافراً، وإن أباه معاوية كان كافراً، وإنه قتل الحسين تشفياً وأخذ بثأر أقاربه من الكفار، فهو أيضاً كاذب مفتر.

ومن قال: إنه تمثل لما أُتي برأس الحسين بقوله:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرؤوس على رُبى جيرون
نعق الغراب فقلت: نح أو لا تنح ... فلقد قضيت من النبي ديوني

أو (من الحسين ديوني) فقد كذب.

والديوان الشعر الذي يعزى إليه عامته كذب، وأعداء الإسلام كاليهود وغيرهم يكتبونه للقدح في الإسلام، ويذكرون فيه ما هو كذب ظاهر كقولهم إنه أنشد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا الكبش من أقرانهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

وإنه تمثل بهذا ليالي الحرة.. فهو أكذب.

ثم قال: فلا يجوز أن يُغلا في يزيد ولا غيره، بل لا يجوز أن يُتكلم في أحد إلا بعلم وعدل[1].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في موضع آخر:

ومع هذا فيزيد لم يأمر بقتل الحسين، ولا حُمل رأسه إلى بين يديه، ولا نكت بالقضيب على ثناياه، بل الذي جرى هذا منه هو عبيد الله بن زياد، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

---

(١) سؤال في يزيد بن معاوية (ص ١٥، ١٦) للدكتور صلاح المنجد.

ولا طيف برأسه في الدنيا، ولا سُبي أحد من أهل الحسين[1].

وأما أبو حامد الغزَّالي ـ رحمه الله ـ فسئل عن يزيد: هل يصرح بلعنه؟ ومن يلعنه هل يحكم بفسقه، أم يكون مرخصاً له فيه؟ وهل كان مريداً قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ أم كان قصده الدفع؟ وهل يسوغ الترحيم عليه، أم السكوت عنه أفضل؟

تنعَّم بإزالة الاشتباه مثاباً.

فأجاب الغزَّالي بقوله: لا يجوز لعن المسلم أصلاً، ومن لعن مسلماً فهو الملعون، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المسلم ليس بلعان» وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم؟ وقد ورد النهي عن ذلك.

وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي ـ ﷺ ـ ويزيد صح إسلامه وما صح قتله الحسين ـ رضي الله عنه ـ ولا أمر به، ولا رضيه، ومهما لا يصح ذلك منه لا يجوز أن يظن ذلك به، فإن إساءة الظن بالمسلم حرام، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقال النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله حرم المسلم دمه وماله وعرضه، وأن يظن به السوء».

ومن زعم أن يزيد أمر بقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ أو رضي به، فينبغي أن يعلم به غاية الحمق، فإن من كان من الأكابر والوزراء والسلاطين في عصره لو أراد أن يعلم حقيقة من الذي أمر بقتله؟ ومن الذي رضي به؟ ومن الذي كرهه؟ لم يقدر على ذلك، وإن كان الذي قتل في جواره وزمانه وهو يشاهده، فكيف لو كان في بلد بعيد، وزمن قديم قد انقضى؟ فكيف نعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من أربعمائة سنة في مكان بعيد؟

وقد تطرق التعصب في الواقعة، فكثرت فيها الأحاديث من الجوانب، فهذا الأمر لا تعلم حقيقته أصلاً، وإذا لم تعرف وجب إحسان الظن بكل مسلم يمكن إحسان الظن به.

---

(١) سؤال في يزيد بن معاوية (ص ١٧).

ومع هذا لو ثبت على مسلم أنه قتل مسلماً فمذهب أهل السنة (أهل الحق) أنه ليس بكافر، والقتل ليس بكفر، بل هو معصية، فإذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة، والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته، فكيف من تاب عن قتل؟ ولم نعرف أن قاتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ مات قبل التوبة ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين، ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله ـ عز وجل ـ.

ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصياً بالإجماع، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره، لا يقال له يوم القيامة: لِم لمْ تلعن إبليس؟

ولا يقال للَّاعن: لم لعنت؟ ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون؟ والملعون هو البعيد من الله ـ عز وجل ـ وذلك غيب لا يعرف إلا فيمن مات كافراً، فإن ذلك علم بالشرع.

وأما الترحم عليه (أي يزيد) فجائز، بل هو مستحب، بل داخل في قولنا في كل صلاة: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فإنه كان مؤمناً والله أعلم. كتبه الغزالي[1].

---

(١) سؤال في يزيد بن معاوية (ص ٣٣).

ثبت المراجع والمصادر

١ ـ **القرآن الكريم**.
٢ ـ **كتب السنة الشريفة**.
٣ ـ **آثار المدينة المنورة** ـ عبد القدوس الأنصاري.
٤ ـ **أخبار مدينة الرسول** ـ محمد محمود النجار.
٥ ـ **الأخبار الطوال** ـ أبو حنيفة الدينوري.
٦ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ـ ابن عبد البر النمري القرطبي.
٧ ـ **الإصابه في تمييز الصحابه** ـ أحمد بن علي بن حجر.
٨ ـ **الإيضاح والتبيان** ـ ابن الرفعة الأنصاري.
٩ ـ **البداية والنهاية** ـ للحافظ إسماعيل بن كثير.
١٠ ـ **تأملات في سيرة الرسول** ـ الدكتور محمد السيد الوكيل.
١١ ـ **تاريخ الطبري** ـ محمد بن جرير الطبري.
١٢ ـ **تاريخ الخلفاء** ـ جلال الدين السيوطي.
١٣ ـ **تاريخ المغرب الكبير** ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم.
١٤ ـ **تاريخ المدينة قديماً وحديثاً** ـ الدكتور عبد الباسط بدر.
١٥ ـ **تذكرة الحفاظ** ـ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي.
١٦ ـ **التراتيب الإدارية** ـ عبد الحي الكتاني.
١٧ ـ **تفسير القرطبي** ـ محمد بن أحمد القرطبي.
١٨ ـ **جامع الأصول** ـ ابن الأثير الجزري.
١٩ ـ **جامع بيان العلم وفضله** ـ ابن عبد البر النمري القرطبي.
٢٠ ـ **حجة الله البالغة** ـ أحمد عبد الرحيم الدهلوي.

٢١ ـ **حياة محمد** ـ الدكتور محمد حسين هيكل.
٢٢ ـ **الدر الثمين** ـ محمد غالي الشنقيطي.
٢٣ ـ **رسائل وصف المدينة** ـ رسائل في تاريخ المدينة نشر الشيخ حامد الجاسر.
٢٤ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** ـ محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم.
٢٥ ـ **سؤال في يزيد بن معاوية** ـ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.
٢٦ ـ **سيرة دحلان** ـ أحمد زيني المشهور بدحلان.
٢٧ ـ **السيرة النبوية** ـ عبد الملك بن هشام.
٢٨ ـ **السيرة الحلبية** ـ برهان الدين الحلبي.
٢٩ ـ **ضحى الإسلام** ـ الدكتور أحمد أمين.
٣٠ ـ **طبقات الشافعية** ـ عبد الوهاب بن علي السبكي.
٣١ ـ **الطبقات الكبرى** ـ محمد بن سعد بن منيع.
٣٢ ـ **عمدة الأخبار** ـ أحمد عبد الحميد العباسي.
٣٣ ـ **الغياثي** ـ عبد الملك الجويني.
٣٤ ـ **فتوح البلدان** ـ أبو الحسن البلاذري.
٣٥ ـ **فتح الباري** ـ أحمد بن علي بن حجر.
٣٦ ـ **الفهرست** ـ ابن النديم.
٣٧ ـ **القيادة والجندية في الإسلام** ـ الدكتور محمد السيد الوكيل.
٣٨ ـ **مختصر سيرة الرسول** ـ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.
٣٩ ـ **المعارف** ـ عبد الله بن مسلم الدينوري.
٤٠ ـ **المغازي** ـ محمد بن عمر بن واقد.
٤١ ـ **موسوعة المدينة المنورة التاريخية** ـ الدكتور محمد السيد الوكيل.
٤٢ ـ **المواعظ والاعتبار** ـ أحمد بن علي المقريزي.
٤٣ ـ **نشرة مجموعة بن لادن** ـ مجموعة بن لادن.
٤٤ ـ **النظام المالي المقارن** ـ الدكتور بدوي عبد اللطيف.
٤٥ ـ **نفح الطيب** ـ أحمد بن محمد التلمساني.
٤٦ ـ **نيل الأوطار** محمد بن علي الشوكاني.
٤٧ ـ **وفاء الوفا** ـ علي بن أحمد السمهودي.
٤٨ ـ **وفيات الأعيان** ـ أحمد بن محمد بن خلكان.

الفهـــرس

المقدمة ٥
أسباب نقل مقر الخلافة من المدينة ١١
أثر تحول مقر الخلافة إلى الكوفة ١٧
١ ـ الأثر الاقتصادي ١٩
٢ ـ الأثر السياسي ٢٣

الفصل الأول:
المساجد

المساجد ٢٧
١ ـ مسجد قباء ٢٧
المسجد الذي أسس على التقوى ٢٨
وصف المسجد قبل التوسعة السعودية ٣٠
عمارة المسجد منذ نشأته ٣١
توسعة الملك فهد ٣٢
مساحة المسجد ٣٣
وصف عام للمسجد بعد التوسعة ٣٤
فضل الصلاة في مسجد قباء ٣٧

٢ ـ **مسجد الجمعة** ٣٩
مساحة المسجد ووصفه ٤٠
٣ ـ **مسجد الفضيخ** ٤١
عمارة المسجد ووصفه ٤٢
٤ ـ **مسجد الإجابة** ٤٢
عمارته ٤٣
٥ ـ **مسجد المصلى** ٤٣
عمارة المسجد ٤٥
وصف المسجد وموقعه ٤٦
فضل المصلى ٤٧
ملاحظة ٤٨
٦ ـ **مسجد السجدة** ٤٨
٧ ـ **مسجد ذباب** ٥٠
عمارته ٥١
٨ ـ **مسجد السقيا** ٥١
موقع المسجد وعمارته ٥٣
٩ ـ **مسجد الفتح** ٥٥
عمارته ووصفه ٥٨
المساجد التي حول مسجد الفتح ٥٩
١٠ ـ **مسجد القبلتين** ٦٠
موقع المسجد وعمارته ٦٢
عمارة الملك فهد للمسجد ٦٣
مساحة المسجد ٦٣
وصف عام للمسجد ٦٤
الإضاءة والتكييف ٦٦

الفصل الثاني:
المشاهد التاريخية

المشاهد التاريخية ٧١
أولا ـ المشاهد الاجتماعية ٧٣
١ ـ بقيع الغرقد ٧٣
فضل البقيع ٧٤
موقع البقيع ووصفه ٧٥
من دفن في البقيع من الصحابة ٧٦
١ ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة ٧٦
٢ ـ عثمان بن مظعون ٧٧
٣ ـ إبراهيم ابن النبي ـ ﷺ ـ ٧٨
٤ ـ الحسن بن علي ٧٩
٥ ـ خنيس بن حذافة ٨١
٦ ـ عثمان بن عفان ٨١
٧ ـ عبد الرحمن بن عوف ٨٢
٨ ـ سعد بن أبي وقاص ٨٤
٩ ـ أبو سعيد الخدري ٨٧
١٠ ـ عبد الله بن مسعود ٨٨
١١ ـ سعد بن معاذ ٩٢
١٢ ـ العباس بن عبد المطلب ٩٣
١٣ ـ عبد الله بن جعفر ٩٦
١٤ ـ ومن أتباع التابعين مالك بن أنس ٩٨
شخصيات مسلمات دُفِنَّ بالبقيع: ١٠٢
١ ـ صفية بنت عبد المطلب ١٠٢
٢ ـ رقية بنت الرسول ١٠٤
٣ ـ زينب بنت الرسول ١٠٥

٤ ـ أم كلثوم بنت الرسول ١٠٨
٥ ـ فاطمة بنت الرسول ١٠٩
٦ ـ فاطمة بنت أسد ١١٢
أمهات المؤمنين: ١١٣
١ ـ سودة بنت زمعة ١١٦
٢ ـ عائشة بنت الصديق ١١٨
٣ ـ حفصة بنت عمر ١٢٠
٤ ـ زينب بنت خزيمة ١٢٢
٥ ـ أم سلمة هند ١٢٣
٦ ـ زينب بنت جحش ١٢٦
٧ ـ ريحانة بنت زيد ١٣١
٨ ـ جويرية بنت الحارث ١٣٢
٩ ـ رملة بنت أبي سفيان ١٣٤
١٠ ـ صفية بنت حيي ١٣٦
مشاهد البقيع المشهورة ١٤١

٢ ـ الآبار: ١٤٣
ا ـ بئر حاء ١٤٣
ب ـ بئر أريس ١٤٥
جـ ـ بئر بضاعة ١٤٨
د ـ بئر رومة ١٥٠

ثانياً: المشاهد الكونية ١٥٣
١ ـ جبل أحد ١٥٣
٢ ـ جبل سَلْع ١٥٦
٣ ـ جبلا ثور وعَيْر ١٥٧
٤ ـ الحرتان الشرقية والغربية ١٥٨
٥ ـ ثنية الوداع ١٦١

ثالثاً: المشاهد الأثرية ١٦٤
١ ـ حصن كعب بن الأشرف ١٦٤
٢ ـ سقيفة بني ساعدة ١٧٠
مكان السقيفة تاريخيا ١٧٢
٣ ـ دار أبي أيوب ١٧٧
الرسول في دار أبي أيوب ١٧٨

الفصل الثالث:
المشاهد العسكرية

١ ـ غزوة أحد ١٨٥
جيش المشركين يصل إلى مشارف المدينة ١٨٧
٢ ـ غزوة الخندق ١٩٤
إحصاء عن حفر الخندق ١٩٦
مفاجأة مذهلة ١٩٧
حرب الإشاعة ٢٠٠
نعيم يؤدي المهمة على أكمل وجه ٢٠١
الرسول يستطلع أخبار المشركين ٢٠٤
أبو سفيان يقرر الرحيل ٢٠٥
٣ ـ معركة الحرة ٢٠٧
ترجمة يزيد ٢٠٨
معاوية يتعهد يزيد بالتربية ٢١١
معاوية يوصي يزيد ٢١٤
يزيد بين القادحين والمعتدلين ٢١٦
١ ـ عبد الله بن عمر ويزيد ٢١٧
٢ ـ محمد بن الحنفية ويزيد ٢١٨
٣ ـ الحافظ ابن كثير ويزيد ٢٢٠
وفاة يزيد ٢٢٤

أسباب معركة الحرة ٢٢٥
وفد أهل المدينة إلى يزيد ٢٢٨
الاستعداد للمعركة ٢٣٠
يزيد يوصي مسلم بن عقبة ٢٣٣
بنو أمية يلتقون بجيش مسلم ٢٣٥
مسلم يهاجم المدينة ٢٣٥
كيف دارت المعركة؟ ٢٣٦
مسلم بن عقبة يبيح المدينة ٢٣٩
تعليق ٢٤١
فماذا كان من الصحابة؟ ٢٤٤
عدد القتلى يوم الحرة ٢٤٧
مسلم يدعو لبيعة يزيد ٢٤٧
موقف مروان من قتلى الحرة ٢٥٠
مسلم بن عقبة وعلي بن الحسين وعمرو بن عثمان ٢٥١
مسلم يغادر المدينة ٢٥٤
تعليق وتحليل ٢٥٥
ثبت المراجع والمصادر ٢٧١
الفهرس ٢٧٣

كتب للمؤلف

١ ـ هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه.
٢ ـ أسس الدعوة وآداب الدعاة.
٣ ـ كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري.
٤ ـ جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين.
٥ ـ تأملات في سيرة الرسول.
٦ ـ لمحات من تاريخ الدعوة (ثلاثة أجزاء).
٧ ـ قواعد البناء في المجتمع الإسلامي.
٨ ـ عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها.
٩ ـ القيادة والجندية في الإسلام (جزءان).
١٠ ـ الحج الميسر.
١١ ـ الترويح في المجتمع الإسلامي.
١٢ ـ موسوعة المدينة المنورة التاريخية (ستة أجزاء طبع منها أربعة).
١٣ ـ الأوائل لأبي هلال العسكري (تحقيق وضبط وتعليق).
١٤ ـ نظرات في أحسن القصص.
١٥ ـ الأمويون بين الشرق والغرب.
١٦ ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب (تحقيق وتعليق).

كتب تحت الطبع

١ ـ الحركة الإسلامية تطلعات وحقائق.
٢ ـ المستشرقون والإسلام.
٣ ـ الجزء السادس من الموسوعة.